طبعة ثانية

إبراهيم متري رحباني



المسيح السوري

نقله عن الإنجليزية وحقّقه:

أسامة عجاج المهتار

إبراهيم متري رحباني

المسيح السوري

نقله عن الإنجليزية وحقّقه:
أسامة عجاج المهتار

THE SYRIAN CHRIST
Abraham Mitrie Rihbany

* المسيح السوري

* تأليف: إبراهيم متري رحباني

* ترجمة وتحقيق: أسامة عجاج المهتار

* الطبعة الأولى أيلول (سبتمبر) 2001م

* الطبعة الثانية أيار (مايو) 2002م

* الإخراج: نصر الشيخ علي
nasr-sh@scs-net.org

* التحضير الطباعي: مركز الفوال
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية ـ تلفاكس 2239755 11 963+

* التوزيع: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع
■ ص. ب: 113/16435 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 750054 1 961– فاكس: 750053 1 961
■ E-mail: daramwaj@inco.com.lb
■ التوزيع على الإنترنت: www.alfurat.com
■ ISBN:9953-417-05-9

نُشر هذا الكتاب في فصول متسلسلة
في مجلة "آتلنتك منثلي" أميركانيا
بين العامين 1914 و 1916، باللغة الإنجليزية.
جُمعت فصوله ونشرت في كتاب سنة 1916
وأُعيدت طباعته سبع عشرة مرة بين 1916 و 1937.



شكر وعرفان

إنني مدين في تعريب هذا الكتاب ونشره إلى العديد من الأصدقاء الذين قدموا لي كل التشجيع والدعم، وأخص بالذكر منهم الدكتورة عائدة ورعة والسيد منذر زمّو والسيدة إلهام قيامة.

كما أتقدم بالشكر من أخي هانيبال الذي دقق في جميع المراجع الإنجيلية، والصديق أحمد أصفهاني الذي راجع الكتاب ونقحّ لغته، بالإضافة إلى نصائحه التي لا تقدر بثمن، والأديب أحمد مراد الذي راجع مسودة الطبعة الثانية، والأديبة الفاضلة السيدة مهاة فرح الخوري التي أغنت الطبعة الثانية بتوجيهاتها، والصديقة سمر حداد لمتابعتها الدؤوبة لكل التفاصيل المتعلقة بنشر الكتاب في طبعتيه الأولى والثانية، وما أكثرها!

أما زوجتي المحبّة ليلى، فقد جسَّدت فيما هي توفر لي واحة هدوء في أعاصير الحياة اليومية، روح «المرأة اللطيفة والفاضلة» التي يصفها رحباني.

لهم جميعاً خالص تقديري وامتناني.

أسامة


ABU ABDO ALBAGL

مقدمة الطبعة الثانية

فيما أدفع الطبعة الثانية من المسيح السوري للنشر ينتابني شعور عميق من الرضى والاطمئنان. فالنجاح الذي لاقته الطبعة الأولى وقد نفذت من الأسواق خلال عدة أشهر فاق كل توقعاتي وأكد لي أهمية هذا الأثر الخالد الذي كان لي شرف نقله إلى العربية وتحقيقه.

لقد كان متوقعاً أن يحدث عنوان الكتاب ضجة في الأسواق. فحين نُشر الكتاب باللغة الإنجليزية كان العنوان: «المسيح السوري» شيئاً اعتيادياً. أما اليوم فالوضع مختلف. مذيعة في إحدى محطات التلفزيون قالت بصراحة وباللهجة العاميّة «عنوان الكتاب بينقز». عامل في المطبعة رفض أن يلمس «ماكيت» الكتاب. مسؤول كبير سألني بحذر، لماذا اخترت هذا العنوان؟ سفارة دولة غربية كبرى رفضت أن أتكلم عن «المسيح السوري» في إطار مهرجان نظمته في إحدى الدول العربية، وقبلت على مضض «تسوية» بحيث يصبح بحثي عن «إبراهيم متري رحباني كجسر بين الشرق والغرب». جامعة في لبنان رفضت رفضاً قاطعاً فكرة استضافتي كمحاضر عن الكتاب. أما القارئ العادي فقد تلقف الكتاب بنهم عن رفوف المكتبات.

بين الطبعة الأولى وبين الطبعة الثانية حدثت أمور عديدة مهمة أبرزها اكتشافنا أن رحباني كان قد حصل على شهادة دكتوراه في اللاهوت. كما اكتشفنا كتاباً جديداً له بعنوان: «الترجمات الخمس ليسوع»، كان قد نشره سنة 1940، أي قبل أربع سنوات من وفاته. وعثرنا أيضاً على عدد كبير من عظاته المنشورة باللغة الإنجليزية، علاوة عن رسالتين بخط يده كان قد أرسلهما إلى هنري كنغ، عضو لجنة كنغ – كراين، سنة 1919. وقد تأكدنا، بعد مراجعة الناشر الأميركي، أن الأصل الإنجليزي لكتاب المسيح السوري كان قد طبع سبع عشرة مرة في الولايات المتحدة الأمريكية وليس إحدى عشرة مرة فقط. كما طبع على الأقل ثلاث مرات في بريطانيا لغاية سنة 1923.

وحين وقعت أحداث 11 أيلول/سبتمبر المشؤومة، وبدأ الحديث عن «حوار الحضارات» عدنا إلى كتب رحباني فوجدنا فيها الكثير عن الحوار بين الشرق وبين الغرب ماشكل أساسا لمحاضرة شاملة كان لي شرف تقديمها في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق، في آذار سنة 2002. برعاية سيادة وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية الدكتورة نجوة قصّاب حسن، بعنوان «المسيح السوري وحوار الحضارات».

أما الاهتمام الذي لاقته أفكار إبراهيم متري رحباني إثر سلسلة المحاضرات التي ألقيتها في الوطن وفي دنيا الاغتراب، فقد أثلج الصدر، لا سيما وأنه أزال عن رحباني بعض التعتيم الذي أبعده عن متناول الناشئة في بلادنا. ولا شك أن فكر رحباني سيكون مادة لعدد من الدراسات في علوم اللاهوت والاجتماع والسياسة وعلم النفس والتاريخ، لا سيما بعد ما تفضّل به الحبران الجليلان، قداسة البطريرك مار أغناطيوس زكا الأول عيواص، وغبطة البطريرك غريغوريوس الثالث لحام.

واليوم، فيما يزداد البعد بين الشرق وبين الغرب، أجد أننا أحوج ما نكون إلى صوت كصوت رحباني، يدعو إلى نهضة بلادنا قوية موحدة، تخاطب الغرب مخاطبة الند للند، وتمد له يد المحبة والتعاون والإخاء، وتدعوه إلى نبذ التزمت والحرفية، والانطلاق معنا إلى رحاب فهم جديد للدين قائم على «الانفتاح والتحرر والذكاء».

إليك أيها القارئ العزيز المسيح السوري وإبراهيم متري رحباني.

أسامة عجاج المهتار
كندا، 2002

مقدمة المحقق

منذ أن قرأت «المسيح السوري» باللغة الإنكليزية للمرة الأولى سنة 1983 تكونت لدي رغبة عارمة في نقله إلى قراء العربية بشكل عام وإلى مواطني إبراهيم متري رحباني بشكل خاص. فقد أعادني هذا الكتاب بالذاكرة إلى أيام طفولتي حيث كنا نمضي الصيف في منزل جدنا لوالدتنا، بو عساف أسبر كرم، في قرية زبّوغا المتكئة على سفح صنين الغربي، على مرمى حجر من الشوير، بلدة المؤلف. أما سبب ذلك، فهو أن الكهرباء ومياه الشفة لم تدخلا زبّوغا قبل سنة 1963، على ما أذكر. وبالتالي فقد نعمنا، نحن الأحفاد، بحياة قروية فيها الكثير مما يصفه المؤلف في كتابه، ومايزال قائماً في بعض القرى النائية.

غير أننا لم نرَ قافلة جمال في القرية، ولم نشاهد الكيّال يكيل القمح ***بالمدّ***، ولم نأكل من رغيف ***الرضف***، ولم نشرب النبيذ من كأس واحدة أو ***بالنزْل***[1]، ولم نسمع بشجرة ***أم شراطيط***، ولم نسافر إلى دمشق مشياً على الأقدام، ولم نحارب جحافل الجراد الزاحف التي حجبت نور الشمس؛ كلها جوانب من الحياة السورية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، في جبل لبنان، يستفيض رحباني في وصفها بحرارة وعاطفة.

بَيْدَ أن نقل هذه الصور ليس هو الدافع إلى التعريب، بل ما هو أبعد أهمية بكثير. لقد وضع رحباني كتابه في مطلع القرن العشرين، لجمهور أميركاني، أنغلوساكسوني، مسيحي، يتجاذبه تياران: أصولي حرفي وإنساني تحرري. ورحباني، الذي كان ينتمي إلى التيار الثاني، كان قد وصل إلى قناعة، منذ ما قبل سنة 1916، أن الغرب يسيء فهم رسالة يسوع، بسبب التفسير المسيحي الحرفي لما ورد في التوراة والإنجيل.

انطلاقاً من هذه القناعة، يلفت رحباني نظر قرائه الأميركانيين إلى أن المسيح كان

---

1 يستعمل رحباني كلمة «النزل» Nezel بالإنجليزية ولعل التفسير الأقرب لها هو ما يعرف بالعامية «بتقفية» الكأس، أي شربه دفعة واحدة.

«سورياً، وابناً للسوريين». ويدعوهم إلى «طريق أفضل» لفهم الإنجيل عبر فهم «داخلية الحياة السورية». بل هو يرفض، وكأنه يستشرف المأساة التي ستحل بشعبه في منتصف القرن العشرين، مقولة «شعب الله المختار»، فيتكلم عن الصراع داخل المسيحية بين «مزاعم» قديمة تقول بـ (شعب مختار)، وبين الرؤيا الجديدة لمملكة إنسانية شاملة قائمة على «صفاء القلب والجوع والعطش في طلب البر». بل أنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيأخذ واحدة من أكثر نبوءات إشعيا حول «الشعب المختار» تبجحاً و قِحةً، والتي يَرِد فيها «ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك[2]»، فيصفها بأنها «خطأ كبير» وبأنها «لغة المجد الأرضي والنظرة الضيقة إلى أصلٍ وقَدَرٍ عنصريين جاء العهد الجديد ليحرر البشرية منهما، وليدعو إلى نظرة إنسانية أشمل».

وبما أن التوراة والإنجيل يشكلان «الكتاب المقدس» للجمهور الذي توجه إليه الكاتب، كان لا بد له من استعمال عشرات الآيات من العهدين القديم والجديد، وإعادة تفسيرها انطلاقاً من طبيعة الحياة السورية وفهمه لها. فيعتبر أن الإسرائيليين هم من القبائل التي مرّت في سورية، وأخذت الكثير من عادات السوريين وأنماط حياتهم وأساليب مخاطبتهم. ولكنه لا يدع مجالاً للشك في أقدمية السوريين وحضارتهم وتقاليدهم السامية وذلك عبر نصّين على الأقل: الأول في وصفه لخروج رفقة زوجة إسحاق من بيت أبيها؛ والثاني في وصفه لطلب إبراهيم – الغريب في أرض كنعان – مدفناً لزوجته من أهل حبرون.

بالرغم من هذا، فإن بعض هذه النصوص يخلق إشكالية للقارئ السوري المعاصر الذي يعيش وطأة قرنٍ من الصراع السوري – الإسرائيلي. فتلك النصوص المتعلقة بـ«إسرائيل» و «شعب الله المختار» و «أرض الوعد» وغيرها، تأخذ اليوم، بعد قيام دولة إسرائيل العنصرية في الجنوب السوري، فلسطين، معنى يختلف كلياً عن المعنى الذي أراده الكاتب لهذه النصوص، فاقتضى التنويه.

إن المترجم حرصاً منه على أمانة النقل، ترجم الكتاب دون أي تصرف. وهو على يقين من أن قارئ اليوم سيدرك القصد الذي أراده الكاتب من كتابه.

بَيْدَ أن هذه الإشكالية تتعدى «المسيح السوري». إن مشكلة التفسير الحرفي الذي دعا رحباني لنبذه ليست حكراً على الكنيسة الغربية. بل أنها تفتح الباب على مصراعيه أمام إشكالية استعمال الكنائس السورية للعديد من مثل هذه النصوص في طقوسها اليومية من القدّاس والعماد والزواج والوفاة. مثل على ذلك لوقا 2: 29، الذي يشير إليه الكاتب والذي يتضمن «الآن تطلق عبدك حسب قولك بسلام. لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب. نور إعلان للأُمم ومجداً لشعبك إسرائيل». مع أن الكنيسة تفسر هذا الكلام، لمن يسأل، على أنه إشارة إلى العهد الجديد بين الله والإنسانية جمعاء، فإنه لمن الصعب جداً صرف النظر عن التضمّن السياسي لعبارة كهذه، وعن الأثر الذي تتركه في

[2] إشعيا 49: 23

نفوس المؤمنين وأذهانهم لناحية «قدسية إسرائيل» و كونها «شعب اللّه المختار». من هنا يصبح لدعوة رحباني[3] «لممارسة الإيمان الديني بانفتاح وتحرر وذكاء» أهمية خاصة، وكذلك دعوته لدراسة يسوع وحياته ورسالته من حيث هو «سوري وابن للسوريين».

وما شجعني أكثر على تعريب هذا الكتاب الدعوة التي صدرت عن قداسة بطريرك السريان الأرثوذكس مار اغناطيوس زكّا الأول عيواص، في عِظَةٍ له في أواخر نيسان 1997، جاء فيها: «إن السيد المسيح سوري ولغته سورية، ولقد تكلم الآرامية السريانية التي كانت لغة سورية القديمة، ونحن نعتّز به واليه ننتمي، ولن ينجح أعداؤه في سرقته منا، وفي تشويه طبيعته، ورسالته، ولن يحتكره أحد أو كائن أو مجموعة إنسانية كائنة من كانت...»[4]. إنني آمل في أن يساهم هذا العمل المتواضع في نشر مثل هذه الدعوة، وتقديم الخلفية الثقافية والحضارية لها، لاسيما وأن التيار الحرفي الأصولي الذي حاربه رحباني قد نما كثيراً في السنوات التسعين التي انقضت منذ نشر **المسيح السوري** لأول مرة. هذا التيار يجد قمته اليوم فيما يسمى «بالمسيحية الصهيونية» و «بالأصولية المسيحية»، وهما من أكثر الحركات المسيحية في أميركانيا عداء للسوريين، ودعماً لإسرائيل.

على صعيد آخر، يقول المؤلف في مستهل كتابه إنه «يعرف حق المعرفة أن هذا الكتاب يترك العديد من الثغرات بحيث أن القارئ قد يتذكره لما لم يتطرق إليه أكثر مما يتذكره للمواضيع التي يعالجها». مع الأسف، تتعدى هذه الملاحظة المواضيع الدينية إلى بعض التعميمات التي يطلقها هنا وهناك في الكتاب، والتي هي إما نتيجة جهل بحقائق تاريخية لم تكن متوفرة في عصر ما قبل فجر النهضة، وهو العصر الذي كتب عنه، أو لتثبيت وجهة نظر معينة للجمهور الأميركاني. مَثَلٌ على ذلك وصفه لإنجازات السوريين في حقول الزراعة والصناعة والتجارة[5] الذي يغمطهم الكثير من إنجازاتهم الحضارية، والتي أثبتت مكتشفات القرن الماضي أنها في صميم الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية. ولكننا نراه بالمقابل، يشن حرباً على «السائحين ذوي العقلية التجارية» الذين كانوا يزورون سورية ويتعمدون تشويه صور الحياة فيها عن طريق وضع الشواذ في موضع القاعدة.

وبعد، لقد قدم إبراهيم متري رحباني كتابه «بيْعَةَ حب وإجلال لسيدي المسيح السوري»، أما أنا فأقدمه عربون حب ووفاء لأمتي السورية، وشعبي السوري.

أسامة عجاج المهتار
كندا، 2001

---

[3] أنظر القسم الثاني، الفصل الأول، «لغة الكلام اليومية»، ص 67
[4] البناء، العدد 3.870 ،3 أيار 1997، بيروت – لبنان.
[5] أنظر القسم الثاني، الفصل الأول، «لغة الكلام اليومية».


ABU ABDO ALBAGL

المؤلف في سطور[1]

حين بدأت بكتابة نبذة عن حياة إبراهيم متري رحباني لم أتوقع أن أكتشف من المفاجآت المثيرة مثل ما اكتشفت. بل أن الكتابة عنه كانت كمن ينقب في طبقات التاريخ، كلما كشف طبقة تكشفت له طبقات، وكلما أجاب عن سؤال ازدحمت أمامه الأسئلة. لماذا لم نسمع برحباني من قبل؟ كيف يمكن لكتاب **كالمسيح السوري**، يطبع سبع عشرة مرة في أميركانيا خلال إحدى وعشرين سنة، أن ينطفئ ذكره؟ لقد عاصر رحباني جبران خليل جبران والريحاني تاريخياً وجغرافياً، وعمل في الخط الوطني نفسه، بل كان هو مندوب الجمعيات السورية الأميركانية إلى مؤتمر الصلح في فرساي سنة 1919، والتقى هناك الأمير فيصل وكتب مذكرات تفصيلية عن تلك المرحلة. فلماذا لم يرد ذكره بين أدباء المهجر وناشطيه؟ هل يمكن ألاّ يكون رحباني قد التقى جبران؟ لماذا وقع الاختيار عليه بالتحديد لأن يكون هو مندوب الجمعيات السورية؟ إن جميع كتب رحباني التي وجدناها، مكتوبة بالإنكليزية. فهل نشر أي كتاب بالعربية؟ هل يعقل وهو العامل في سبيل وحدة سورية واستقلالها وعدم وقوعها تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني ألاّ يكون شارك في النقاشات التي كانت دائرة في أوساط السوريين وعلى صفحات جرائدهم العربية في نيويورك بين مؤيد لفرنسا ومعارض لها؟

هذه الأسئلة وغيرها الكثير بدأت تتراكم أمامي كلما تعمّقت في البحث عن تاريخ هذه الشخصية الفذة. ولكن رويداً، إني أكاد أسمع القارئ يحتج عليَّ بالقول «إنك تخبرني القصة من نصفها تارة ومن آخرها تارة أخرى». عفوك قارئي. إليك القصة من أولها، وعسى أن أكون قد ساهمت بنفض بعض غبار التاريخ عن رحباني، تمهيداً

[1] من كتاب A Far Journey، تأليف إبراهيم متري رحباني، 1913، ومراجع أخرى جمعها المحقق عن حياة رحباني».

لإضافة كرسي له إلى طاولة روّاد النهضة المستديرة حيث يجب أن يتبوأ مركزه.

ولد المـؤلف في بلدة الشـوير سنة 1869 لأبوين فقيرين أمّيين من عائلة رحباني. وكان الولد الرابع بين خمسة صبيان وسبع بنات. دخل مدرسة خاله، الخوري ميشال، وهو ابن ثلاث سنوات، ولكن حين فتح «الإنكليز» مدرسة لهم في الشوير سنة 1873 انتقل إليها بعد أن أقفل الخوري أبواب مدرسته.

سنة 1875، انتقلت العائلة إلى بلدة بتاتر جبل لبنان، حيث كان والده متعهد أبنية معمل حرير يملكه صناعيٌ فرنسي يدعى «فورتون بورتالس» Fortune Portalis، ويُعرف باسمه المعرب «الفرتوني». في بتاتر، تابع رحباني دراسته لمدة ثلاث سنوات، ترك المدرسة بعدها ليبدأ العمل مع والده في مهنة العمار، وهو ابن تسع سنوات، وليستمر في هذه المهنة الشاقة لبلوغه سن السابعة عشرة. في هذه الأثناء، تعرّف إلى ولد من عمره يدعى اسكندر، كان طالباً في مدرسة البروتستانت في سوق الغرب. من اسكندر، انتقلت إلى إبراهيم عدوى حب المعرفة والعلم، فتمكن من إقناع والده بأن يعيده إلى الدراسة، حيث التحق بمدرسة سوق الغرب كطالب داخلي في صفوف المبتدئين، وذلك في تشرين أول من سنة 1886، فأظهر تفوقاً كبيراً، ولاسيما في اللغة العربية التي أحبها، وكتب فيها ونظم الشعر.

في سوق الغرب، تحول عن الأرثوذكسية، «كنيسة آبائه وأجداده»، واعتنق البروتستانتية. وبعد سنتين من الدراسة، كان قد قطع فيهما شوطاً بعيداً، أعلمه والده انه لم يعد يستطيع الإنفاق على تعليمه، فأمّن له السيد «بوند» Pond، مدير المدرسة، أن يعلّم صفوف الصغار لقاء نفقات تعليمه وبدَل إقامته، ففعل. استمر في التعليم ثلاث سنوات، اثنتين منها في سوق الغرب والثالثة في زحلة.

في مطلع شهر أيلول سنة 1891، دعاه ثلاثة من أصدقائه للهجرة معهم إلى أميركانيا حيث كانوا سيسافرون بعد ثلاثة أيام، ووعدوه بإقراضه ثمن تذكرة السفر. بصدفة عجيبة، تمكن من الحصول على سمة خروج إلى الإسكندرية من بيت الدين، مركز الحاكم التركي، وتمكن والده من جمع ثلاث «نابوليونيات» ذهبية له، وغادر من مرفأ بيروت إلى حيفا، فبور سعيد، فالإسكندرية، فإيطاليا، ففرنسا، ومن ثم إلى نيويورك، التي وصلها في السادس من تشرين أول، من السنة نفسها.

لدى وصوله إلى نيويورك، أقام، كالعديد من أترابه، فيما كان يعرف بالمستعمرة السورية في شارع واشنطن. ولكنه لم يحمل «الكشّة[2]» مثلهم وإنما عمل كاتباً في متجر، فكان «يكنس الارض، ويرتب الرفوف، ويخدم الزبائن، إضافة إلى مسكه الحسابات». وهناك تعرّف إلى بعض المثقفين وحملة الشهادات مثل «الخواجه»

[2] «الكشّة» هي لوح خشبي يربطه البائع الجوّال الى القسم الأمامي من جسمه ويحمل عليه ما خف وزنه من المتاع والحلى الزائفة. اشتهر السوريون المهاجرون بلقب تاجر «الكشّة» (المحقق)

نجيب العربيلي، وأسس معهم «الجمعية السورية العلمية الأخلاقية».

في ربيع 1892، طلب منه نجيب العربيلي، الذي أعجب بموهبته في الكتابة والإلقاء، أن يتولى رئاسة تحرير صحيفة **«كوكب أميركا»**، «أول صحيفة تصدر باللغة العربية في النصف الغربي من العالم». وكان جهازها يتألف من نجيب العربيلي (دمشقي، صاحب الصحيفة) وحبيب باتريكيان (أرمني، الناشر) ويوسف الحج (بيروتي، تنضيد الأحرف) وإبراهيم متري رحباني. وتولى هذه المهمة مدة سنة كاملة كتب خلالها معظم مواد الصحيفة. وفي نهاية السنة، وقع خلاف بين المالك والناشر ما لبث أن تطور إلى عراك بالأيدي، فاستقال رحباني لاسيما وأن صاحبها كان يرفض أي نقد لسياسة تركيا، لأن أحد أقاربه كان يشغل منصباً حكومياً عالياً.

ترك رحباني الصحيفة بعد أن تمكّن من دفع ديونه وشراء معطف، كان كل ما يملك من متاع. غير أنه رفض العودة إلى «المستعمرة السورية» وعالم التجارة، بل اختط طريقاً فريداً، وهو التكلم في الكنائس، أثناء اجتماعات المساء، عن «الأرض المقدسة»، لقاء تبرعات تجمع له. بهذه الطريقة تنقل في عدد من الولايات الأميركية، لاسيما الغرب الأوسط، حيث كان يتكلم، وبصعوبة كبيرة مترجماً أفكاره من العربية، بلغة إنجليزية ركيكة.

أثناء تطوافه هذا لاقى صعوبات معيشية جمة، بات خلالها على الطوى في بعض الليالي، ونام البعض الآخر منها في العراء، على مقاعد الحدائق العامة. ولكنه تمكن، بالمثابرة، من تحسين لغته وقدرته على الوعظ باللغة الإنجليزية. وفي سنة 1894، تمكن من الالتحاق بإحدى الجامعات ودراسة اللاهوت لبضعة أشهر قبل أن تغلق أبوابها بسبب فضيحة مالية. في هذه الفترة، تعرّف إليه مبشر أميركاني وأعجب بأسلوبه، فدعاه للقيام بجولة لإلقاء المحاضرات، لقاء بدل مالي وجزء من ريع الدخول.

بعد الانتهاء من هذه الجولة، التحق بجامعة «أوهايو وسليان كولدج» Ohio Wesleyan College ولكن ظروفه المالية أجبرته على ترك الجامعة والتجول محاضراً. وفي أيار 1896، ألقى عظة في إحدى الكنائس نيابة عن راعيها، الذي كان سيغادر إلى مكان آخر. أُعجبت الرعية، على ما يبدو، أيما إعجاب بأسلوب رحباني في الوعظ، فتم الطلب إليه رسمياً أن يصبح الواعظ الرئيسي لهذه الرعية، وهو لمّا يتمم دراسته بعد. من هناك، انطلق إبراهيم متري رحباني في حياة كرسها للوعظ والتبشير، منطلقاً من نظرة خاصة إلى يسوع، عبّر عنها فيما بعد في سلسلة من المقالات التي نشرتها له مجلة «أتلنتك منثلي» Atlantic Monthly، ومن ثم جُمِعت في كتاب نُشر لأول مرة سنة 1916، بعنوان «المسيح السوري» The Syrian Christ.

قبل «المسيح السوري»، نشر رحباني قصة حياته سنة 1913 في كتاب بعنوان

«رحلة بعيدة» A Far Journey، زيّنه بصور من سورية تعود إلى سنة 1898، حين قام بزيارة إلى الوطن، تصاحبه زوجته الأميركانية.

بالإضافة إلى «المسيح السوري» و «رحلة بعيدة» وضع رحباني مجموعة من الكتب بالانجليزية هي:

* «أميركا العسكرية ويسوع المسيح» Militant America and Jesus Christ سنة 1917.
* «أميركا أنقذي الشرق الأدنى» America Save the Near East سنة 1918.
* «كنز راسمولا المخبّأ» The Hidden Treasure of Rasmola سنة 1920.
* «حكماء من الشرق ومن الغرب» Wise Men from the East and from the West سنة 1922.
* «قصة المسيح للصبيان والبنات» The Christ Story for Boys and Girls سنة 1923.
* «سبعة أيام مع الله» Seven Days with God سنة 1926.
* «الترجمات الخمس ليسوع» The Five Interpretations of Jesus سنة 1940.

من مراجعة بعض هذه الكتب تتضح لنا ناحيتان مهمتان جداً في حياة رحباني تستدعيان دراسة مفصّلة. الأولى نشاطه السياسي، والثانية عمله الدؤوب لتقريب وجهات النظر بين الشرق وبين الغرب. لا نعرف ما إذا كان رحباني قد كتب مقالات سياسية باللغة العربية بعد تجربته العابرة في «كوكب أميركا». ولكن ما أن يطل العام 1918، حتى ينشر كتابه «أميركا أنقذي الشرق الأدنى». قد يكون هذا الكتاب من أول الكتب التي تجمع قواعد فن «اللوبي» السياسي وتضعها موضع التنفيذ. من الكتاب يتضح لنا أن رحباني كان ناشطاً سياسياً بامتياز في سبيل استقلال سورية عن العثمانيين وعدم السماح بوقوعها فريسة في يد البريطانيين والفرنسيين. فنراه يقدم أطروحة كاملة متماسكة، لجمهور أميركاني مسيحي محافظ ومؤيد للعزلة الأميركانية عن شؤون العالم الخارجية، حول ضرورة أن تتابع أميركانيا زحفها شرقاً وأن تنقذ سورية من براثن العثمانيين. وبدبلوماسية فائقة، نراه يتوجه بالشكر لما قدمه البريطانيون والفرنسيون لسورية، ولكنه يدعو إلى أن تتسلمها جهة «لا أطماع لها» بقواعد عسكرية أو بأسواق بل تتولى مساعدتها من وجهة نظر إنسانية بحتة.

كتب رحباني كتابه على ما يبدو بعد أحاديث مطولة مع أميركانيين ولاسيما من العاملين في حقل السياسة الخارجية فجاء الكتاب وكأنه خلاصة لتلك الأحاديث. وعلى ما يبدو، فقد تعمّد الإجابة في كتابه الصغير هذا على معظم الطروحات التي كانت قيد التداول آنذاك حول سورية ومصيرها، فنراه يحذر مما يلي:

1 - أن تبقى سورية تحت الحكم العثماني؛

2 - أن تقع تحت أي من الانتدابين البريطاني أو الفرنسي مجتمعين أو منفردين؛

3 - أن يقام فيها نظام ملكي؛

4 - أن تقسم إلى دويلات سياسية طائفية؛

5 - أن تقع فريسة الحركة الصهيونية.

أما الحـــل الذي يقترحه في آخر فصل من الكتاب فهو «قيام دولة فدرالية في سورية عاصمتها دمشق، مع نوع من اللامركزية في الولايات أو المحافظات: فلسطين، لبنان، دمشق وحلب، التي تقوم كل منها بانتخاب حاكمها ومجلسها التشريعي فيما هي متحدة فيما بينها كأعضاء في دولة واحدة كبرى[3]».

في ذلك الكتاب أيضاً نجد فصلاً كاملاً، وقد يكون الأول من نوعه، في نقد الحركة الصهيونية الفتية آنذاك. من قراءتنا لهذا الفصل يتضح لنا سعة إطلاع رحباني على دقائق البرنامج الصهيوني إذ يعرض لعدد من الحجج التي يقدمها بعض الكتّاب الصهاينة أمثال J.H.Gottheil Richard و Lewis Brandeis ليعود ويفند دعاواهم بقوله:

«إن السوريين يعتقدون أن هدف الصهيونية هو إقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين، أو على الأقل، إقامة دولة حكم ذاتي يهودي تحت حماية قوة أجنبية. ستكون نتيجة الحكم الصهيوني هذا إما فصل فلسطين عن سورية، أو وضعها تحت دائرة نفوذ أجنبي. إن أياً من هذين الاحتمالين مكروه من قبل السكان غير اليهود في «أرض الوعد» بالإضافة إلى الواعين من السوريين في أميركانيا..[4]».

ويتابع رحباني، فيما يبدو الآن وكأنه نبوءة، قائلاً:

«.. إن السوريين الواعين يدركون أن الاستقلال القومي ليس هو ما يصر عليه الصهاينة *في الوقت الحاضر*. ولكنهم يبدون واثقين من أن ما من شيء *دون ذلك* يمكن أن يجعل من البرنامج الصهيوني حقيقة[5]». (التوكيد بالحرف المائل من وضع رحباني في النص الأصلي).

ويختم رحباني هذا الفصل بالنبوءة التالية:

«لا يمكنني أن أتخيل كيف يمكن لليهود أن يعيشوا بسلام واطمئنان في «أرض

[3] Rhibany, America Save the Near East, The Beacon Press, Boston, Mass, 1918 p. 183

[4] المصدر نفسه صفحة 114

[5] المصدر نفسه صفحة 116

آبائهم» إذا ما فُصلت البلاد استبدادياً عن سورية وأُعطيت لهم. فعمل كهذا يزرع اليهود بين أعداء لدودين مما سيزيد في مشاكل اليهود عوضاً عن المساهمة في التخفيف منها[6]».

كان لذلك الكتاب، على ما يبدو، وقع مميز في أوساط الجاليات السورية في أميركانيا وجمعياتها التي كانت ناشطة سياسياً. فبعد سنة واحدة من نشره، أي سنة 1919، يُوفد رحباني إلى مؤتمر الصلح في فرساي بصفته مندوباً عن الجمعيات السورية العاملة في أميركانيا والتي، على ما يبدو، تبنت برنامجه المنوه عنه أعلاه. في فرنسا، يلتقي الأمير فيصل مندوب الثورة العربية إلى مؤتمر الصلح ويبقى معه مدة ثلاثة أشهر وتقوم بينهما علاقة مودة وصداقة. يتحدث رحباني عن هذه المرحلة بإسهاب في كتابه Wise Men from the East and from the West الذي نشره سنة 1922، فيصف خيبة أمله بعد رؤية كل ما حذّر منه سنة 1918 يحدث لسورية من انتداب، إلى تقسيم، إلى ملكية، إلى حركة صهيونية متقدمة؛ وفشل مشروعه بإقامة دولة عصرية فدرالية تحت حماية أميركانية.

في ذلك الكتاب أيضاً يخصص فصلاً كاملاً عن الحركة الصهيونية انطلاقاً من الأحداث التي وقعت بين 1918 وتاريخ الكتابة. فيصف احتلال اليهود لفلسطين كما يلي:

«لو تم التفاوض على هجرة اليهود إلى فلسطين بين حكومة سورية حرة واليهود، لكان من الممكن التوصل إلى حل يرضي الطرفين. ولو قام الصهاينة بالهجوم على فلسطين كقوة عسكرية لكان السيف هو الحَكَمُ في تقرير مستقبل الأحداث بين الغازي والمغزية أراضيه. وفي كلتا الحالتين، تكون النتيجة هي ما يقرره رجال أحرار سواء على طاولة المفاوضات، أو في ميدان المعركة.

ولكن في هذه اللحظة يبدو الغزو أبعد ما يكون عن عملية تدعو إلى الفخر؛ فقد حصل في الظلام، ولم يكن للفلسطينيين أدنى معرفة به. فالصهاينة لا يأتون إلى فلسطين كغزاة بيارقهم مشرعة ولا كأصدقاء مدعوين. إنهم يدبّون إلى فلسطين خلسة، وعلى وجوههم ضحكة صفراء، فيما الجيش البريطاني يضغط على الفلسطيني بخناقه[7]».

ويسهب في الدفاع عن حق السوريين في فلسطين ويفند ادعاءات اليهود والمسيحيين المتهودين في أن «إسرائيل» إذا قامت ستكون التمهيد للمجيء الثاني للمسيح، فيقول:

[6] المصدر نفسه صفحة 123

[7] Rihbany, Wise Men from the East and from the West, Andrew Melrose Ltd. London, 1922, p. 257

«ماذا ستعني عودة اليهود إلى فلسطين اليوم؟ هناك العديد من المسيحيين الذين يعتقدون أن في ذلك تمهيداً للمجيء الثاني للمسيح. لكن ليس هذا ما يتوقعه اليهود الأرثوذكس. فبالنسبة إليهم، لم يأت المسيح للمرة الأولى بعد. إن مسيحهم لم يأت بعد. فالذي أتى ورُفض تماماً منهم لم يكن المسيح الحقيقي. إن المسيح الذي ينتظرون هو الذي سيجعل منهم حكاماً على جميع الأمم ومن ضمنها تلك المسيحية[8]».

أما عن العلاقة بين الشرق وبين الغرب فإن رحباني الذي عمل مبشراً لمدة تزيد عن الأربعين عاماً في كنائس أميركية خصّص كتابيه حكماء من الشرق ومن الغرب وسبعة أيام مع الله، بالإضافة إلى المسيح السوري، للمقارنة بين أساليب التفكير والتعبير لدى الشرق والغرب ونقاط الالتقاء والافتراق بينهما وشرح الخلفية الثقافية والفكرية والاجتماعية السورية لقرائه من الغربيين. أما أبرز ما دعى رحباني الغرب إليه فهو أن يتخلى عن فكرة طمس الثقافة الشرقية عبر إرسالياته إلى المشرق، والتعامل معه باحترام والتوقف عن سرقة خيراته وغزو أسواقه واستباحتها أمام المنتجات الغربية.

كما أنه كان من أبرز دعاة التوافق بين الأديان فنراه يقول، «اللّه هو إله المسيحيين، ولكنه ليس إلهاً مسيحياً، وهو إله اليهود، دون أن يكون إلهاً يهودياً، وهو إله البراهمة ولكنه ليس إلهاً برهمياً، وهو إله المحمديين ولكنه ليس إلهاً محمدياً».

قد تكون الكتابة بهذه الحرارة وهذا العنف هو ما طمس ذكر رحباني ومنع إعادة نشر كتبه لاسيما مع التغيير الجذري والسريع الذي أصاب المجتمع الأميركاني ما بين الحربين الكونيتين ومن ثم بعد قيام دولة إسرائيل والعطف الذي لقيته في أميركانيا، والعداء الذي انصبّ على مواطني رحباني بشكل عام. وفي الوقت نفسه، لا ننسى أن فرنسا التي حاول رحباني بكل جهده منعها من السيطرة على سورية، نجحت وسيطرت وقسّمت واستبدت و قتلت الأبرياء في لبنان والشام، وأقامت نظاماً موالياً لها ولحكمها. هل هذا أحد أسباب طمس ذكره في لبنان والشام[9]؟ لا ندري. ولكننا نأمل أن يقوم البحاثة بالتنقيب معنا عن تاريخ رحباني وإيفائه الحق الذي يستحقه والتكريم الذي يليق به.

توفي الكاتب سنة 1944 عن عمر ناهز الخمسة والسبعين عاماً.

[8] المصدر نفسه صفحة 254

[9] يرجى مراجعة مذكرات المرحوم إسكندر رياشي«رؤساء لبنان كما عرفتهم» منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، صفحة 278-282 حول مجازر الفرنسيين في رياق ووادي الحرير».



ابراهيم متري رحباني



والدا المؤلف



شرح المصطلحات

* يتكلم رحباني عن «سورية» حسب التعريف الذي كان سائداً في عصره. فالمسيح «سوري لم يعرف سوى فلسطين وطناً له»، و «بلدة الشوير تقع في محافظة جبل لبنان، سورية»، و «صناعة الحرير هي مصدر الرزق الأساسي للناس في سورية الغربية»، و «البيوت في سورية الغربية تبنى من الحجارة، أما في سورية الشرقية فمن الطوب»، وهلم جرا[10].

* يستعمل المؤلف العديد من الكلمات العربية في كتاب «المسيح السوري»، مثل *الزيارة، والنزل، والمذبح، وأم شراطيط*، وغيرها. لهذه الكلمات استعملنا الحرف ***الأسود المائل***.

* يستعمل المؤلف الحرف الأبيض *المائل* للتوكيد، وقد جاريناه بذلك.

* في بعض الأمكنة، يضع المؤلف إشارة إلى النص الإنجيلي في أسفل الصفحة، وفي بعض الأحيان في النص، وفي أحيان أخرى لا يضع إشارة على الإطلاق. لتوحيد الأسلوب، اعتمدنا وضع الإشارة في أسفل الصفحة. أما حيث استعمل المؤلف نصاً إنجيلياً دونما إشارة إلى المصدر فقد قمنا بالبحث عن المصدر الأصلي وإثباته، مع كلمة (المحقق) إلى جانبه.

* جميع النصوص من التوراة والعهد الجديد مأخوذة من «الكتاب المقدس» طبعة دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

* هناك أبيات من الشعر العربي استعملها المؤلف بعد أن ترجمها إلى الإنجليزية، دون أن يشير إلى قائلها. لقد تمكنّا من إعادة بعض هذه الأبيات إلى اصلها العربي، وأشرنا إلى قائل البيت في مكانه.

* يستعمل المؤلف كلمة «Mohameddans» في النص الإنجليزي للإشارة إلى المسلمين، وقد ترجمناها إلى «محمديين» فاقتضى الإيضاح.

---

[10] مقتطفات من «المسيح السوري»، و«رحلة بعيدة». (المحقق)


ABU ABDO ALBAGL

استهلال

وُضع هذا المجلد المتواضع بهدف إلقاء ضوء جديد على حياة المسيح وتعاليمه، ولتسهيل فهم الإنجيل على القراء عامةً. وليس القصد، كما سيتضح من التمعن في مضمونه، إضافة شرح جديد للإنجيل ولا حتى تقديم دراسة شاملة عن موضوعه الرئيسي. فالمؤلف يعرف حق المعرفة أن هذا الكتاب يترك العديد من الثغرات بحيث أن القارئ قد يتذكره لما لم يتطرق إليه أكثر مما يتذكره للمواضيع التي يعالجها.

لقد لاقت الفصول الأولى من هذا المؤلَّف حين نشرتها مجلة Atlantic Monthly استقبالاً حاراً من قراء عديدين ينتمون إلى شتّى المذاهب الدينية. لهذا، فالكاتب مطمئن إلى أن قصده قد فُهِمَ بوضوح ولاقى الكثير من الاستحسان أيضاً. ذلك أن الكتب التي تأخذ على عاتقها «التبسيط المنظم للكتاب المقدس»، أو تلك التي تبحث في «العبر الروحية المستمدة من الإنجيل»، لا تُقدَّر بعدد. لهذه الأسباب، وبحكم كوني مواطناً من مواطني السيد المسيح، ومُبشِّراً أمضى أكثر من عشرين سنة من حياته في الوعظ من على منابر الكنائس الأميركانية، كان شعوري يتنامى بالحاجة إلى كتاب كهذا. كتاب لا يقدّم تعليقاً جديداً يضاف إلى ما سبقه، بل يكون دليلاً من الشرق، يُقَدِّمُ لقرّاء الإنجيل من الغربيين نظرة حميمة إلى البيئة الفكرية والاجتماعية التي ولد فيها هذا العمل الأدبي المقدس. وبالتالي فإن ما أقدمه بين دفتي هذا الكتاب ما هو إلا مجموعة آراءٍ وليس دروساً متسلسلة منمقة.

ما يحتاجه القارئ الغربي للإنجيل، بتقديري، هو ولوج البيئة الطبيعية للكتاب المقدس بتعاطف معها وتفهم لها. إنه يحتاج لإقامة جو من الإلفة الفكرية والروحية مع أولئك الشرقيين الذين حاولوا بكل إخلاص، وبطريقتهم الخاصة، أن يجسدوا الشكل الملائم لتلك الحقائق الروحية التي كانت، وتبقى، إرث الإنسانية الأثمن.

إن مهمتي هذه لم تكن بسيطة على الإطلاق. فقد يكون من السهل بالمقارنة أخذ عدد من نصوص الإنجيل المختلفة وشرح كل منها بمفرده. ولكن المهمة تصبح على غاية من الصعوبة حين يحاول المرء جمع عدد كبير من النصوص غير المترابطة أساساً ومعالجتها كوحدة فكرية. إلى أي مدى كان النجاح حليفي في مهمتي هذه؟ أعتقد قارئي العزيز بأنك خير من يحكم في هذا الأمر.

من نافل القول إن ما من كاتب يستطيع الادعاء بالعصمة حتى ولو كتب عن تجاربه الخاصة وعن البيئة الاجتماعية التي ولد ونشأ فيها. ولكنني أقول بأسلوب (اليانكي) وليس الشرقي، وعلى قدر معرفتي، كل ما يرد في هذا الكتاب هو الصدق ولا شيء غير الصدق.

قبل أن اختم استهلالي هذا، اشعر بضرورة تنبيه القارئ إلى أنني إذا كنت اعتبر الشرقي يبالغ في استعمال الصور الكلامية، فهذا لا يعني أن كلامه كله صوَر. فالمجاز مستعمل لدى شعوب الأرض قاطبة، ولكن الشرقي يستعمله أكثر من الغربي. وكم تمنيت لو أن رجال الدين العلماء قد شككوا أكثر بمدى الدقة الحرفية للكلام الشرقي ووفروا على أنفسهم، في بعض الأحيان، عناء تشييد عمارة عقائدية دينية على صورة كلامية بحت.

بالرغم من ذلك، فالبشارة والإيمان المسيحيان يعيشان في قلوب الناس وعقولهم فيباركانهم ويسعدانهم. وأما أنا، الشرقي بالميلاد، والأميركاني بالاختيار، فإني أشعر بعميق الامتنان لأن تكون الفرصة قد سنحت لي لنشر هذا الكتاب، خدمة متواضعة مني للكنائس الأميركانية، وبِيْعَةَ حب وإجلال لسيدي، المسيح السوري.

إبراهيم متري رحباني

بوسطن، ماستشوستس.


القسم الأول
المسيح السوري


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الأول

ابن الشرق

يسوع المسيح، روح اللّه المتجسدة، الرائي، والمعلم لحقائق الحياة الروحانية، والمبشّر بأُبوَّة الله وأخوَّة البشر، يمكن اعتباره، إذا صح التعبير، «رجلاً بلا وطن». فيسوع، بصفته نبياً رائياً، ينتمي لجميع الأقوام وفي كل العصور. فحيث تستجيب عقول الناس للحقائق البسيطة وتبتهج قلوبهم بالحب الصافي، وحيثما يُكرس معبد ديني لعبادة اللّه وخدمة الإنسان، هناك يكون بلد يسوع وهناك يقيم أصدقاؤه. لذلك، فإني حين أتكلم عن يسوع كابن لوطن معين، لا أقصد أن أضفي على بِشارته صبغة محلّية أو أن أضع الحدود والقيود على انسياب روحه أو فعل محبته.

وليس قصدي في الفصول اللاحقة أن أقلد اللاهوتيين المحنكين في التصدي لإشكالية شخصية يسوع. فهذه الشخصية، إذا ماكانت إنسانية أم إلهية، تبقى بالنسبة إليَّ سراً لا تمكن الإحاطة به. بل إن هدفي المتواضع من وراء كتابي هذا هو تذكير القارئ بأن يسوع كان، من حيث أنماط فكره وحياته وأسلوب تعليمه، سورياً وابناً للسوريين. فيسوع لم يعرف بلداً آخر سوى فلسطين، ففيها ولد وترعرع وأصبح رجلاً، وفيها كرز ببشارته وقضى في سبيلها.

إنه لمن الطبيعي جداً ، أن تصل حقائق البِشارة إلى الأجيال المتعاقبة، وإلى أمم الغرب، مقولبة بقوالب فكرية شرقية، ومتداخلة مع العادات البسيطة المحلية والاجتماعية في سورية. إن ذهَبَ البِشارة ليحمل معه من رمال بيتها الأصلي وغباره الشيء الكثير.

يتضح مما تقدم أن محاولتي إلقاء ضوء جديد على حياة المسيح وتعاليمه، وعلى أجزاء أخرى من الإنجيل - لا يمكن برأيي قيام الفهم الصحيح لها دون المعرفة الدقيقة لبيئة نشأتها الأصلية - لا تشكل زعماً مني بمعرفة أعظم لأسرار البِشارة الروحية أو فهم أعمق لألغازها، بمقدار ما هي نتيجة لـ «صدفة ميلادية». فبحكم ولادتي في بقعة قريبة من حيث ولد المعلم، وبحكم نشأتي في ظروف شبه مماثلة لتلك التي عاش فيها، فمن الطبيعي أن تكون نظرتي إلى الإنجيل نظرة حميمة ومن «الداخل»، وهذا ما لا يتسنى للإنسان الغربي. إني أعرف حق المعرفة أن نمط الحياة في سورية اليوم لا يختلف عنه في أيام المسيح. ولا أرمي هذا القول استناداً إلى لوحات المكتشفات الأثرية أو آراء خبراء الآثار، على أهميتها، وإنما استناداً إلى حقيقة بسيطة لا يمكن إغفالها وهي أنني كلما فتحت الإنجيل لأقرأه، أشعر وكأنني اقرأ رسالة من الأهل في الوطن.

فإذا نظرنا إلى الإنجيل بأسلوبه المسهب وصوره الخيالية الزاهية وعفوية سرده وبساطة أمثاله وبدائيتها بل وخشونتها، وإلى عرضه غير الاعتيادي (وبنظر الغرب المحتشم غير اللائق) لبعض العلاقات الإنسانية، أضف إلى ذلك روحانيته وتصوفه النافذين؛ أقول، إذا نظرنا إلى الإنجيل من خلال هذه الخصائص كلها، وجدنا وكأنه لم يكتب إلا لثلاثين سنة خلت في قريتي الصغيرة على السفوح الغربية من جبل لبنان.

ولا أقصد الجزم ولا حتى التلميح إلى أن العالم الغربي لم ينجح على الإطلاق في فهم عقل المسيح. حاشا! فجزم كهذا مجحف ليس بحق العقل الغربي فحسب، بل وبحق البِشارة أيضاً، إذ يجعل منها لغزاً غريباً يعصى على الفطرة الروحانية لغالبية البشر. لقد تعلمت، عبر تفاعلي مع العقل الغربي في السنين العديدة التي أمضيتها مبشراً في أميركانيا، إنه لمن الصعب جداً إن لم يكن مستحيلاً، أن يستوعب شعب ما، وبشكل كلي، أدباً لم ينبثق من وسط حياته القومية؛ بالطبع يستثنى من ذلك بعض الأخصائيين. إن الإنجيل، بوصفه مستودعاً للتجلي الإلهي لا يعرف حدوداً جغرافية، وحقائقه الروحانية هي هدية من الله إلى الإنسان. أما كنص أدبي، فانه يشكل مادة مستوردة إلى العالم الغربي وتحديداً إلى العالم الأنغلوساكسوني. إن لغة الأناجيل، والذهنية والتقاليد التي تشكل الإطار الحسي لروحانيتها، والطابع الصوفي لهذا الإطار، قد نبعت من روحية قوم بعيدين كل البعد عن أعراق الغرب وعن كل ما يمت إلى حياتهم الأرضية بصلة.

أنت لا تستطيع أن تقوم بدراسة ناجحة لحياة جماعة من البشر من الخارج. فإذا فعلت، فقد تنجح بتمييز بعض السمات الأساسية لهذه الجماعة فتراها بألوانها الحقيقية المحلية، وتُشبع فضولك بملاحظات سطحية عن أنماط سلوكها العامة. أما الأشياء الصغيرة، الأشياء الاعتيادية، تلك المضامين الخفية التي يحمّلها الناس

لعباراتها، تلك القوى التي تُولَدُ ولا تُصنَع، والتي تعطي لشعب ما خاصيته الغنية، هذه كلها ستعجز عن إدراكها. ففي حياة أي شعب هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن للغريب امتلاكها إلا عبر الامتصاص اللاواعي لها. على هذا الغريب أن يتعلم كل هذه الأمور كطفل صغير بالتقليد العفوي. إن المراقب عن بعد، ومهما امتلك من الحكمة، لا يعدو كونه مصوّراً فوتوغرافياً يتعاطى بالمظاهر الخارجية فحسب. قد يتحول هذا المصوّر يوماً إلى فنان يرسم الحياة الحقيقية للشعب شرط البدء من روح الشعب الداخلية والانطلاق منها إلى الخارج. ولكن هذا لا يتمّ إلا بعد إقامة علاقة وثيقة وطويلة وحقيقية ومُحِبَّة مع هذا الشعب.

يمكن الاستنتاج مما تقدم، أنني أرى الخطورة كلها في أن يؤلف من أمضى ستة أسابيع من عمره سائحاً في تلك البلاد كتاباً عن *الحياة* في سورية. فآلة تصوير بيدِ سائح ذي طموح تجاري، وإن غلا ثمنها، لا تكفي لإتمام هذه المهمة. فالتقاط الصور سهل، ولكن ربط الصور بحياة الشعب الداخلية، وفهم القوى الأخلاقية والاجتماعية الكامنة وراء المظاهر ليس بالأمر السهل. قد يستطيع المسافر على عجل أن يعبّر عما تعنيه *له* بعض أشكال الفكر والحياة في بلد غريب، ولكن هل يعني هذا أن فهمه هو لهذه الأشياء يماثل بالضرورة فهم ذلك الشعب لنفسه؟

مع مر السنين، بدأت هذه الفكرة تأخذ حيِّزاً أكبر من اهتمامي كمهاجر سوري. ففي نهاية السنة الثانية من وجودي في هذه البلاد، شعرت بثقة تامة أنه يمكنني تأليف كتاب عن أميركانيا والأميركان دونما حرج. لقد كان من السهل استيعاب أهمية بعض المظاهر العامة من الحياة الأميركانية فشعرت بأنني على مستوى من الأهلية يخولني بحث الأميركان، ونزعاتهم العنصرية والسياسية والدينية، وشرح مصطلحاتهم اللغوية، وتأويل مزاجهم في حالات الحب والزواج والاكتئاب والفرح بكثير من الدقة والسهولة. أما اليوم، وبعد إن أقمت قرابة أربع وعشرين سنة في أميركانيا، أمضيتها في علاقة وثيقة جداً مع أميركان من «الوافدين الأول»، فإني لم أعد أشعر بنصف الثقة التي كنت اشعر بها حيال تأليف مثل هذا الكتاب. فكلما توطدت علاقتي بالفكر الأميركاني، وتوغلت في أعماق الروح الأميركانية وازددت تنوراً عبر مشاركتي هذا الشعب مسرات الحياة وأحزانها، كلما اتضح لي مقدار الصعوبة في أن يقوم أي شخص بمحاولة تفسير حياة شعب غريب عنه قبل أن *يعيشها* بنفسه.

هناك العديد من الكتب الغربية القيّمة عن الفكر والحياة في الشرق. ولكن واضعيها لم يكونوا من طينة «السياح»، بل من الذين تحلّوا أولاً بالحكمة ليدركوا أن الشحاذين الساعين في طلب ***البخشيش*** في شوارع المدن السورية، أو الذين يكدنون المرأة إلى جانب الفدان في بعض المناطق المتخلفة من فلسطين، لا يمكنهم أن يمثلوا تلك النفس البعيدة الأغوار للشرق القديم الذي أعطى الحياة للإنجيل وللصحبة

المجيدة من الأنبياء والرسل والقديسين. ثانياً، لقد أدرك هؤلاء الكتّاب أيضاً أن الجذور الممتازة التي تُمِدُ الشعب بالحياة لا تعيش قريباً من سطح الأرض، بل في العمق، وأن شعيراتها دقيقة ناعمة. إن الإقامة مع شعب معين لمدة طويلة لا تكفي وحدها لمعرفته، بل يجب أن يرافقها إقامة علاقة وثيقة مُحِبّة وصادقة معه كي يكشف عن مكنونات حياته للغريب. إن الحياة الاجتماعية هي كالحياة البيولوجية تأخذ قوتها من الداخل، ومن هناك يجب أن تبدأ دراستها.

إن هذه الأشياء الاعتيادية من الحياة السورية، والمتداخلة بحقائق الإنجيل الروحانية، هي التي تثير الحيرة لدى قراء الكلمة المقدسة الغربيين، وتفقد، برأيهم، هذه الحقائق الكثير من قيمتها. إن العقل الأنغلوساكسوني الاستفزازي المنظم، يهدف، بقوة عبقريته الصرف، إلى صَهْر كل المظاهر الطبيعية للحياة الشرقية بما تحتويه من فوضى واضطراب، في وحدة منطقية وتجانس عقائدي، لكي يتمكن «من فهم الكتاب المقدس».

بَيْدَ أن ثمة «طريقاً أفضل». فاسمحوا لي أن أسير وإياكم عبر المسالك الداخلية للحياة السورية، وأن أبين لكم، على قدر استطاعتي، مدى السهولة التي يفهم بها مواطن من مواطني المسيح، خلفية الكتاب المقدس الاجتماعية التي تحيّر العقل الغربي المبجّل وتقضّ مضجعه.

الفصل الثاني

ولادة رجل طفل

ليس في قصة يسوع، كما ترد في البِشارة، حادثة واحدة لا تنسجم انسجاماً تاماً مع أنماط التفكير ووسائل التعبير السائدة في سورية. فكم من حكاية سمعتها حول موقدنا عن مرسلين سماويين من قديسين شفعاء أو ملائكة أطهار يتراؤون في الأحلام لزوجات تقيات حُرِمْنَ من الأولاد، ويبشرونهنَّ بنعمة الأمومة المرتقبة. لقد كان أمراً اعتيادياً أن تقضي هاتيك النسوة ليلة بأكملها في مزارٍ للعذراء المباركة أو لأحد القديسين، «فيجهدن في الصلاة» للحصول على مثل هذا الوعد السماوي؛ وإني لأذكر عدداً من نسيباتي اللواتي أمضين ليال كهذه.

ولعل الممارسات الدينية الأكثر رومنطيقية في هذا السياق هي ***الزيارة***. والزيارة، دينياً، تعني الحج إلى مزار. ومع أن المعنى الحرفي لكلمة «الحج» عند السوريين هو سفرة ذات أهميةٍ دينيةٍ مميزةٍ، الهدف الأخير من ورائها هو الحصول على بركة للحاج، دونما غرض محدد، فان الزيارة هي الحج طلباً لغرض محدد. ***فالزائر*** يؤم المزار بهدف الشفاء من مرض أصابه أو للتوبة عن خطيئة اقترفها أو للحصول على المعونة الإلهية بأي شكل آخر. وخلافاً للحج أيضاً، فإنه يمكن لشخص أن يقوم بالزيارة نيابة عن شخص آخر. ففي الحالات التي يكون فيها المرء عاجزاً عن السفر، أو إذا لم يكن مكترثاً للحالة الروحية التي من شأن هذه الزيارة معالجتها، يمكن للأهل أو للأصدقاء القريبين القيام بالزيارة نيابة عنه. في أكثر الأحيان، تقوم النساء بالزيارة للحصول على بركة الإخصاب، أو لتكريس ثمرة الزواج لله، أو للقديس شفيع المزار المقدس (لاسيما إذا جاء المولود ذكراً).

نكرر القول إن كلمة «الحج» تستعمل حصراً لوصف زيارة مسيحي إلى القدس أو محمدي إلى مكة، بينما تستعمل كلمة ***زيارة*** لوصف رحلة إلى أي من المزارات الأقل شأناً.

غالباً ما تكون هذه السفرة السعيدة مشياً على الأقدام، وعادة ما يقوم الزوّار بالسير حفاة «على جلدة أقدامهم» دليلاً على التواضع الجمّ الذي من شأنه أن يُسِرَّ اللّه والقديسين الطاهرين. غير أن ارتداء الأحذية وامتطاء ظهور الدواب لا يعتبران خطيئة في مثل هذه المناسبات، وغالباً ما تتساهل العائلات الموسرة في هذا الشأن، على اعتبار أن ما في القلب هو ما يجب أخذه بعين الاعتبار.

في الإصحاح الرابع من كتاب الملوك الثاني يرد ذكر «المرأة الشُّونَمِيَّة» التي امتطت الأتَانِ حين ذهبت تستعين بإليشع ليعيد الحياة إلى ابنها الميت. «ونادت رجلها وقالت أرسل لي واحداً من الغلمان وإحدى الأتَنِ فأجري إلى رجل اللّه وأرجع. ...وشدت على الأتان وقالت لغلامها سقْ وسر ولا تتعوق لأجلي في الركوب إن لم أقل لك. وانطلقت حتَّى جاءت إلى رجل اللّه إلى جبل الكرمل..[1]».

إذا كان الصوم والصلاة هما من الأمور الأساسية والبارزة في الزيارة، فإن قيام الرجال بشرب النبيذ والابتهاج الصاخب لا يتنافيان ووقار المناسبة. يحمل الزوار الأتقياء معهم الهدايا إلى رئيس الدير والرهبان الذين يقومون على خدمة المزار، وقد يكون بينها شمعدان من الفضة أو الذهب، أو تاج من أي من المعدنين فيحملونها إلى المذبح. أما الأم الصبية التي من أجلها كانت الزيارة فان الجميع يعاملونها بكل رفق باعتبارها «وعاء الرب المختار».

يقضي ***الزوار*** في المزار المقدس ليلة أو ليلتين أو لحين ظهور «القديس». إن «الظهور» المطلوب الذي من أجله تقام الصلوات يأتي في أغلب الأوقات على شكل رؤيا للأم أو لأحد أفراد العائلة المستحقين. كم يشبه هذا قصة يوسف في الإصحاح الأول من بشارة متّى! «ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم[2]».

بهذا الشكل يُعطى الوعد للأم المنتظرة التي «تحفظ هذه الأشياء، وتتأمل بها ملياً في قلبها».

ما أن يُمنَح الوعد، يكرس الوالدان طفلهما ***نذراً*** للقديس الشفيع مانح الوعد. وقد يكون النذر تعهداً مثلاً بأن «يُمنح القديس» مبلغاً من المال عند بلوغ الطفل، أو أن

[1] الملوك الثاني 4: 22-25 (المحقق)
[2] متّى 1: 20-21

يُحمل الطفل في ***زيارة*** ثانية إلى المزار مع هدايا تقدم للشفيع، أو ألاّ يُقصّ شعره قبل السابعة من عمره، حيث يُقصّ أمام صورة شفيع المزار، أو غيرها من مظاهر التقوى والخشوع.

ينذر الرجال على مختلف أعمارهم إطالة شعورهم لفترة زمنية معينة توسلاً للشفاء من مرض مستعص أو للخلاص من خطر أو حباً بالتقوى. في الإصحاح الثامن عشر من «أعمال الرسل» نقرأ «وأما بولسُ فلبث أيضاً أياماً كثيرة ثمَّ ودّعَ الاخوة وسافر في البحر إلى سورية ومعه بريسكلا وأكيلا بعدما *حلق شعر رأسه في كنخريا. لأنه كان عليه نذر*[3]». أما نذر بعض «الأخوة» في أورشليم فقد كلف بولس الرسول غالياً حينما قال له أخوته في الإيمان «عندنا أربعة رجال عليهم نَذْرٌ. خذ هؤلاء وتطهر معهم وانفق عليهم *ليحلقوا رؤوسهم*[4]».

آخر قداس من هذا النوع حضرته في سورية كان لفك نذر قريب لي في الثانية عشرة من عمره. اجتمعنا في كنيسة مار جرجس السوق وكان الاحتفال على الطقس البيزنطي ومهيباً جداً. وعند اقتراب نهايته، تقدم الأهل بابنهم إلى الباب الملوكي أمام المذبح، فقص الكاهن شعر تاجه على شكل صليب فيما هو يتلو صلاة خاصة بالمناسبة. هذا العمل البسيط حلَّ الولد وأهله من عهدهم الصارم.

إن «ثقافة القرن العشرين» ميالة لوصف كل هذه الممارسات بالأوهام، وهي إلى حد بعيد كذلك. ولكن واجب هذه الثقافة أن تحاول تفسير هذه الأوهام من منطلق متعاطف عوضاً عن إدانتها بشكل قاطع. إنني مع اللاهوت المنطقي والإيمان الواعي، ولكنني اشعر بأننا في حماسنا لهذا النوع من اللاهوت غالباً ما نفشل في إعطاء الأهمية الكافية للتوق الروحي العميق المتجلّي بأشكال من العبادة قد تبدو واهمة. هل في أشكال العبادة التي وصفتها آنفاً أكثر من تعبير حار عن رغبة الأهل لخلاص أبنائهم الروحي وسلامتهم؟ هل فيها أكثر من الدليل الصارخ على توق عميق ورغبة صادقة لحلول البركات الإلهية على العائلة والبيت؟ هل من بأس في التفكير بالله أمام المذبح أثناء عقد مراسيم الزواج، أو حين تظهر بشائر الوعد بالأمومة، أو عند إطلالة الطفل على هذا العالم؟ ما الخطأ في التفكير بالله وأنبيائه والقديسين كأصدقاء لنا ومرافقين في كل التغيّرات والظروف التي نمر بها في هذا العالم؟ لا يكفي، برأيي، أن ينبذ علم المنطق الأوهام ويدينها، فالتحدي الذي يواجهه هو أن يقدم للعالم رؤىً روحية أعمق مما تستطيعه الخرافات والأوهام، وأن يحيط الأطفال والشباب بالحضور الدائم للإله الحي.

إننا نفهم قول المزموري «هوذا البنون ميراث من عند الرب ثمرة البطن أجرة[5]»، بحرفيته. فالله، كلي القدرة، هو الذي حوّل العقم خصباً واجترح معجزة الميلاد. لقد

---

[3] أعمال 18: 18
[4] أعمال 21: 23-24
[5] مزامير 127: 3 (المحقق)

كنا نعتبر كل ولادة بمثابة أعجوبة سماوية، أما العقم فهو الدليل على عدم رضى الخالق. من هنا نفهم الوقع الطيب على الأذن السورية لتحية الملاك لمريم بقوله: «... سلام عليك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركةٌ أنت في النساء ... وها أنت ستحبلين وتلدين أبناً وتسمينه يسوع[6]».

أعجوبة؟ نعم. ولكن الأعجوبة تعني في علومكم الغربية شيئاً مختلفاً عما تعنيه للشرقي. فعلومكم تطلب معرفة ماهية الطبيعة ووظيفتها عبر التعامل مع الأسباب الثانوية. أما للشرقي فإرادة الله هي قانون الطبيعة وبِشارتها، لهذا تراه، حيال الملمات أو التحديات العقلية، يطلب الملاذ أو الجواب في إيمانه المطلق «بأن الله على كل شيء قدير».

إن الشرقي لا يرد الهجوم على إيمانه بالأعاجيب بإقامة الدلائل التاريخية المثبتة لحصولها، إذ أن مزاجه الشعري المتصوف يبحث عن الأجوبة بأشكال أخرى. فاستناداً إلى إيمانه الأساسي بأن الله كلي القدرة، تراه يقذف بكرة الحاجة إلى البرهان إلى مرمى مهاجمه متحدياً إياه أن يقوم هو بإثبات عدم حصولها. هكذا فعل بولس حينما وضع مهاجميه في موقع الدفاع بقوله: «لماذا يعدُّ عندكم أمراً لا يصدق إن أقام الله أمواتا؟[7]».

ولكن قصة ميلاد يسوع ومثيلاتها من محفوظات الإنجيل لا تُظهر الاستعداد الفطري لدى العقل السوري للقبول بالأعاجيب كأعمال إلهية، ومن دون أي تمحيص ناقد لها وحسب، بل وعن موقفه من الحمل والميلاد. هذا الموقف يختلف جملة عن موقف العقل الأنغلوساكسوني. إني لأذكر، وبمثل شعور من يتذكر ارتكابه لخطأ جاهلاً أنه خطأ، حين قام بعض أصدقائي الأميركانيين بنصحي، وبمنتهى اللطف، ألاّ أقرأ من على منبر الكنيسة تلك النصوص الإنجيلية التي تسهب في وصف عملية الحمل والميلاد، والاكتفاء بالإشارة العابرة إليها. لقد تعلمت بسرعة أن أعمل بموجب تلك النصيحة اللطيفة، ولكنه أخذني الكثير من الوقت والجهد النفسي لأفهم العوامل الكامنة وراء تلطيف هذه النصوص أثناء الإشارة إليها في أميركانيا.

في وطني الأم، كان مجرد وجود هذه القصص في الإنجيل كافياً لانتفاء الحاجة لغربلتها أثناء قراءتها للناس. فمنذ طفولتي وأنا أستمع إلى هذه القصص سواء في كنيستنا أو حول موقدنا، أو فيما هي مدار بحث عام يشترك فيه أطراف من الجنسين دون أن يجد فيه أحد ما يخرج عن آداب الحديث العادي واليومي لبني قومي.

كما سبقت الإشارة، يعتبر السوريون البنين ميراثاً من عند الرب. فمنذ أيام «إسرائيل» ولهذا الوقت، يعتبر العقم لاحظوة ربّانية وفاجعة لا تحتمل. إن صرخة

[6] لوقا 1: 28، 31
[7] أعمال 26: 8

راحيل «هب لي بنين. وإلا فأنا أموت[8]»، لا تبالغ في تصوير عذاب المرأة السورية التي لم تنجب أولاداً. وحين كانت رفقة على وشك مغادرة منزل والدها لتصبح زوجة لأسحق، كان دعاء أمها الحار والمتّقد حماساً «صيري ألوف ربوات[9]». لم تهمس الأم بهذا الدعاء الأخير لابنتها في زاوية البيت، بل إني لأتخيلها تلحق بالعروس إلى المدخل الخارجي رافعة كفيها ورأسها صوب السماء، وهاتفة بدعائها الحار على مسمع من الجمهور الذي ولا شك أثنى على دعائها وردّده.

حين يقدم الضيوف التهاني في حفل الزفاف، فان الدعاء الأساسي للعروسين هو دائماً: «اللّه يمنحكما السعادة وطول العمر، والعديد من الأولاد!». بعد فترة قصيرة من الزفاف يبدأ أصدقاء العروسين، ومن الجنسين، بالسؤال عن «التوقعات» بالنسبة إلى ولي العهد، وهذا ما يتضارب مع سلوك الأميركان المحافظ جداً حول هذا الموضوع. ولا تتخذ الأم المستقبلية من الاحتياطات لإخفاء علامات الحدث المرتقب أكثر من الاحتياطات التي تتخذها الفتاة الأميركانية لإخفاء خاتم خطبتها. إن هذه الحالة مدعاة لكثير من الفرح لاسيما حين يبدأ الجيران والأصدقاء باستشارة النجوم، واحتساب عدد الأحرف في أسماء الوالدين، وفي الشهر الذي من المفترض أن تكون أعجوبة الحمل قد حصلت فيه، للتنبؤ بما إذا كان المولود العتيد سيكون ذكراً أم أنثى. في تلك الناحية من بلادي كان هؤلاء العرّافون يصدقون ويحملوننا على التصديق معهم أنه إذا كان عدد الأحرف مفرداً جاء المولود ذكراً، وإن كان مزدوجاً فإن المولود سيكون أنثى، ما يعتبر كقاعدة عامة أمراً غير مرغوب فيه.

إن هذه الميزات الاجتماعية، وواقعية السوريين المتحررة في التكلم عن الحمل والميلاد، تخفي وراءها حقيقة أعمق بكثير. فالشعوب الشرقية، لاسيما السامية منها، تقدس التكاثر وتعتبره حياة اللّه تجدد نفسها في حياة الإنسان والمخلوقات التي هي دونه. بناء عليه يجب النظر إلى مظاهر التجدد هذه ببهجة والكلام عنها بفرح.

بصرف النظر عن العديد من التحولات الفكرية الأساسية التي مررت بها في بلاد التبنّي، فإني أسجل بين أجمل ذكريات طفولتي وأغلاها، ذهابي مع والدي إلى كروم العنب، أثناء تفتح أزهار الكرمة لأسمعه يقول بينما يده تلامس البراعم الممتلئة «تبارك الخالق إنه الوهّاب الأعظم. اللهمَ احمِ الزود المبارك». ماتزال هذه الصورة تتراءى أمام ناظري كلما قرأت صاحب المزامير إذ ينشد قائلا «للرب الأرض وملؤها[10]».

لن أفاضل بين واقعية الشرقيين وصراحتهم في بحثهم موضوع الولادة وبين

[8] تكوين. 30: 1

[9] تكوين. 24: 60 (من النص الإنجليزي لهذا الكتاب وللعهد القديم،«صيري أما لآلاف الملايين»، المحقق.)

[10] مزامير 24: 1 (المحقق)

تحفظ الأنغلوساكسون واتزانهم حيال هذا الموضوع. فتركيبتي النفسية قد أعيد بناؤها تحت إشراف أنغلوساكسوني، بحيث أنني لم أعد أعتبر تحفظه الزائد حول هذه المسائل خطأ عظيماً بمقدار ما أصبحت أراه علة ناتجة عن عِظَم تمسكه بالفضيلة. إن هدفي هو تبيان أن الشرقي الباقي على سجيته، والذي يعتبر أن التكاثر هو المظهر الأكثر جلالاً لحياة الله، لا يفهم كيف يمكن للمرء أن يخجل من الكلام في أي مكان عن ثمرة الزواج، أو عن «المرأة الحامل». فإذا كان لا بد من ذلك، فحري بالمرء أن يخجل من الكلام عن القدرة الخلاّقة إذ تعلن عن نفسها في حدائق الورد والأشجار المثمرة.

إننا نجد الخلفية لما نقول في قصة سارة حين تنبأ لها الملاك–الضيف بأنها ستحمل وهي في آخر عمرها؛ وفي قصة رفقة ودعاء أمها لها أن تصبح «أما لآلاف الملايين»؛ وأليصابات حين «تحرك الطفل في رحمها» إذ رأت ابنة عمها مريم، وإعلان الملاك لزوجة يوسف «وها أنت ستحبلين وتلدين إبنا».

هذا يفسر أيضاً لماذا، حين يولد «الرجل–الطفل»، يتوافد المهنئون إلى المنزل حتى في ذات يوم الميلاد، حاملين هداياهم ومهنئين الأهل على عطيّة الله لهم. بسبب هذا التقليد سُمح لهؤلاء الغرباء، «الحكماء الثلاثة»، المجوس الآتين من الشرق البعيد، أن يأتوا ويروا هذه العائلة الجليليّة بينما الأم ماتزال في سرير الولادة. «وأتوا إلى البيت ورأوا الصبيَّ مع مريم أمه. فَخرّوا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً[11]».

كذلك حصل الرعاة المساكين على نعمة مشاهدة الطفل الرائع مباشرة بعد ميلاده. «ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم لبعض لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذي أعلمنا به الرب. فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعاً في المذود[12]».

في الآية الثانية عشرة من الإصحاح الثاني في إنجيل لوقا، يرد في الترجمة الإنكليزية ما معناه «وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً ملفوفاً بثياب القماط». إن في كلمة ثياب هنا بعض التشويه للمعنى. فالنص العربي للإنجيل نفسه يؤدي المعنى الحقيقي « وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً *مُقَمَّطاً* مضجعاً في مِذود».

في التقاليد السورية المتوارثة لا يُلَبَّسُ الطفل في الأيام الأولى لميلاده بل يُكتفى بتقميطه. فعند الميلاد، تقوم القابلة بغسل المولود بماء فاتر وترشه بالملح أو تفركه بلطفٍ بملح يسحق في جرن حجري مخصص لهذه المناسبة. (يستعمل السوريون الملح الخشن في بيوتهم) بعد ذلك يرش المولود بمسحوق الريحان ويُقمَّط.

[11] متى 2. 11
[12] لوقا 2. 15-16

أما القِمَاط فهو قطعة من قماش سميك، مساحتها يارد مربع، تتّصل إحدى زواياها برباط ضيق طويل. تُمدُّ ذراعا المولود بملاصقة جسده، وتمد رجلاه إلى أقصى الطول فيما القدمان متلاصقتان، ويلف بالقماط ويربط بالرباط الضيق بعد أن يلف حول جسمه من كتفيه إلى كاحليه فيبدو الطفل وكأنه مومياء مصرية. لقد كان من أحب الأمور اليّ في طفولتي حمل طفل مقمط بين ذراعيّ، إذ كان هذا الكائن «المملح» و«المبُهَّر» على درجة من النعومة والخفة والضعف المحبب بحيث أن ضمه إلى صدري كان بمثابة منحي بَرَكَة إلهية.

هكذا وجد المجوس ورعاة الغنم «طفل بيت لحم» في قصة الميلاد العجيبة.

وبما أننا أتينا على وصف هذه التقاليد الشرقية، فقد تفيد الإشارة إلى أن تعيير المرء في بعض المناطق السورية بأنه «لم يملّح» عند ولادته يؤدي إلى شرٍ لا تحمد عقباه. إن ***البندوق***، أي المجهول الأب، هو الذي لا يملّح. من هنا نفهم خطورة تعيير حزقيال لأورشليم حين اتهمها بأنها صنعت الإثم وبطلت أن تكون الابنة الشرعية ليهوه، بقوله: «وكانت إليّ كلمة الرب قائلة. يا ابن آدم عرِّف أورشليم برجاساتها وقل. هكذا قال السيد الرب لأورشليم. مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموريٌّ وأمك حثِّية. أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ولم تغسلي بالماء للتنظيف ولم تملَّحي تمليحاً ولم تقمَّطي تقميطاً. لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لترقَّ لك. بل طُرِحتِ على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت[13]».

---

[13] حزقيال 16: 1- 5 (المحقق)


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الثالث

النجــم

كم تبدو قصة «نجمة بيت لحم» طبيعية للإنسان الشرقي! فهو يؤمن بأن «السموات تحدث بمجد اللّه»، والنجوم تعلن للإنسان عن أشياء رائعة. إنها مراسيل للخير والشر، ومادة لأنبل المُثُلِ وأرهب الخرافات.

من السهل على المحدقين بالنجوم في أعماق السموات السورية الصافية الانسجام مع روحية المزمور الثامن المهيبة، «إذا أرى سماواتك عَمَلَ أصابعك القمر والنجوم التي كونتها فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده[1]». أعماقٌ ما بعدها أعماقٌ تتكشف للناظر في ذلك الفضاء الناشف اللطيف «لأرض الوعد» حيث تبدو الثُريّا وكأنها مصابيح معلقة في فناء الدار. «تشتاق نفسي» لمشهد السماء من أعالي موطني لبنان أو من رُبى فلسطين. ولا عجب أن بني قومي يعتبرون النجوم دليلهم وسميرهم في الليالي، والمظهر الأبهى لقدرة اللّه وحكمته ومجده. «السموات تحدِّث بمجد اللّه والفلك يخبر بعمل يديه. يوم إلى يومٍ يذيع كلاماً وليل إلى ليلٍ يبدي علماً..[2]».

إن عدد النجوم التي تراها العين المجردة في تلك البلاد عظيم لدرجة أن السوريين درجوا على تشبيه الأعداد الغفيرة بنجوم السموات أو برمال البحر. ففي وصف جمع غفير نقول: «إنهم ***مثل النجوم***» وهكذا جاء في سفر التثنيّة «فتبقون نفراً قليلاً عوض ما كنتم كنجوم السَّماء في الكثرة لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك[3]»، وفي التكوين

[1] مزامير 8: 3-4
[2] مزامير 19: 1-2
[3] تثنية 28: 62

«ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعدَّ النجوم إن استطعت أن تعدَّها. وقال له هكذا يكون نسلك[4]». وفي الحديث عن اللّه كلي العلم يقول كاتب المزامير «يحصي عدد الكواكب. يدعو كلها بأسماء[5]».

وتصغر المسافة بين أنوار السماء التي لا تحصى وبيننا عبر اعتقادنا بتأثيرها في حياتنا اليومية. فلقد نشأت على الاعتقاد بأن لكل إنسان نجماً في السماء، يحمل سر مصيره ويراقبه أينما رحل. فالرجل الودود **نِجمو جِدِّيب**. «نجمُهُ جذَّاب»، (المحقق). والناس يحبون بعضهم بعضاً حين تكون «نجومهم منسجمة». أما الذي تعاكسه الظروف، فنجمه في طالع ***النحس***، وهكذا دواليك. لقد كانت النجوم تشير إلى الوقت أثناء سفرنا الليلي، وكانت المؤشر على تحول الفصول متممة بذلك رغبة خالقها، «وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين[6]».

في كل متَّحد[7]، كان عندنا «منجِّمون» يقرأون الطالع. وكانت ثقتنا كبيرة بهؤلاء الرجال الغامضين القادرين على «توقيف» نجم الإنسان الغائب في طالعه والاستطلاع منه عن حال الغائب، حَسَنَة كانت أم سيئة.

وكحلم يتلاشى، أذكر أنني ذهبت برفقة والدتي، وكنت في العاشرة من عمري، لزيارة أحد «المنجمين» لتعيين فلك والدي واستطلاع نجمه البراق عن أحواله. لقد كان والدي مسافراً، وبسبب صعوبة الاتصال في تلك البلاد آنذاك، انقطعت أخباره عنّا. في أصيل ذلك اليوم، ومن دون أدنى سبب، شعرت والدتي بانقباض في صدرها وأن «قلبها ثقيل»، وخشيت أن يكون قد أصاب الوالد مكروه، فسعت إلى المنجِّم لمعرفة ما إذا كان ثمة أساس لمخاوفها. اتكأ الذي «يوقف الطالع» إلى شجرة توتٍ هرمة ورفع نظره إلى السماء فيما شفتاه تتمتمان بسرعة وكأنه يردد كلمات في غاية الأهمية. أخيراً قال صاحبنا: «إني أراه متوسداً ومتكئاً إلى حائط يدخِّنُ ***نرجيلته***؛ هناك آخرون معه وهو في صحة جيدة». بذل الرجل مجهوداً كبيراً ليدلَّ والدتي على «النجم»، وهي بدورها، وبعد أن تظاهرت ببذل مجهودها الخاص، أعلنت للرجل أنها فعلاً ترى ما يراه. المهم أن الانقباض فارقها.

أما أنا وبسبب رغبتي العارمة في رؤية والدي ***ونرجيلته*** في النجمة، فقد تعلقت بذراع قارئ السموات كهِرٍ مذعور ملحاً على «الرؤية». وكان صاحبنا كلما حاول إبعادي عنه، كلما غرَّزت أظافري أكثر في ذراعه. وبعد لأيٍ، أسفرت الجهود المشتركة بين والدتي ووارث المنجمين عن إقناعي بأنني «صغير جداً لرؤية مثل هذه المشاهد».

[4] تكوين 5.15
[5] مزامير 147 .4
[6] تكوين 1 14
[7] Community والمصطلح من وضع أنطون سعاده

إن الإفراط في مثل هذه الممارسات هو الذي حدا بإشعياء أن يصرخ «قد ضعفت من كثرة مشوراتك. ليقف قاسمو السماء الراصدون النجوم المعرِّفون عند رؤوس الشهور ويخلِّصوك مم يأتي عليك. ها إنهم قد صاروا كالقش. أحرقتهم النار. لا ينجُّون أنفسهم من يد اللهيب[8]».

بَيْدَ انه وراء هذه البساطة كلها نجد الإيمان المعزّي بأن النجوم هي بالفعل حيَّةٌ في جلال الله. إن الجمال المتجلي سواء في المزمور التاسع عشر (السموات تحدِّث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه)، أو في قصة نجمة بيت لحم، يشير إلى أن «جند السموات» ليست كتلاً هائلة من الغبار فحسب، بل هي دليل على قوة الخالق ومحبته المتجليتين في خلائقه. وهكذا فإن قصة الميلاد في البِشارة تؤكد على إيمان الشرقي بهدف الله من وراء خلق تلك الأنوار في جلد السماء. فهو قد جعل دليل المجوس الثلاثة في بحثهم عن موضع ميلاد أمير السلام، نجمة كبيرة ذات نور ساطع وصافٍ ليعبِّر عن السلام والكمال اللذين ستأتي بهما مملكته إلى الأرض، متى آن الأوان.

من أجمل طقوس كنيستي الأم، كنيسة الروم الأرثوذكس، وألطفها، تقديم الطفل إلى الهيكل، أو «قبوله في الكنيسة». يقام هذا الطقس لكل طفل في الرعية احتفاء بتقديم يسوع إلى الهيكل في أورشليم، كما جاء في لوقا، «ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدِّموه للرب[9]».

إن أيام التطهير «حسب شريعة موسى» هي أربعون يوماً [10]، لا يسمح للأم أن تدخل بيت العبادة قبل «انقضائها». لهذا، فإن العماد، الذي عادة ما يتم بين اليوم الثامن واليوم الأربعين للميلاد، يعقد في البيت. وفي أول أحد بعد «الأيام الأربعين»، تحمل الأم طفلها إلى باب الكنيسة أثناء القداس، بعد أن تكون قد أعلمت الكاهن برغبتها. يلاقيها الكاهن على المدخل بردائه الكهنوتي ويأخذ الطفل بين ذراعيه فيرسم به إشارة الصليب ويقول: «الآن يدخل عبد الله (فلان) إلى الكنيسة المقدسة، باسم الآب والابن والروح القدس آمين». ثم يمشي الكاهن إلى داخل الكنيسة حاملاً الطفل، قائلاً بالنيابة عنه: «أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد في هيكل قدسك بخوفك[11]». حينما يصل إلى منتصف الكنيسة، يقول مجدداً: «الآن يدخل عبد الله...»، ثم يقول أيضاً بالنيابة عنه، وهو واقف في منتصف الكنيسة ومحاط بالرعية الخاشعة في صمت: «أخبر باسمك اخوتي، في وسط الجماعة أسبحك». حين يصل الكاهن إلى الباب الملوكي (الباب الموجود في منتصف *الاناستاس*، أي الفاصل الذي يحجب المذبح عن الرعية)، يقول للمرة الثالثة: «الآن يدخل عبد الله...». بعد ذلك يدخل الكاهن بالطفل عبر الباب الشمالي، الذي إلى شمال الباب الملوكي، إلى ***المذبح***،

---

[8] إشعياء 47: 13
[9] لوقا 2: 22
[10] لاويين 12: 2-4
[11] مزامير 5: 7

المساوي «للمكان المقدس» في الهيكل القديم. هنا يدور الكاهن حول ***المايده*** *(المائدة)*، فيرسم إشارة الصليب بالطفل ويعود إلي وسط الرعية عبر الباب الجنوبي. في هذا الموضع يتقدم الكاهن بآخر تشفع مردداً كلام سمعان: «الآن تطلق عبدك حسب قولك بسلام. لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب. نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل[12]». بعد ذلك يعيد الطفل إلى أمه. تُقدم الفتيات أمام الباب الملوكي، ولكن لا يُدخل بهنّ إلى «***المذبح***».

[12] لوقا 2: 29 (من الضروري قراءة آيات لوقا 2: 25-28 للإحاطة بظرف القصة، ومختصرها، أن سمعان ما كان ليموت قبل أن يرى مسيح الرب. أنظر المقدمة والتعليق على هذه الآية. المحقق)

الفصل الرابع

الأنغام الخفية

ما أعذب الاستماع إلى الأنغام الخفية لترنيمة الميلاد. إن قصة «نجمة بيت لحم» تحمل في طيّاتها تلك الخطوط النفسية العميقة التي ولدت إلى هذا العالم من روح ذلك الشرق العتيق. كم أحب مشاركة الناس في المسرة الاجتماعية وروح المحبة اللتين تعمّان في عيد الميلاد، والاستمتاع معهم بتلك الإيقاعات الصوفية التي وضعها أُولئك الراؤون القدامى في قصص العهد الجديد الغنية فعبّروا بها عن أعمق وأثمن ما في الروح الإنسانية من آمال.

بكل احترام أترك «للناقد الإنجيلي» مهمة تعيين الموقع الذي يراه مناسباً لقصة الميلاد في تاريخ العهد الجديد. أما أنا فاهتمامي العميق بهذه القصة يتمحور حول المُثُلِ الروحية التي تكشِف عنها، والتي كان لها، على مر العصور، أثر عظيم وخيِّر على عقول الناس. وفي اعتقادي كمسيحي وكشرقي، أن لي كامل الحق في أن أكون متصوفاً على المذهب المتكامل للعهد الجديد.

يقدّم الإصحاح الثاني من بِشارة لوقا قصة الميلاد في مشهد شعري رائع يتداخل فيه الرعاة البسطاء، والمجوس الحكماء، والملائكة المترنمون، مبتهجين بالإعلان عن حقيقة إلهية جديدة. هذا المشهد لا يمكن صدوره إلا عن فنان روحاني ذي رؤية عميقة جداً. ولو أن اكتشاف هذه الرائعة الأدبية حصل اليوم، أي في العام 1916، لكان اكتشافها سمة لحقبة مهمة في تاريخ الأديان. إنها التعبير عن توق عارم للصحبة الإلهية والسلام اللامتناهي.

«وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم. وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجدُ الربِّ أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً. فقال لهم الملاك لا تخافوا. فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب. وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود. وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموي مسبِّحين اللّه وقائلين المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرَّة[1]». بعد أن أعلن الملاك أن اللّه قد قدم لزيارة شعبه في شخص المسيح المولود حديثاً، سمع الرعاة البسطاء الأميون ترنيمة السماء التي أعطت المجد لله والسلام والمسرة لجميع بني البشر. هل ثمة صورة أكثر شمولية ودقة في التعبير عن أعظم آمال النفس البشرية؟ حتى الرعاة المتبدّون أدركوا، بحكم كونهم نفوساً حية، انه متى تم اللقاء الإلهي بالإنساني تتحد السماء بالأرض، ويعم السلام والمسرَّة بني البشر. كم تحمل هذه الرؤيا في طياتها من الأمل والتشجيع حتى لأكثر الناسِ وداعة! كم فيها من تأكيد على أن السماء بكل كنوزها ومحبتها، قريبة جداً من عالمنا الأرضي!

«فقال لهم الملاك لا تخافوا. فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب». لقد نظر الرعاة إلى السماء بعين البشرية كلها فكانت نظرة تحمل أملاً وسع الكون. ما من نفس تطلعت إلى فوق، إلى السماء، ولم تحصل على النتيجة عينها. فالجواب الإلهي هو دائماً «لا تخافوا. فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب!». ما من نفس محكومة بالعيش في الشك والخوف؛ ما من نفس محكومة أن تبقى وحيدة بائسة. إن السماء لا تحمل لنا سوى «البشارة بفرح عظيم»، فالقوى العلوية قريبة جداً منا، وليس ما يمنع أن يكون للنفس الإنسانية أصدقاء غير منظورين.

من هذا المقطع من العهد الجديد نستنتج أن المجوس الحكماء والرعاة البسطاء قد نالوا البركة ذاتها بمجرد زيارتهم للطفل المقدس. لقد وقفوا جميعاً بالتساوي، هؤلاء المنغمسون في حكمة الشرق القديم، إلى جانب أولئك البسطاء من أبناء البادية. وقفوا كأرواح عارية متجردة من كل الفوارق الإنسانية. لم يكن هناك من مقاعد «مخصصة» في ذلك المزار الصغير. وكل من دخل بقلب مفتوح تلقى بَرَكَته وغادر مسبحاً اللّه. هاك لمحة عن هذه المملكة التي تتوق إليها نفوس الطامحين لجعلها مسكنهم الأبدي بغض النظر عن المركز والرتبة.

«ليس ثمة من عظيم أو وضيع
أمام النفس كلية القدرة
فحيث تكون، تكون كل الأشياء
وهي دائماً في كل مكان».

---

[1] لوقا 2: 8-14 (المحقق)

إن قيمة هذه الترنيمة المسيحية تكمن في كونها توحي بالتفاؤل الروحي. فأمام التشاؤم، تكون السموات مغلقة وصامتة والعالم بلا نوافذ مفتوحة على المطلق. لا يمكن للتشاؤم أن يترنم لأنه بلا أمل، ولا يمكنه أن يصلي لأنه بلا إيمان.

عند هذه النقطة أجدني مضطراً لأن أسأل: إلى أين تقودنا روح العصر الحالي؟ أترانا نبتعد عن جبل الرؤية؟ على ما يبدو، لم يعد هناك أكثر من فسحة صغيرة للأحلام والرؤى الروحانية في عالمنا الواسع والمعقد. إن تداخل أعمالنا التجارية ودوران عجلات ماكينتنا الصناعية الدائم يغلقان حواسنا أمام الهمسات الحميمة للروح الإلهية. إننا نرى، ولكن بالعين المجردة فقط؛ ونسمع، ولكن بالأذن المجردة فقط. أما حواسنا الداخلية فهي في خطر عظيم من أن تموت بسبب قلة المران. إن أمورنا المعيشية تأخذ منا الكثير وتجعلنا غافلين عن نداءات العالم العلوي اللطيفة. دعونا لا نسمح لشؤون هذه الحياة الدنيا أن تسد مسامعنا عن أغاني الملائكة التي لا تخبو مع الريح. إن نجمة الأمل لا تغيب أبداً، وتجليات اللّه باقية إلى أبد الآبدين.


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الخامس

الطاعة البنوية

لا يأتي العهد الجديد على أي ذكر لحياة يسوع ما بين ميلاده وظهوره على ضفاف الأردن ليتعمد على يد يوحنا، باستثناء حادثة واحدة. عندما كان يسوع ابن اثنتي عشرة سنة، ذهب في رحلة حج إلى مدينة أورشليم. إن الحج السنوي إلى المقامات الدينية الكبرى مايزال من الأمور الشائعة في سورية. فالمحمديّون يحجّون إلى مكة، والمسيحيّون واليهود إلى أورشليم. غير أن ثمة العديد من الأماكن المقدسة الأخرى التي يمكن للمؤمنين في تلك المناطق الوصول إليها بسهولة وزيارتها. وكما ورد آنفاً، فان زيارة أي مقام غير مكة والقدس تدعى ***زيارة*** وليس حجاً. إن الوصف البسيط لحج يسوع إلى القدس مع أهله لهو وصف لتجربة نموذجية. وحين أكتب عنها، أشعر وكأنني أتذكر تجربة شخصية.

« كان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد. وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظنّاه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف. ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه[1]».

[1] لوقا 2: 41

في سورية يُسمح باصطحاب الأولاد الذكور إلى الحج أو إلى ***زيارة***، ما أن يصبح بإمكانهم تحمل أعباء السفر. وأذكر أنني ذهبت مع أهلي في ***زيارتين*** وأنا دون الخامسة عشرة من عمري، إذ أن بلوغ سن الرشد ليس من شروط الرحلة، بل تؤتى البركة لمن يقوم بهذا العمل التقي. وليس هناك من قاعدة تحتم عدد الأيام التي يجب قضاؤها في الحج، على الأقل عند المسيحيين. أما في الديانة اليهودية القديمة، فكانت أيام «عيد الفصح» ثمانية وهي الأيام التي «قضاها» يوسف ومريم في أورشليم.

استناداً إلى لوقا، مضى يوم كامل من رحلة العودة إلى الناصرة قبل أن ينتبه أهل يسوع إلى أنه ليس معهم. وعلى ما يبدو، فان هذه الفقرة من القصة قد حيرت المعلق الإنجيلي الشهير آدم كلارك، فسأل: « إذا كانوا يعرفون أي كنز هو يسوع، فكيف مر كل هذا الوقت دون أن يلتفتوا اليه؟ ألم تتحرك أحشاء أمه من فرط الخشية عليه؟ إني أدعو من يملك جواباً عن هذا السؤال أن يتقدم به».

ليس من داع لحيرة كلارك أو ارتباكه إلى هذا الحد. فالذي يعرف تقاليد السوريين أثناء قيامهم برحلات الحج، يدرك أن التجربة التي حدثت «للعائلة المقدسة»لم تكن بالأمر الغريب. فالغموض كله ينجلي من خلال القول «وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف»، الذين يسافرون جماعات كبيرة فيكون الحجَّاج الصغار، كيسوع، ذي الاثني عشر عاماً، آمنين طالما هم ضمن المجموعة. وربما لا يرى الأهل أبناءهم لمدة ساعات في رحلات كهذه دون أن يقلقوا بسبب انسجام الجماعة، والشعور بالأمان النابع من الثقة بذوي القربى.

على ما يبدو لي، فإن عبارة لوقا «ذهبا مسيرة يوم» قبل اكتشافهما أن يسوع لم يكن مع الجماعة، تتضمن الوقت الذي استغرقته العودة إلى أورشليم للبحث عن ولدهما. فقد يكون أنهم اكتشفوا غيابه عند الظهر، عندما توقفوا بالقرب من نبع ماء ليتناولوا الزَّاد، وهو الوقت الذي تجتمع فيه العائلات لكسر الخبز. غير أنه باستطاعتي التأكيد أن يسوع كان مع الجماعة حين غادرت أورشليم في الصباح الباكر، وأنه انفصل عن أقربائه وعاد إلى المدينة المقدسة بعد مدة قصيرة من مغادرتهم لها. فما من عائلة سورية إطلاقاً تبدأ رحلتها قبل التأكد من وجود كل أعضاء العائلة. أما إغفال كاتب الإنجيل لهذه التفاصيل، فيمكن فهمه بسهولة، إذ أن هدفه لم يكن إعطاء سجل فوتوغرافي لكل ما حدث على الطريق، بمقدار ما كان إبراز المُثُل الروحانية العليا التي قادت الصبي يسوع للعودة إلى الهيكل، حيث وجده أهله «جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم».

في هذا السجل البسيط والمهم لكل النِّعَم البنوية التي لا بد وأن يكون يسوع قد تحلى بها، لا يرد سوى مرة واحدة فقط في الإصحاح الثاني من بشارة لوقا أنه نزل

معهما إلى الناصرة «وكان خاضعا لهما[2]». إن هذه العبارة التي تبدو اعتيادية جداً، هي في الواقع من الأهمية بمكان. فعندنا في سورية، تعتبر ***طاعة الوالدين*** تاج فضائل الشباب. فالمبادرة الشخصية لا يجوز لها أن تتخطى الحدَّ الفاصل لهذه النعمة التي تحفظ نظام العائلة البطريركي. إبَّان طفولتي في تلك البلاد الرومنطيقية، كان والدي غالباً ما يأخذني معه في زيارات لإظهار الولاء إلى أحد الإقطاعيين في المنطقة. وكان من الطبيعي لذلك الشخص المحترم أن يضع يده على رأسي ويقول بنبرة متعالية: «ولد ذكي، ومطيع لوالديه من دون ريب».

بالنسبة إلى نعمة الطاعة البنوية، فإني لست على بينة من وجود اختلاف كبير في الممارسة بين الشرق والغرب باستثناء فارق أساسي واحد. فللشرقي الوافد حديثاً إلى أميركانيا، يبدو اليافعون الأميركان وكأنهم لا يكترثون للطاعة البنوية. فالتوق الشديد إلى الحرية والحس الفردي الذي هو من خصائص الأنغلوساكسوني المغامر، والضغط الاقتصادي الذي يسهم في شرذمة الأسرة بشكل مؤلم لم يعرفه الشرق، تعطي الانطباع بأن الحب العائلي والطاعة البنوية في طريقهما إلى الزوال من المجتمع الأميركاني. ولكن الشرقيين منّا الذين يعرفون خصائص العائلة الأميركانية عن كثب، يدركون أن تماسكها لا يبدو ضعيفاً إلى درجة تنذر بالخطر. إن جنون الركض وراء «النجاح العملي» هو بالتأكيد عامل تهديد للعائلة الأميركانية، ولكن المحبة والطاعة ما تزالان قوّتين فاعلتين في تلك العائلة. فتعابير «الأب» و«الأم» و«الأخ» و«الأخت» لم تفقد بأي شكل من الأشكال جاذبيتها النفسية في المجتمع الأميركاني. إن العاطفة العميقة التي يحملها أعضاء العائلات الأميركانية المعتبَرَة الواحد منهم تجاه الآخر، والاحترام اللطيف الذي يكنه بعضهم لبعض يدعوان إلى الكثير من التقدير.

ولكن الفارق الأساسي بين الشرق وبين الغرب يكمن في أن الشرقي يعتبر الطاعة البنوية أكثر من لباقة اجتماعية أو محبة طبيعية. إنه يعتبرها واجباً دينياً خطير النتائج، أمَرَ اللّه به في وصيته القائلة «أكرم أباك وأمك». إن عدم رضى الوالدين هو أمر يدعو للخوف تماماً كالخوف من غضب اللّه، وهذا الاعتقاد يسود المجتمع السوري من أعلى مراتبه حتّى أدناها.

إن تفسير الخطيئة الأصلية في الإصحاح الثالث من سفر التكوين يتناول لبَّ هذه المسألة. فالكاتب لا يعزو «سقوط الإنسان» إلى أي عمل يمكن اعتباره، بحد ذاته، عملاً مؤذياً، وإنما يعزوه إلى عدم الطاعة. فالأب الإلهي أمر ابنه آدم ألاّ يأكل من شجرة « معرفة الخير والشر»، ولكنه أكل منها فأصبح غريباً وخسر بركات بيته الأصلي.

[2] لوقا 2: 51 (المحقق)

إن فكرة الطاعة البنوية هي مصدر قوة وضعف للشرقيين في آن معاً. ففي غياب المصالح الضابطة والمتأتية عن حياة اجتماعية واسعة النطاق، ضَمَنَ هذا النظام البطريركي تماسك الحياة في الجماعة أو العشيرة وحفظ لها فضائلها الأصلية. ولكنه، وفي الوقت نفسه، أطفأ روحية التقدم وجعل من الحياة الشرقية تكراراً مملاً لأنماط تفكير بائدة.

مما لا شك فيه أن يسوع قد وهب العالم بركة عظيمة حين انفلت من مجرد إطاعة الوالدين، في المفهوم الشرقي للكلمة، وأعلن «لأن كل من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات، هو أخي وأختي وأمي[3]».

[3] متّى: 50:12 (المحقق)

الفصل السادس

العيد والقربان المقدس

سأتناول بالبحث في فصول لاحقة مواعظ يسوع العامة والخصائص التي ميزته كمُعلّم شرقي. أما في هذا الفصل فسأركز على المشاهد الأخيرة من مهمته الخاصة. فالأحداث التي جرت في «العلّية» على جبل الزيتون، وفي ضيعة جثسيماني، ما هي إلا صور فوتوغرافية أمينة لخصائص مميزة من الحياة السورية.

ليس العشاء الأخير حادثاً منعزلاً أو غريباً عن التاريخ السوري. بل أن جوّه الأخوي، والعاطفة الحميمة التي جمعت الحاضرين، ما هي إلا صفات ترافق كل تجمع مشابه لعدد من الأصدقاء السوريين، لاسيما في حال الشعور باقتراب خطر ما. فكل ما دار في تلك الليلة بدءاً من «آداب المائدة» البسيطة، إلى تلك المسحة من الحزن والمثالية التي طَبَعَ بها المعلّمُ ذلك العشاء مانحاً إياه صفة التضحية التي أصبحت فيما بعد قوته الدافعة على مر العصور، لا يخالف شيئاً مما يدور عادة في مثل هذه المناسبات.

إن قدسية العشاء الأخير لهي خير دليل على القدسية التي منحتها حياة يسوع وكلماته لأكثر الأشياء اعتيادية في الحياة. لم يكن يسوع مخترعاً لأشياء جديدة، ولكنه كان

مكتشفاً للأهمية الروحية الكامنة في بعض ما يراه الناس اعتيادياً.

إن الشكليات غير الرسمية للحياة الشرقية مليئة بالعاطفة. فالاعتبار الأهم في مسلكية الشرقي لا يكمن في صحة الأسلوب بل في انبثاق العمل من القلب. لهذا يبدو الشرقي للأنغلوساكسوني، كثير العاطفة، ودوداً أكثر مما يجب، ومنفعلاً أكثر من اللزوم بالمحرّضات الاجتماعية. ومن الجهة المقابلة، يبدو الأنغلوساكسوني للشرقي وكأنه يكاد يتحول إلى إنسان متعبد للعقل خلو من العاطفة.

في مطلق الأحوال، فإن الشرقي لايخشى من إطلاق العنان لعاطفته والتعبير عنها بشكل مكشوف. والإنجيل، لاسيما تلك المقاطع المتعلقة بالعشاء الأخير، خير دليل على ذلك.

في سورية، غالباً ما يجتمع الأصدقاء الرجال لتناول الطعام معاً في جو من الإلفة والأخوّة. هكذا كان الحال بالنسبة إلى العشاء الأخير، حيث لا تشير التواريخ إلى وجود أي من النساء المؤمنات بالمسيح في عداد الحاضرين. في مثل هذه المناسبات، يجلس الرجال على الأرض في شبه دائرة ويأكلون من وعاء واحد عميق وكبير أو من عدد من الأوعية الصغيرة. يُرفع الطعام إلى الفم، ليس بالشوكة أو الملعقة –باستثناء السوائل– وإنما بمزَقٍ صغيرة من الخبز الرقيق (المرقوق). حتى الطعام السائل يُغمس به في بعض الأحيان بقطع من الخبز المضمومة كالملعقة. من هنا يمكننا فهم قول يسوع «الذي يغمس يده معي في الصّحْفَةِ معي هو يُسلّمُني[1]». في لوحته الشهيرة «العشاء الأخير»، يصوّر ليوناردو دافينشي حادثة شرقية ولكنه يضعها في قالب غربي. فالطاولة العالية والكراسي والأطباق الخاصة وكاسات الشراب هي من أدوات المائدة الأوروبية وليس السورية. في الواقع إن الصورة مضللة إذا نظرنا إليها من وجهة نظر تاريخية. فليوناردو لم يقصد برائعته أن تكون دراسة في التاريخ وإنما في الخُلُق. ولكن إنجاز هذه المهمة لم يكن ممكناً لو أنه رسم المعلم وتلامذته كما كانوا جالسين في تلك «العليّة»، أي في دائرة على الأرض. لهذا أجلسهم ليوناردو إلى جانبٍ واحدٍ من الطاولة، وقسّمهم إلى أربع مجموعات تجلس كل اثنتين منها إلى جهة من المعلم. فحين ننظر إلى اللوحة الرائعة هذه، نشعر برعشة الرعب التي هزت التلامذة المخلصين حين قال يسوع: «الحق أقول لكم إن واحداً منكم يسلمني[2]». فالحركات، والتغيّير المفاجئ في الوضعية، وتعابير الوجوه، كلها تكشف عن أعمق ما في نفس كلٍ من التلاميذ. لقد أعطى الفنان لوحته طابعاً أوروبياً عوضاً عن الطابع الشرقي لكي تكون أقرب إلى فهم الجمهور الذي رُسمت له.

غير أن الأواني التي استعملت في العشاء الأخير كانت كلها شرقية أصيلة. ففي

[1] متى 26 23
[2] متى 26 21

وصف مرقس لتلك الحادثة نقرأ: «ولما كان المساء جاء مع الاثني عشر. وفيما هم متّكئون يأكلون، قال يسوع الحق أقول لكم إن واحداً منكم يسلّمني. *الآكل معي*». إن كونهم كلهم يأكلون معه واضح من العبارة، «فابتدأوا يحزنون ويقولون له واحداً فواحداً هل أنا. وآخر هل أنا. فأجاب وقال لهم. هو واحد من الاثني عشر الذي يغمس معي في الصحفة[3]».

لقد فُسرت هذه العبارة، «الذي يغمس معي في الصحفة»، على أنها تعني يهوذا فقط (الذي كان جالساً بجانب يسوع)، والذي كان يغمس في الصحن الذي يأكل منه المعلم. قد يكون هذا الأمر ممكناً، ولكنه غير مؤكد. فحقيقة الأمر أنه في مناسبات كهذه، وطبقاً للتقاليد السورية، يوضع في كلٍ من الأطباق الكبيرة، والقليلة العدد، نوع مختلف من الأطعمة. ولكل ضيف الحق في أن يمدّ يده إلى أي من الأطباق، ويغمس خبزه فيه. من هذا الكلام يمكن الاستنتاج أنه من الممكن أن يكون أي من التلامذة أو كلهم قد غمسوا بدورهم في الصحن الأقرب إلى يسوع. إن عدم معرفة التلاميذ من قصد المعلم بقوله إن أحدهم سيخونه، حتى بعد أن أضاف «الذي يغمس معي في الصحفة»، يرينا بوضوح أن يهوذا كان يأكل مثله مثل أي من التلامذة الآخرين.

لذلك فإن عبارة «الذي يغمس معي في الصحفة» الخ...، تفيد الحب الخائب، ويمكن إعادة صياغتها كما يلي: «لقد أحببتكم جميعاً بالتساوي واخترتكم كأعزِ أصدقاء لي. لقد كسرنا الخبز معاً وتشاركنا بأفراح الحياة وأتراحها. ولكن واحداً منكم يا تلامذتي الأعزاء، وهو يأكل معي الآن، ينوي خيانتي».

ولا شك عندي في أن أعضاء تلك الزمرة البائسة المجيدة الذين اجتمعوا في العليّة في تلك الليلة التاريخية، إنما شربوا كلهم من كأس واحدة فقط، تماماً كما كنا نفعل في احتفالاتنا في تلك البلاد البعيدة، من دون أن نأرق خوفاً من الجراثيم المعدية. فالكأس الواحدة تعني لنا الألفة والأخوة والود. كان ***الساقي*** يصب الكأس الأولى ويقدمها لأعلى الضيوف شأناً فيشربها دفعة واحدة ويعيدها له، فيملأها هذا من جديد ويقدمها إلى ضيف آخر، وهكذا دواليك، إلى أن يشرب كل فرد من المجموعة الكأس الأولى. بعد ذلك تبدأ المجموعة بشرب ***النِّزْل***[4]. وهذه كلمة تصعب ترجمتها إلى الإنجليزية، وإن كانت الكلمة الأقرب إليها هي «Treating» ولكن حتى هذه الكلمة تقصر عن إيفاء معنى الاحترام والود الذي تحمله كلمة ***نِزل***. فالضيف حين يستلم الكأس في يده، يتمنّى للمجموعة كلها «الصحة والسعادة وطول العمر». بعد ذلك يختار أحد الأصدقاء ويتمنى عليه أن يقبل منه الكأس التالية تعبيراً عن احترامه ومودته. يمتثل الساقي للطلب ويقدم الكأس للشخص الذي اختير، فيشربها هذا دفعة

[3] مرقس 14: 19-20

[4] الكلمة التي استعملها المؤلف في الأصل الإنجليزي هي Nezel

واحدة مبادلاً صديقه بجميل الكلام ويمثل عاطفته الجيّاشة. وليس غريباً أن يطلب المضيف الكريم من ضيوفه في ختام السهرة أن يشربوا محتويات كأس واحدة، عهد صداقة دائمة. عندها يحتسي كل ضيف رشفة من الكأس ويمررها لمن هو بجانبه إلى أن يتناول الجميع من «نتاج الكرمة». لا شك عندي في أن تلامذة يسوع شربوا الخمر استناداً إلى هذا الطقس، «ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها *كلهم*[5]».

ولا يكتمل الحديث عن مثل هذه اللقاءات في سورية دون المرور على ***الذكرى***. فمن أعزّ الرغبات عند السوريّ وأعمقها أن يتذكره خلانه لاسيما بعد أن يغادرهم. لهذا نرى أن التعابير من مثل «أني أتذكر»، و «اذكروني»، و «ذكراكم»، و «في ذكرى الأيام الخوالي»، وغيرها، كثيرة وشائعة جداً بين السوريين. فالشاعر العربي يقول ما معناه: «أيها الاصدقاء اذكرونا دائما كما نذكركم فالذكرى تقرب البعيد»[6]:

- O Friends, let your remembrance of us be as constant as our remembrance of you; for such a remembrance brings near those that are far away.

من النادر أن تنتهي سهرة كهذه دون أن يطلب من عزموا على السفر من أصدقائهم أن «يذكروهم كلما التقوا». هذا الرجاء يطلبه الصديق المسافر بأقصى ما يمكن من الود واللطف. وكم يسعده أن يعلم فيما بعد أن أصدقاءه فعلاً يذكرونه، كما فرح بولس ورقصت نفسه شكراً وجذلاً حينما بشّره تيموثاوس «بإيمانكم ومحبتكم وبأن عندكم *ذكراً لنا حسناً كل حين وأنتم مشتاقون أن ترونا كما نحن أيضاً أن نراكم*[7]». إن كلمة «اذكروني» والعاطفة التي تحملها تعني «إني احبكم لهذا أنا دائماً معكم». فإذا أحببنا بعضنا بعضاً لا يمكن أن ننفصل أحدنا عن الآخر. إن ***الذكرى*** هي رباط المحبة بيننا.

أليس هذا ما عناه المعلم بالقول «اصنعوا هذا لذكري[8]» طالباً من تلامذته ألا ينسوا أبداً حبّه لهم وللعالم؟ وأنه طالما يزهر حبه في قلوبهم فهو دائماً معهم، حاضراً في مآدبهم، ومصارعاً معهم لإخراج العالم من الظلمة إلى النور. إن عبارة «اصنعوا هذا لذكـري» مسـاوية لعبـارة «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر[9]».

«وكان متكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه وكان يسوع يحبه[10]». إن وضعية يوحنا، «التلميذ الحبيب»، في هذه العبارة، قد تبدو نابية للذوق الغربي، ولكنها تنسجم تماماً مع العادات السورية. فعديدة هي المرات التي شاهدت فيها مثل هذا المشهد بين أصدقاء رجال، من دون أن يكون في ذلك أدنى خرق لقواعد السلوك.

[5] مرقس 14: 23
[6] مع الأسف لم نستطع ايجاد النص الأصلي باللغة العربية (المحقق)
[7] تسالونيكي الأولى 3: 6
[8] لوقا 22: 19
[9] متّى 28: 20
[10] يوحنا 13: 23

بل إن هذا العمل لطبيعي كالمصافحة باليدين، لاسيما بين الأصدقاء الخُلصاء وهم على وشك الفراق، أو في عشية سفرة بعيدة، أو قبيل مواجهة مصيبة دهماء. عندها يجلس الصديقان ورأساهما متكئان الواحد إلى الآخر، أو رأس الأول متكئ إلى كتف أو صدر الآخر. في هذه الوضعية يخاطب الصديقان أحدهما الآخر بعبارات حميمة لا تحد عاطفتها من مثل «يا أخي»، و «يا عيني»، و «يا روحي»، و «يا قلبي»، و «يا حياتي»، «إن دمي فداك. خذ نور عيني إذا شئت». ينحني الحضور أمام هذه العاطفة ولا يملكون سوى الإعجاب والقول «لله، كم يحب هذان أحدهما الآخر!»، «والله العليّ العظيم انهما أقرب من الأخوة!».

لا غرابة في قول المعلم المدرك لأعمق أسرار الحياة المقدسة، والذي كانت حياته كلها مثالاً للتضحية الحية، لأصدقائه الخلصاء إذ هو يقدم لهم الخبز والكأس «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، و «أشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي[11]». هنا أيضاً نرى الناصري يشحن كلمات الصداقة الاعتيادية بغنى روحاني عز نظيره، ويأخذ من كلام شعبه اليومي ما يُعَبِّرُ به عن أسمى الحقائق الأزلية.

وأود أن أشير هنا إلى اللمسة الفنية التي غير بواسطتها ليوناردو دافينشي من وضعية يوحنا في لوحته، بحيث أزال منها ما يمجّه الذوق الغربي. إنها اللحظة التي يسحب بطرس فيها يوحنا عن صدر يسوع مشيراً إلى التلميذ الحبيب «أن يسأل من عسى أن يكون الذي قال عنه[12]»، أي من سيخونه. في اللوحة الخالدة، نرى يوحنا في وضعيته الهادئة المحبة، رافعاً جسده بعض الشيء ومحنياً رأسه ليستمع إلى بطرس.

أما خيانة يهوذا فإنها ليست ظاهرة شرقية بمقدار ما هي ضعف إنساني عام. فليست الخيانة حكراً على عنصر أو قوم؛ أما الخونة فإنهم آبقون في الأرض. ولكننا في قصة يهوذا نلمس واحداً من ألطف أفعال يسوع وأبعدها أثراً في حياته كلها. فالملم بتقاليد الشرق يدرك أن إعطاء يسوع «اللقمة» لمن سيسلمه كان آية في الجمال وعبرة لمن اعتبر. وطوال وجودي في أميركانيا، لم أسمع واعظاً واحداً يقوم بتفسير هذا العمل، وذلك بسبب جهلهم لمغزاه في الحياة الاجتماعية السورية.

«فَغَمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطي[13]». في الولائم السورية، لاسيما حيث عاش يسوع، يقدم الضيوف «لقمة» للساقي الذي يقف على خدمتهم. ولكن، وبشكل أبعد أهمية بكثير، يتبادل الأصدقاء هذه «اللقمات» فيما بينهم، فيختار الواحد لقمة ويقدمها إلى صديقه دليلاً على الصداقة الحميمة التي تربطهما. إنه لمن غير المعقول أن يفكر شخص بتقديم لقمة طعام إلى شخص لا تربطه به مودة وصداقة.

لاتخطر هذه العبرة في بالي دون أن أفكر بالآية «وتعرفوا محبّة المسيح الفائقة

---

[11] متّى 26: 26 و 28 (المحقق)
[12] يوحنا 13: 24 (المحقق)
[13] يوحنا 13: 26

المعرفة[14]». فيسوع قدم لقمة الصداقة لمن حمل في قلبه وعقله الخطة لقتله، مانحاً إياه الكِسْرَةَ التي لا تقدم لعدو، وكأن لسان حاله يقول: «يهوذا، يا تلميذي إن قلبي مليء بالشفقة عليك. لقد أثبتت عن كذبك وتخليت عني في قلبك. ولكنني لن أعاملك كعدو لأنني قد أتيت لا لأهدم بل لأكمل. هاك لقمة صداقتي». «وما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة[15]».

لقد بقي سلوك يسوع تجاه يهوذا على حاله مما حدا بالإنجيلي للقول «أما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به. لأن قوماً إذ كان الصندوق مع يهوذا ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج إليه للعيد، أو أن يعطي شيئاً للفقراء[16]». بهذا المثل البسيط الذي نادراً ما يلاحظه المبشرون، قد يكون أمامنا أعظم تطبيق للقول «أحبوا أعداءكم» في البِشارة كلها.

لاعجب في أن كاتب إنجيل يوحنا يقول في معرض حديثه عن يهوذا «فبعد اللقمة دخله الشيطان[17]». إذ كيف يعقل لمن كانت الخيانة في قلبه أن يتناول من هدية الصداقة الحقّيقية ولا يتحول هو نفسه إلى روح الخيانة؟

أما قبلة الخيانة التي سلم بها يهوذا المعلم في جتسيماني، فقد كانت إساءة استعمال لتقليد سوري عريق وواسع الانتشار. فحين السلام، لاسيما بعد طول غياب، يتبادل الذكور من الأصدقاء السوريين الذين هم من الطبقة الاجتماعية نفسها القبلات على الخدين، وبشكل فيه الكثير من المبالغة والصخب في بعض الأحيان. أما إذا لم يتساويا بالرتبة، فإن الأدنى يقبل يد الأعلى فيما يتظاهر الأعلى بتقبيل صديقه ذي الرتبة الأدنى على الخد. هكذا فعل داود ويوناثان «قبَّل كل منهما صاحبه وبكى كل منهما مع صاحبه حتى زاد داود[18]». أما وصية بولس «سلموا بعضكم على بعض بقبلة مقدسة[19]»، والتي يتجاهلها المسيحيون الغربيون، فهي أمر شرقي بالضرورة.

لقد طالما شعرت وأنا طفل بإعجاب وتبجيل عميقين لمظاهر العاطفة البدائية الجياشة حين «يهوي رجلان أحدهما على عنق الآخر»، ويتبادلان القبل، في حين تغرورق عيون النسوة بالدموع. لقد كانت عبارات المجاملة سريعة الإيقاع، التي يقطعها صوت تبادل القبلات، تبدو لي كخليط من الموسيقى الناشزة والغناء.

وهكذا، فإن يهوذا حين « تقدم إلى يسوع وقال السلام يا سيدي. وقبَّله[20]»، لم يستنبط علامة جديدة يدل بها الجنود الرومان على يسوع، بل استعمل تقليداً قديماً ليحقق مخططاً شريراً. لقد مجَّد يسوع التقاليد العامة لشعبه عندما استعملها كأدوات للمحبة، أما يهوذا فحقّرها باستعمالها كأسلحة للحقد.

[14] إفسس 3: 19 (المحقق)
[15] يوحنا 13: 27 (المحقق)
[16] يوحنا 13: 28، 29
[17] يوحنا 13: 27
[18] صموئيل الأول 20: 41
[19] رومية 16: 16 (المحقق)
[20] متّى 26: 49

الفصل السابع

المشهد الأخير

ربما لايكون في الإنجيل كله فصل تظهر فيه الخصائص الأساسية للنفس الشرقية كما تظهر في المشهد الأخير لحياة المعلم. إن العالم مدين لأجمل وألطف المقاطع في الإنجيل لخاصية *الاتكالية* عند الشرقيين، والتي تظهر بأوضح صورها في ذلك المشهد الأخير.

سبق وذكرت ان الشرقي لا يخشى إظهار مشاعره أو إطلاق العنان لعاطفته سواء في حالات الفرح أو الحزن. أما الأنغلوساكسوني، فمن طبيعته أن يتألم بصمت، وأن يقتل إذا اضطر لذلك من دون أن يرفّ له جفن. إنه يأنف عن طلب الشفقة، وهو مقتنع، بسبب ميوله الفردية الجامحة وروحية الثبات لديه، أن «باستطاعته الاهتمام بنفسه». في السنين الأولى التي أمضيتها في هذه البلاد، كان تمالك الأميركانيين لأنفسهم في حالات الحزن والخطر وحتى حالات الفرح أمراً مدهشاً بل ومروعاً. في ذلك الوقت لم أكن قد تعرفت بعد إلى تلك النيران المتأججة في داخلهم، أو المشاعر القوية الكامنة التي يبقونها تحت سيطرتهم التامة. بل أنني كنت، كسوري حديث العهد في أميركانيا، غالباً ما أشك في وجود أية مشاعر لديهم على الإطلاق.

ليس في نيتي إجراء دراسة نقدية مقارنة بين هذه الخصال المتناقضة. ولكنني أستطيع الإعلان، وبغض النظر عن المحصلة النهائية، أن الشرقي، وبالدرجة الأولى،

هو شخص يتعطش للعطف ويتوق بشكل علني وصريح إلى الرفقة، ويبحث عن المساعدة والدعم من الخارج. وبغض النظر عن الأذى الذي قد تسببه هذه الخاصيّة، فإنها كانت السبب الأول الذي جعل منه المعلم الديني للعالم قاطبة. إن اعتماده على الله هو الذي أوحى بالمزمورين 23 و51 [1] والذي جعل من الصلاة الربانية الدعاء العام للعالم المسيحي. أما حاجته إلى الصحبة، الإلهية والبشرية، فهي التي أوحت له بالوصية العظيمة «أحبب الرب إلهك من كل قلبك وأحبب قريبك كنفسك». في ضوء هذه الميزة الأساسية الشرقية علينا النظر إلى عبارات يسوع أثناء العشاء الأخير وفي جثسيماني. فالسجل ينبئنا بأنه قال لتلاميذه: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم[2]»، و «نفسي حزينة حتّى الموت»، و «الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني»، و «هذا هو جسدي... هذا هو دمي... اصنعوا هذا لذكري». يجب البحث عن الإطار الصحيح لهذه العبارات، ليس فقط حيث قيلت في عليّة صهيون، بل في أعمق النزعات التي ينزع إليها العقل الشرقي.

أما الذروة في موضوع البحث فنجدها في تلك الساعة الحالكة في جثسيماني، ساعة العذاب الشديد، والابتهال الحار، والانتصار النهائي في خضوع يسوع لمشيئة الآب. إن الوصف الذي يرد في الإنجيل لتلك الساعة يمثل نزعة الشرقي إلى المبالغة أصدق تمثيل. «وإذ كان في جهادٍ كان يصلي بأشد لجاجة وصار عَرَقَهُ كقطرات دم نازلة على الأرض[3]».

إن واقعية هذا الوصف ودقّته المؤثرة تعطيان الدليل على أن النفس السورية تستجيب ببراءة لمشاعر الحزن الناتج عن تجربة محزنة معينة بما لا يقل عن التجربة بحد ذاتها. وعلى ما يبدو لي، فلو أن معلماً أنغلوساكسونياً مرّ بظرف مشابه تعذب فيه بحيث «صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض»، وأراد مؤرخ غربي وصف المشهد، لاكتفى بالقول رغبة منه في صون كرامة جنسه، إن معـــلمه كان «متأثراً جداً»!.

ويشتد المشهد ظلمة. «ثم أن يسوع أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب فقال لهم نفسي حزينة جداً حتّى الموت... امكثوا ههنا واسهروا معي[4]». ثلاث مرّات أعاد المعلم العظيم هذه الصلاة التي لا مثيل لها، والتي تثبّت، بروحية الخوف والثقة التي تحملها، العقيدة القائلة بإنسانية اللّه وألوهية الإنسان، المعبرً عنها في شخص المسيح: «.. يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذا الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت[5]».

---

[1] اللذان يبدأن بـ«الرب راعيّ فلا يعوزني شيء» و «ارحمني يا الله حسب رحمتك»، على التوالي. (المحقق)
[2] لوقا 22: 15
[3] لوقا 22: 44
[4] متّى 26: 37-38
[5] متّى 26: 39

إن التباين الحاد بين المزاج السامي والمزاج الأنغلوساكسوني دفع بعض الناقدين المغرضين إلى القول «إن يسوع، وبكل بساطة، انهار حين حلت الساعة الحاسمة». أجد في هذا الزعم إساءة كلية لفهم الحقائق انطلاقاً من معرفتي بمزايا شعبي الخاصة، التي تجعل مني شبه مرجع في هذا الموضوع، وتعطي لرأيي أحقية فيه.

فحقيقة الأمر، وبكل بساطة، هي أن يسوع، سواء في جثسيماني أو طوال مدة رسالته، لم يكن في موقع من يلعب «دور البطل». فرفاقه كانوا أصدقاءه الأرضيين المخلصين وأباه الذي في السموات. وقد تكلم معهم كما يتكلم أي شرقي مع أحبائه، بصدق مشاعره ومن دون أي تمويه أو رياء. لقد كان له من حبِ رفاقه، وحب أبيه الذي في السماء، معين ينهل منه في ساعة الشّدة من دون أي تحفظ. كم يكون عالمنا هذا أفضل وأسعد لو أننا نتعاطى مع بعضنا بعضاً ومع اللّه بمثل محبة المسيح البسيطة الصافية.

إن حياة المسيح وكلماته تقدمان الدليل على أن الشرقي لم يُخلق ليُعلّم العالم العلم والمنطق وفلسفة التشريع، بل ليعلّم إيماناً محباً للّه وبسيطاً كبساطة الأطفال. لهذا فقبل أن نتمكن من فهم المعلم بصفته المسيح الكوني، علينا أن نعرفه ونفهمه كالمسيح السوري أولاً.



«المسيح السوري» كما تخيله الفنان الياس زيّات




ABU ABDO ALBAGL

القسم الثاني

أسلوب الكلام الشرقي


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الأول

لغة الكلام اليومية

إن الشرقيَّ الذي أتكلم عنه هو الساميُّ القاطن في الشرق الأدنى، والذي ترك أثراً كبيراً في حياة الغرب وآدابه، لاسيما بالإنجيل. هذا الشرقي اكثر عاطفية وعصبية وأقدر تعبيراً من أبناء عمه في الشرق الأقصى. ومع أنه قد بلغ من العمر عتياً، فانه صبياني الخلق وأسلوبه في المخاطبة حميم وطليق.

منذ الزمن الغابر وحتى اليوم، كان أسلوب الشرقي في المخاطبة أسلوب متعبدٍ لارجل أعمال أو عاملاً في مصنع بالمفهوم الغربي للعبارة. فالحياة بالنسبة إلى السوري اليوم، كما كانت على أيام أجداده، تتمحور حول الدين. هذا لا يعني أن دينه لم يتأثر بالقيود العشائرية، ولم تلفه حجب الخرافات. ولا يعني أيضاً انه امتلك أو مارس وعياً عميقاً لقدسية الحياة الإنسانية. ولكنه يعني أن هذا الإنسان، سواء أكان رزيناً أم حانقاً، عاملاً أم لاهياً، مصلياً أم شاتماً،لم يكف لحظة عن الإيمان بأن جميع أعماله تطغى عليها قدرة اللّه الكلية. إنه لا يكفّ عن الصراخ «يا رب قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمت فكري من بعيد. مسلكي ومربضي ذرّيت وكل طرقي عرفت. لأنه ليس كلمة في لساني إلا وأنت يا رب عرفتها كلها. من خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت عليَّ يدك. عجيبة هذه المعرفة فوقي ارتَفَعَتْ لا أستطيعها[1]».

[1] مزامير 139. 1-6

من أهم الحقائق في تاريخ الإنسانية أن الشرقي، بصرف النظر عن قيوده الفكرية ومخاوفه من الخرافات، بقي الوسيط لأرقى التجليات الروحانية التي عرفها الإنسان بسبب إيمانه المطلق بأن مذبح الله هو نقطة الدائرة في الحياة، وأن الله الحي هو الذي يرسم له مساره.

إن التاريخ هو السجل لرغبات الأقوام وإنجازاتهم؛ لطلباتهم وما يستجاب لهم. فقانون التعويض يقول منذ أقدم العصور «فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً[2]»، و «من يزرع بالشّح فبالشّح أيضاً يحصد. ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضاً يحصد[3]». في عالم المادة، لم يزرع الشرقي سوى القليل، ولم يحصد سوى القليل. فهو لم ينجز الكثير في نواحي العلم والصناعة والتجارة. وكعامل صناعي، لم يتطور في تاريخه الطويل عن استعمال الآلات اليدوية. ولم يدرك، قبل احتكاكه الأخير بالغرب، ما هو الفولاذ وما هي الآلة. أما في التجارة، فهو لم يتعدّ المبادلة البسيطة. ولم يخترع الشرقي اختراعات عديدة، بل أدّى تكراره الرتيب للماضي إلى عدم خلق هوة زمنية بينه وبين أجداده الغابرين. فالأدوات التي يستعملها اليوم هي كتلك التي استعملها أجداده في زمانهم.

إن الدين هو خيار الشرقي الأول. والقول أن هذا الخيار لم يكن خياراً واعياً بمقدار ما كان ناتجاً عن طبعه، لا ينتقص من أهميته على الإطلاق. فمنذ أن خُلق الشرقي على هذه الأرض من آلاف السنين وهو على يقين من حقيقتين لا جدال فيهما: الله والروح. فهو يعتبر أن مهمته الأولى، إن لم نقل الوحيدة، هي إقامة أقوى العلاقات بين الله والروح. فـ «مخافة الله»، والمقصود بها محبة الله وتبجيله، هي بالنسبة إلى الشرقي «*رأس الحكمة*» وليس «بدايتها» كما هو مذكور في الإنجيل الغربي. فالشرقي يهتم بالدرجة الأولى أن يتعلم أولاده أنهم أرواح حية، وأن الله هو الخالق والأب لها. في الشرق، يُعتبر الملحد ظاهرة عجيبة. وأنا لم اسمع بالإلحاد ولم أتعرف إلى ملحد قبل اتصالي بأشخاص غربيين في وطني الأم.

إن السنوات العديدة التي أمضيتها متفاعلاً مع الحياة الغربية المنوعة والمعقّدة لم تخفف إطلاقاً من تبجيلي للدين، ولكنها لم تنقص من تقديري للثقافة. فالثقافة تقدم القوة والاتساق للفكر الديني، والدين يعطي الثقافة حياة وجمالاً. وكما اعتقد بأن الصلاة من دون انقطاع ضرورية للإنسان، كذلك اعتقد بأن من أول واجباته ممارسة إيمانه الديني بانفتاح وتحرر وذكاء.

غير أن تاريخ الشرق يدفعني للاعتقاد بأن التربة التي تنبثق منها الكتابات المقدسة هي تلك التي تتعاطف حياتها مع الدين بغض النظر عن مستوى التحصيل العلمي. فحين تتشبع الطبيعة الإنسانية بهذا التعاطف، تصبح على استعداد لاستلام

[2] غلاطية 6:7
[3] 2 كورنثوس 9:6

الأفكار الموحية للنصوص المقدسة ونشرها. إن للتجارة والصناعة منافعهما، ولكن الوسط التجاري والصناعي لا يوحي بإنتاج الكتب المقدسة. فحين تتمركز اهتمامات الحياة الرئيسية في المسائل الخارجية، يصبح الدين أحد هذه الاهتمامات وقد يكون اقلها شأناً.

يعيش الشرقي في عالم من الألغاز الروحانية. فسواء أكان خائفاً أم مطمئناً، مؤمناً بالخرافات أم عقلانياً، يبقى الله بالنسبة إليه كليَّ القدرة الموجود في كل مكان. «خوف الرب نقي ثابت إلى الأبد. أيضاً عبدك يُحَذّرُ بها وفي حفظها ثواب عظيم[4]». وبالفعل لقي ابن الشرق أعظم ثواب له؛ إنه المعلِّم الديني للإنسانية جمعاء. لقد انطلقت جميع الأديان العظيمة الحية من آسيا. ولكن الثلاثة الأعظم بينها، اليهودية والمسيحية والمحمدّية، جاءت إلى العالم عبر العِرق السامي في تلك البلاد الصغيرة التي اسمها سورية. إن توق الشرقي الدائم للأحلام والرؤى الروحانية جعلته ينال الثواب الذي يستحق؛ لقد زرع الكثير وحصد الكثير.

أنظر إلى لغة السوري في خطابه اليومي: إنها إنجيلية في الصميم؛ فليس للسوري من لغة *علمانية*. فالفاصل الحقيقي الوحيد بين كتبه المقدسة ولغته اليومية هو الفاصل ما بين اللغة الفصحى وتلك العامية. فحين تسأل السوري عن أشغاله لا يجيبك «الأشغال على ما يرام حالياً»، بل يقول: ***الله منعِم***. وحين يهم أحدهم بالسفر لا يقال له «انتبه إلى نفسك جيداً»، بل «اذهب في أمان الله وحمايته». لقد كنا نُدرّب منذ طفولتنا بالعبرة والتلقين على مثل هذا النمط من المخاطبة. فالداخل إلى بيت أحدهم يقول «صبّحك الله بالخير»، أو «سلام الله عليك». ألم يرد في الفصل العاشر من بشارة متّى «وحين تدخلون البيت سلموا عليه. فإن كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقاً فليرجع سلامكم إليكم[5]»؟.

حين نحيي عاملاً أثناء عمله نقول له: ***الله يعطيك العافية***، وفي تحيتنا للحصّادين (جامعي الزود) في الحقل، أو في كروم العنب أو بساتين الزيتون، لم نُزِد على كلام بوعز في سفر راعوث حين جاء من بيت لحم وقال للحصّادين: «الرب معكم. فقالوا له يباركك الرب[6]»، أو على ما ورد في المزمور «بركة الرب عليكم[7]». ولعل اللعنة المهلكة الواردة في المزمور التاسع بعد المائة والعشرين تعود إلى استعمال مثل هذه التقاليد اللغوية «فليخز وليرتد إلى الوراء كل مبغضي صهيون. وليكونوا كعشب السطوح الذي يَيْبَسُ قبل أن يُقلع. الذي لا يملأ الحاصد كفّهُ منه ولا المُحزِّم حِضْنَه. ولا يقول العابرون بركة الرب عليكم. باركناكم باسم الرب[8]».

---

[4] مزامير 19: 9، 11

[5] متّى 10: 12

[6] راعوث 2: 4

[7] مزامير 129: 8 (المحقق)

[8] مزامير 129: 5-8

عند سؤال الراعي عن قطيعه كنا نقول «كيف حال المباركين؟». وإذا سألنا والداً أو والدة عن الأولاد قلنا «كيف المحروسين؟». إن اللّه يحرسهم بـ «ملائكته» الذين تكلم المعلم عنهم بقوله: «انظروا ولا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأني أقول لكم إن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات[9]». في كلامنا عن رجل خيِّر كنا نقول «نعمة اللّه مسكوبة على وجهه». وهكذا في كتاب الأمثال «بركات على رأس الصدّيق[10]».

ثمة العديد من التعابير المشابهة لما تقدم. فحين يود سوري القيام من وضعية الجلوس (التربّع)، فانه يستعمل يده اليمنى لحفظ التوازن ويقفز إلى الأمام قائلاً: ***يا اللّه***. وإذا أراد الاستفهام عن طبيعة شيء ما يقول: «**شو دينو**» (مادِينُهْ)؟ أما من أغرب التعابير التي سمعتها فهو وصف الماء الذي يغلي في إبريق بأنه ***كافر***. ولعل القارئ ينتبه هنا إلى أن إقامة الرابط بين الكافر والحرارة الشديدة لا يقتصر على الديانات القديمة.

وهكذا فان هذه اللغة الدينية هي لغة المخاطبة اليومية عند الشرقي. ولقد ذكرت في كتابي عن سيرة حياتي أن الرجال الذين كان والدي يستخدمهم معه بالأجرة في مهنة العمار، كانوا يُصنّفون حسب مِللهم. فكان هناك عدد من الدروز وعدد من الروم الأرثوذكس وعدد من الموارنة، وهلم جرا.

قد ينظر البعض باستحسان إلى الامتناع شبه الكامل عن استعمال لغة «التقوى» في الخطاب العملي والثقافي في أميركانيا. ولكنني أرى في هذا تسليماً تاماً لشؤون الروح إلى الجسد، واعتبار جوهر المسائل الأبدية في مرتبة أدنى من جوهر المسائل الزمنية. وبتقديري فإن ثقافة الغرب المتفوقة قادرة على استعمال المفردات الدينية بشكل أسمى وأكثر تناغماً مع بقية أنشطة الحياة مما استطاعه الشرق لهذا التاريخ، عوضاً عن حصر استعمالها في ساعة من العبادة الرسمية نهار الأحد والتخلي عنها في بقية أيام الأسبوع.

---

[9] متّى 18: 10

[10] أمثال 10: 6

الفصل الثاني

اللعنــــات

إن اعتبار الشرقي للحياة على أنها دينية بالأساس يجعله ورعاً في لعناته وشتائمه كورعه في صلواته وابتهاله. فالله هو المنتقم الأعظم، وانتقامه أكبر بكثير من كل خداع الإنسان وقوته وانفعالاته. «لأنه مكتوب لي النقمة أنا أجازي يقول الرب[1]»، «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي. أنا أُميت وأُحيي. سَحَقْتُ وإني أشفي وليس من يدي مُخلِّص[2]».

منذ ما قبل الزمن التاريخي الجلي، انتقلت هذه المبادئ إلينا في الشرق، ومن جيل إلى جيل عبر الكهنة والأهل الذين تعبوا لتلقيننا إياها. ولكننا، كبشر ضعفاء، غالباً ما نريد الانتقام بأنفسنا. من هنا نرى أن فكرة ***الثار*** (الثأر) تقطن في أعماق نفسية الشرقي. ولكن انتقامنا مهما عَظُم، فانه لا شيء يذكر بالنسبة إلى انتقام الله من أعدائنا الظالمين «الكفّار».

إن اندفاع الشرقي ومبالغته في أدعيته ولعناته، يجمدان الدم في عروق الأميركاني الذي لم تتعود أذناه سماع مثلها. وأعترفُ أنني أثناء زيارتي الأخيرة إلى سورية، تضايقت كثيراً من اللعنات والدعوات التي كان يقذفها بنو قومي (وبنات قومي بشكل خاص). فحين يقصف السوري خصمه شفهيا يرميه بقذائف من عيار «الله يحرق عظام آبائكم»؛ «الله يقطع بذركم عن وجه الأرض»؛ «الله ***يقطع رزقك***»؛ «ليته لا يعود لديك سوى الأرض فراشاً والسماء لحافاً»؛ «يتّم الله أولادك ورمّل زوجتك»؛ ومثلها الكثير.

[1] رومية 12: 19
[2] تثنية 32: 39

ألا يبدو هذا الكلام قريباً جداً من المزمور التاسع بعد المائة «لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر. ليكن بنوه أيتاماً وامرأته أرملة. ليَتِه بنوه تيهاناً ويستعطوا. ويلتمسوا خيراً من خِرَبِهم. ليصطد المرابي كل ما له ولينهب الغرباء تعبه. لا يكن له باسط رحمة ولا يكن مترأف على يتاماه. لتنقرض ذرِّيَتَهُ. في الجيل القادم لِيُمْحَ اسمهم[3]».

إنها لحقيقةٌ محزنة أن الشرقي دائماً يعتبر أعداءه أعداءً للّه أيضاً ومصيرهم هو الدمار. ومثل هذه المشاعر يشوّه جمال العديد من المزامير. فأعداء الإسرائيليين كانوا يُعتبرون أعداء لرب إسرائيل، وأعداء عائلة سورية يعتبرون أعداء لشفيع تلك العائلة. ففي ذلك النص الرائع للمزمور التاسع والثلاثين بعد المائة، يصرخ المنشِد: «ليتك تقتل الأشرار يا اللّه. فيا رجال الدماء ابعدوا عني. الذين يكلمونك بالمكر ناطقين بالكذب هم أعداؤك. ألا أبغض مبغضيك يا رب وأمقت مقاوميك. *بغضاً تاماً أبغضتهم. صاروا لي أعداء*[4]». بَيْدَ أن هذا الحاقد بغيرة على أعدائه لا يلبث أن يلتفت إلى اللّه في الآية التالية ويقول: «اختبرني يا اللّه واعرف قلبي امتحنّي واعرف أفكاري. *وانظر إن كان فيَّ طريق باطل* واهدني طريقاً أبدياً[5]».

إن هذا المزيج من التقوى والكراهية الذي يُطلق ببساطة كلية وبحسن نيّة، لهو خاصية سورية. فغالباً ما كنا نسمع مثل هذه الدعوات في حَيِّنا، وأثناء المعارك والنزاعات العشائرية في سورية. ولدى التضرّع بمثل هذه الدعوات، يضرب الأشخاص على صدورهم ويحسرون عن رؤوسهم علامة على إخضاع قضيتهم إخضاعاً تاماً لمنتقم كليِّ القدرة. هل السوريون على هذا القدر من القسوة وغلاظة القلب كما تدفعنا هذه اللعنات إلى الاعتقاد، لاسيما إذا قرأناها في أحرف باردة صماء؟ الجواب طبعاً لا. وإني لعلى ثقة انه إذا حدث وتيتّم أبناء العدو بسبب هذه اللعنات، فإن الذي استنزل اللعنات يكون في طليعة من «يعطف» عليهم. فإذا ما أبقى القارئ في ذهنه أن طبع الشرقي صبياني بالضرورة، وأن عادته الالتجاء إلى اللّه في كل الظروف ومن دون أي تحفظ، تماماً كما يلجأ الطفل إلى والده، فإن حكمه على ابن فلسطين لا بد وان يكون مخففاً.

إن ما يشفع بهذه الدعوات واللعنات كونها بمثابة صمّام أمان للشرقي، فهو أشد قسوة بكلماته منه في أفعاله. فالشرقيون يتشاجرون كثيراً ولكنهم قليلاً ما يتقاتلون. فبعد الوقت الذي يمضيه غريمان في التشاتم والسباب، تبرد حرارتهما، ويصار إلى تفادي نتائج أوخم بكثير. أما الأنغلوساكسوني فقد تجاوز هذه المرحلة، ونظامه الاجتماعي القائم يستعمل وسائل اكثر تطوراً لفض النزاعات، كما أنه لا يملك الوقت ليهدره على الكلام المجرد. ولكن، وكما يبتسم الغربي لدى مرأى شجار الشرقيين، فإن الشرقي ليقشعِرّ بدنه للسهولة والسرعة اللتين يلجأ فيهما الغربي إلى قبضته أو مسدسه. الاثنان معاً يحتاجان إلى نعمة الرب».

[3] مزامير 109 8
[4] مزامير 139 19-22
[5] مزامير 139 23

الفصل الثالث

محبة الأعداء

من الفصل السابق، يتضح لنا كيف فتح يسوع أعماقَ أعماقِ الحياة الروحانية لأبناء شعبه المنقسمين عشائرياً بشكل ميئوس منه، حين أوصاهم بمحبة أعدائهم. فالذي علّم «كمن له سلطان وليس كالكتبة»، استوعب قوة المحبة الإلهية ومدى فعلها كما لم يستوعبها إنسان. ففي مثل هذا المبدأ الخالد (محبة الأعداء) يبدو لنا انفلاته من قيود زمانه وبيئته، وتتجلى لنا ألوهية طبعه. فمعرفته بالآب كانت حميمة وخلوده إلى محبته كاملاً بحيث أمكنه القول بحقٍ: «أنا والآب واحد[1]».

«سمعتم أنه قيل تحب قريبك[2] وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات[3]».

هذا هو قلب البشارة وروحها والقوة الديناميكية لدعوة يسوع القائمة على التصالح والوئام. غير أن الأمر «بمحبة الأعداء» يشكل للعديد من المسيحيين الورعين، بالإضافة إلى بعض الناقدين المعادين للعهد الجديد، ما يمكن وصفه بالعقدة المستعصية. فأحد الواعظين «المستقلين» في مدينة غربية أعلن لرعيته بعد

[1] يوحنا 10: 30
[2] في الإنجيل الغربي تستعمل كلمة «جارك، Thy neighbour» وقد أشار المؤلف إلى كون الأصل العربي هو كلمة «quarib=kinsman» (المحقق)
[3] متّى 5: 43-45

أن قرأ لهم تلك الفقرة من الموعظة على الجبل، أن موعظة يسوع العظيمة يجب تسميتها «المسخرة على الجبل». أليست محبة الأعداء أبعد منالاً من قدرة الطبيعة البشرية؟

إن هذا السؤال وثيق الصلة بموضوعنا. فالحقيقة التي لا جدال فيها هي أننا لا نستطيع أن نحب استجابة لأمر أو قياساً إلى طلب. إن هذا الانسياب الخفي والغامض للنفس الذي ندعوه حباً ليس من صنعنا؛ وبالتالي فلا نستطيع أن نقرر إرادة الحب. غير أن لهذا البحث مكاناً آخر. ما بودي تقديمه هنا هو شرح لغوي أعتقد بأنه سيضيء العديد من جوانب هذه الوصية العظيمة.

إن كلمة «الحب» (Love) تعبرٍ في الغرب عن مفهوم اختصاصي التحديد خلافاً لما هي عليه في الشرق. ففي معناها الصحيح باللغة الإنجليزية، لا تفيد هذه الكلمة سوى معنى الشعور بالغرام المتَّقد الذي لا يمكن خلقه بالإرادة أو بالتصميم. ففي الغرب أُعفيت كلمة «حب» من عناء التعبير عن بعض المشاعر الأخرى الأقل اتقاداً كـ «الود»، أو «حسن النية تجاه شخص ما»، أو «أن يشعر المرء بارتياح لشخص ما».

لا نجد مثل هذا التفريق في الشرق. فكلمة (Like) والتي تعني «أن يميل بارتياح إلى»، غير موجودة في الإنجيل ولا مرادف لها في اللسان العربي. لقد استعملت هذه الكلمة في النسخة الإنجليزية من الإنجيل في موضعين ولكن الترجمة جاءت خاطئة. ففي تثنية 7:25، نقرأ ما يلي: (If the man *like* not to take his brother's wife) فالكلمة التي يجب استعمالها هي «يرضى» كما يرد في النص العربي للآية نفسها. «وان لم يَرضَ الرجل أن يأخذ امرأة أخيه[4]». كذلك الأمر في عاموس4:5 (For this *liketh* you, O ye chilren of Israel) ففي الاصل العربي نقرأ «لأنكم هكذا ***أحببتم*** يا بني إسرائيل»، وفي أي فهرس أبجدي للإنجيل نرى الفعل العبراني (أحب) يسبق هاتين العبارتين.

وهكذا، فالكلمة الوحيدة التي يمكن للشرقي أن يعّبر بها عن أي ميل قلبي إلى الاطمئنان، هي كلمة «حب». فالمرء يحب زوجته وأولاده، ويحب العنب والتين واللحم إذا مال إلى أي من هذه المأكولات، ورَبُّ العمل قد يقول للعامل «باستطاعتك، إذا أحببت، أن تعمل عندي وفق هذه الاتفاقية». وليس بالأمر الغريب أن يقول امرؤ لأحد معارفه «يجب علي القول ***يا صاحبي*** إني احبك». لا أدري ما هي العبارة العربية التي تعطي معنى عبارة (I am interested in you) بالإنجليزية، ولكن «الحب» و«البغض» هما العبارتان المستعملتان عادة للتعبير عن الرضى أو عدمه، بالإضافة إلى مشاعر الحب والبغض الحقيقيين.

هناك العديد من النصوص في الإنجيل التي تقدم المثال على ما نقول. ففي

[4] تثنية 7.25

الرسالة إلى أهل رومية نقرأ «كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو[5]». إن الله لا «يبغض»! وكلمتا «أحببت» و «أبغضت» هنا لا تعنيان أكثر من «رضيت عن» و «لم أرض عن»، كأن نقول مثلاً أن الأب راض عن تصرف أحد أولاده وغير راض عن تصرف الآخر. مثل آخر على استعمال كلمة «الكراهية» نجده في سفر التثنية: «إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لِبَنيهِ ما كان له لا يحل له أن يقدّم ابن المحبوبة بِكراً على ابن المكروهة البكر بل يعرفُ ابن المكروهة بِكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية[6]». نستنتج من هذه العبارة أن المقصود هو التفريق بين الزوجة التي كانت «المفضلة» وتلك التي لم تكن. فليس هناك ما يلزم الزوج أن يعيش مع زوجة يكرهها حين يكون بمقدوره أن يطلّقها بسهولة وفق الشرع اليهودي ويتزوج من غيرها. إن الكراهية التي يشعر بها الواحد ضد عدو أو ظالم لا تنطبق على المعنى المقصود هنا.

نجد مثلاً آخر في الإنجيل على الاستعمال الشائع لكلمة «حب» وذلك في قصة الرجل الغني في بِشارة مرقس. «وفيما هو خارجٌ إلى الطريق ركض واحد وجثا له وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله. أنت تعرف الوصايا. لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد الزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك. فأجاب وقال لهِ يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد..[7]»؛ إلى نهاية النص. على ما يبدو، فان هذه المحادثة القصيرة دلت يسوع على أن سائله مهذب وذكي فمال أو ارتاح إليه The Master liked him

أما في يوحنا 15، فيختلف استعمال يسوع لكلمة «حب» اختلافاً كبيراً عمّا ورد أعلاه. «كما أحبَّني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي. هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم[8]». في هذا السياق، تُستعمل كلمة «حب» في أصفى وأصدق معانيها.

من كل ما تقدّم نستخلص أن المعلم الشرقي العظيم، حينما قال لبني قومه الذين كانوا يعتبرون كل العشائر الأخرى عدوة لعشيرتهم، «أحبوا أعداءكم»، فإنه لم يكن ليطلب منهم أن يتيّموا بحبهم، بل أن يعاملوهم بحسن النية. ليس بمقدورنا أن نحب بالإرادة أو بالتصميم، ولكن بمقدورنا أن نقرر معاملة الآخرين بالحسنى، حتى لو عرفنا انهم يضمرون لنا سوء النية. إن الذين يعتقدون باستحالة مثل هذا الأمر لا يعطون الدليل على «ثاقب تحليلهم» للأمور بمقدار ما يقدمون الدليل على أنهم

[5] رومية 9:13
[6] تثنية 21:15
[7] مرقس 10:17
[8] يوحنا 15: 9.12

مايزالون في الدرجات الأدنى على سلم تطور البشرية.

وأُضيف أن كلمة «حب»، سواء استعملت بشكل عام أو اختصاصي، فإنها تصف «الشيء الأعظم في العالم». فحين قال معلم فنّ الحياة «أحبوا أعداءكم» فإنه كان يستحث العقل الإنساني لأن يأخذ بأسمى القوانين الإلهية لتقدم البشرية. ولكن الانصياع لهذا القانون يبدو للعديدين وكأنه أمر بعيد عن متناول الإنسانية. فإذا نُصِحتَ بمحبة أعدائك، فانه لمن المرجح أن تفكر بأكثر الناس لؤماً وخساسة، وتتساءل بينك وبين نفسك: كيف لي أن أحب مثل *هذا* الشخص؟ ولكن القانون الذي يريده المعلم يتجاوز بكثير مثل هذا التحديد الضيق للحب، كما أن معانيه العميقة، متى أُدركت أبْعَادُها، تجعل من هذا التصور للحب تصوراً ساذجاً وسطحياً. إن هذا القانون لا يمكن إدراكه في عالم المحسوسات بل في عالم المثل العليا الدائمة.

في هذا العالم ثمة قوتان: الحب والكراهية. الكراهية تدمر أما الحب فيبني؛ الكراهية تؤذي أما الحب فيبرئ؛ الكراهية تُمرُّ الحياة أما الحب فيحلّيها؛ الكراهية إلحادٌ أما الحب فتقوى. من هنا لا يعود السؤال الأساسي ما إذا كان هناك أشخاص لا يمكنك محبتهم، بل لأي من هاتين القوتين تريد أن تسلم قياد نفسك وقياد الإنسانية: الحب أم الكراهية؟ أي نوع من الغذاء تريد لروحك وأرواح القريبين والأعزاء إليك: أغذاء الحب أم البغض؟ هل يمكن أن يكون هدفك في الحياة دعم تلك القوة التي تؤذي وتدمر وتُمرُّ الحياة وتُبعِدُ عن الله، أم دعم القوة التي تبرئ وتبني وتحلّي الحياة وتقرب من الله؟

قد تقول أن أذيّة أصابتك وآلمتك بسبب مخططات السوء من آخرين، وها شعور من الكراهية يدفعك لطلب الانتقام. ولكن أية قوة دفعت للتخطيط بالسوء ضدّك: الحب أم الكراهية؟ الكراهية. إنك تحب محبة الآخرين لك وتطلبها، بل وتجعلها مثالاً أعلى، فالحب يمنحك الشعور بالهناء وليس الألم. من تجربتك الخاصة تدرك أن ثمار الكراهية مرّة وثمار الحب شهية المذاق. فهل تريد يا ترى أن تمنح حياتك لقوة الكراهية فتزيد من قوتها بين الناس وتكثر من ثمارها المرّة السامة في العالم، أو أن تهب حياتك لقوة الحب التي تحبها، والتي ثمرتها السعادة والسلام؟

هذا هو إذاً قانون الحب الذي وضعه المعلم: هب حياتك وخدمتك للقوة التي تستحق احترامك الأسمى وتستحث أصفى عواطفك، بغض النظر عن «الشريرين وغير المستحقين». لا تعترف بأحد كعدو لك فلا يكون لك أعداء. إن القوة الوحيدة التي تستطيع أن تتغلب على خطط الكراهية هي الحب. إن زَبَدَ الكراهية وأبخرة الانتقام تختفي مع حامليها ولا يبقى سوى الحب، القوة الخيِّرة الحاكمة إلى الأبد.

عاجلاً أم آجلاً لا بد للشخص الحقود من أن يخسر صفاته الأنبل واحترامه لنفسه واحترام الآخرين له، فلا يبقى له سوى أدنى المراتب الاجتماعية ليحتلها. لهذا أحبب

ولا تكره! ومارس الإحسان حتى مع الذين آذوك.

ربما لاتتمكن من الوصول إلى سريرة الذين آذوك لتحررهم بأفكارك وممارستك المُحِبَّة. ولكن مائة غيرهم سيتعلمون منك عن قانون الحب المحرِّر للنفوس. فليكبر أولادك على معرفتك شخصاً محباً، وليعرفك موظفوك ومواطنوك إنساناً مسالماً وحسن النية؛ كبنّاء وليس كهادم. فلتُفرِح أنغام الحب موقدك، حتّى إذا هبطت عليك ظلال الليل وحان وقت دخولك إلى عالم الأحلام المجهول، تكون الأفكار المحبة رفيقة سفرتك. دعها تسرح إلى أعماق ذاتك وتكون خميرة لحياتك. كن محباً! أحبب حتى أعداءك العميان الضالين.


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الرابع

«الشرقي غير الصادق»

إن مزاج الشرقي القريب من مزاج المراهقين، وإهماله الجزئي للحقائق الثابتة قد دفعا أبناء عمه من الأنغلوساكسون إلى اعتباره بعيداً عن الصدق. «إنك لا تستطيع أن تصدق ما يقوله الشرقي لك»، «إن الشرقيين هم أبناء (أبو الأكاذيب)»، «متى قال الشرقي لك شيئاً، فمن المرجح أن يكون العكس هو الصحيح» ... وهلمّ جرا.

ليس بودي إيجاد المبررات أو التغاضي عن عدم صدق الشرقي، أكثر مما أودّ الاطراء على أخلاقية السياسيين الأميركان إبّان حملاتهم الانتخابية. من دون ريب، يعاني الشرقي أكثر من الأنغلوساكسوني من ذلك البلاء العالمي الذي اسمه اللاصدق، ويحتاج إلى الكثير من كبح جماح خياله وتدريب ملكته العقلية على احترام الحقائق بشكل أفضل. غير أنه لا بد لي من التصريح بأن الفهم الصحيح لأسلوب تفكير الشرقي كفيل بتبديد العديد من الأحكام المجحفة بحق صدقيّته. إن أساليب الشرقي ستبقى مختلفة عن أساليب الأنغلوساكسوني، وإلى حد كبير غير مقبولة منه. ولكن لا بد من إعطاء ابن الشرق الحالم وكاتب النصوص المقدسة تقديراً أكبر لحسن قصده.

ينظر الأنغلوساكسوني باستياء إلى كثرة الأشياء التي يقولها الشرقي دون أن يعنيها. وفي الوقت ذاته، فإن الشرقي يشعر بالأسى لكثرة الأشياء التي يقصدها

الأنغلوساكسوني ولا يقولها. إن السوري حديث العهد بهذه البلاد يجد أن الاقتضاب، لا بل الجفاف، لدى الإنجليزي أو الأميركاني يجرّد الحياة من لذّاتها ويعطي للوقت قيمة أكبر بكثير مما يستحق. فالشرقي يرى أن القيمة الأساسية للوقت هي بالمقدار الذي يصرفه الإنسان في العلاقة الاجتماعية وطلب الإلفة، وليس في طلب المال وإدارة الأعمال. أما في اللغة، فالصورة الشعرية هي السائدة لا الدقة النثرية.

إن كلام الشرقي يعاني من نقص في الدقة الفكرية أكثر مما يعاني من الجنوح الأخلاقي. فعباراته غير الصحيحة هي نتيجة لامبالاة أكثر منها تعمداً للغش. إن إحدى نقائص الشرقي المزعجة هي في نظرته المعبر عنها بقول ***ما بيسايل*** (غير مهم). فهو لا يرى فرقاً كبيراً بين الساعة التاسعة صباحاً أو التاسعة والنصف، أو ما إذا كان الحديث قد تمّ في البيت أو على السطح. المهم هو معرفة أساس الحديث مع أكبر قدر ممكن من التفاصيل. فقد يبالغ المرء أو يختصر في رواية حدثٍ ما، ليس بهدف الخداع بل ليبهر المستمع بأهمية الحدث أو عدم أهميته. فإذا أراد شخص الاستيقاظ مع الفجر ولكنه غرق في النوم مما استدعى إيقاظه بعد ساعة أو نصف ساعة من الموعد المحدد، فإنه يُوقظ على نداء ***قوم صار الظهر***. أما الرجل القوي والشجاع فهو ***يقدّ الأرض***. في مثل هذه الأحوال لا يسيء السوريون فهم المعنى المقصود بل يميزون المغزى.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى العديد من نصوص الكتاب المقدس التي يجب *استخلاص* المغزى من ورائها ومن وراء حرفية عباراتها التي كثيراً ما يتمادى الكاتب الشرقي في المبالغة بها.

«ولما صار المساء إذ غربت الشمس قدّموا إليه جميع السقماء والمجانين. وكانت *المدينة كلها* مجتمعة على الباب[1]». إن السرعة التي يأتي بها الشرقيون الفقراء بمرضاهم إلى أي من يبرئ سواء كان نبياً أو طبيباً لهي مضرب مثل. فبسبب ندرة الأطباء وقلة المال المتوفر لدفع نفقات الطبابة، ما أن يُستدعى طبيب لرؤية مريض حتى يتقاطر إليه المرضى من كل ناحية. كذلك يؤمن الشرقيون بشفاء الأمراض عبر الوسائط الدينية. فإذا قام نبي، فإن أول ما يُتوقع منه هو شفاء المرضى. وفي وقت الشدة، يتجه الناس إلى الطبيب أو الكاهن طلباً للمساعدة. بالنسبة إلى أتباعه، كان يسوع المداوي لعلل الروح والجسد معاً. ولكن فلنتأمل في الحادثة المذكورة أعلاه. المكان هو مدينة كفرناحوم، والنص ينبئنا «أن *المدينة كلها* كانت مجتمعة على باب المنزل» حيث كان يسوع يوزع لمساته المحبة الشافية للمرضى. هل كانت *المدينة كلها* على الباب؟ هل أُتي بجميع المرضى في تلك المدينة الكبيرة إلى المنزل حيث كان يسوع ليشفيهم؟ هذا مستحيل! ولو أن مؤرخ الحادثة كان أنغلوساكسونياً

[1] مرقس 1: 32، 33

لكتب: «تجمَّعَ عدد كبير من الناس على الباب». ولكان هذا الوصف، في أحسن تقدير، صحيحاً.

ولكن الهدف بالنسبة إلى الكاتب الشرقي لم يكن تقدير عدد الحضور الذين وقفوا خارجاً، ولا الإصرار على أنه قد أُتي بجميع المرضى في كفرناحوم إلى بيت سمعان وأندراوس المتواضع. الهدف كان تمجيد المعلم العظيم وعمله الإلهي الرحوم، أكثر مما كان تقديم تقرير مصور عن الظروف المحيطة بالموضوع. إن القول «تجمَّعَ عدد كبير من الناس على الباب» قد يكون صحيحاً، ولكنه بالنسبة إلى الشرقي قول لا طعم له ولا رائحة، بل يفتقر إلى المخيِّلة.

فلنأخذ نصاً آخر. «وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنّا أخاه وصعد بِهِم إلى جبل عالٍ منفردين. وتغيرت هيأته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور[2]». «بعد ستة أيام» من أي تاريخ؟! في الإصحاح السابق (السادس عشر) هناك إشارة عابرة للإطار الزمني العام ولكن دونما تحديد للتاريخ: «ولما جاء يسوع إلى قيصريّة فيلبس، سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس إني أنا إبن الإنسان[3]». وينتهي ذلك الإصحاح بهذه الكلمات العظيمة «فإن من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه[4]». أما الآيتان الأخيرتان من هذا الإصحاح فتَعِدان بقرب مجيء ملكوت السموات.

«بعد ستة أيام» من أي تاريخ؟ ما هي الأهمية لأي تاريخ كان؟ ألا ترى أن الهدف الأساسي هنا هو إعطاء لمحة عمّا حدث على ذلك «الجبل العالي» حيث انعكس نور ذلك العالم غير المرئي وبهاؤه على وجه المسيح؟

إن القارئ الذكي العلماني للعهد الجديد لا يمكنه إلا أن يلاحظ، خصوصاً في الأناجيل، فجوات وبدايات مفاجئة مثل «في ذلك الوقت»؛ و«واجتمع الرسل إلى يسوع»؛ و«وحدث لمّا»؛ وغيرها العديد من التعابير المشابهة التي تبدو وكأنها لا تدل على أي شيء، مما يظهر السجل بمظهر غير المترابط منطقياً. إن هذه الصعوبات التي قد يواجهها القارئ، والتي تعود إلى قلة اكتراث الشرقي للتفاصيل الصغيرة، موجودة بكثرة في الإنجيل، ولكنها غير ذات أهمية. فالهدف الرئيسي لهذه الكتب هو تمكين القارئ من استيعاب سرِّ هذه الشخصية المقدسة التي كانت مهمتها الأساسية، وتبقى، وستكون إلى الأبد، تحرير النفس الإنسانية من عبودية عالم الخوف والضعف والخطيئة والشك، وقيادتها إلى الأمام، إلى فوق، إلى عالم الإيمان والأمل والحب. هذا الهدف، تقوم الكتب المقدسة بخدمته على أكمل وجه.

[2] متّى 17: 1
[3] متّى 16: 13
[4] متّى 16: 25


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الخامس

الانطباع في مواجهة الحرفية

إن الهدف الأساسي للسوري أثناء المحادثة هو ترك انطباع بأية وسيلة ممكنة وليس إيصال الفكرة بعبارات علمية دقيقة. لتحقيق هذا الهدف تراه يستعمل شتّى الوسائل انطلاقاً من قاعدة أن الحكم على كلامه لن يكون حول ما سيقوله بل حول ما يعنيه. إنه لا يتوقع من سامعه أن يصغي إليه باللياقة المتفحصة التي يتميز بها «اليانكي المنطقي». ولا يتوقع كذلك أن يقاطعه المستمع بالسؤال «هل أفهم من هذا انك تقصد القول..؟» كلا! إنه يكوّم مجموعة من أفعل التفضيل فوق عدد من الأمثال والحكايات، ويدعمها بإيماءات يديه وتعابير وجهه بحيث يجعل سامعه يشعر بما يعنيه.

إن كلام الشرقي مزين بالصور؛ بل إنه يتكلم بالصور. فمعه تترافق اللغة المحكية مع جدتها الأولى لغة الإيماء. إن كثرة إيمائه في الكلام هي أول ما يلفت نظر الغربي المسافر في الشرق. فهو يشير إلى أي شيء يتحدث عنه، ويود تصوير كل ما ينتابه من شعور أو عاطفة بحركة ما. فما أن يذكر عينه مثلاً حتى ترتفع سبابته إلى العين لتدل عليها أو حتى تلامسها. وإذا سألك «هل تفهمني؟» لامست سبّابته صدغه. وفي دفع ذلك الذي يُطلب منه أشياء غير معقولة تراه يحني ظهره ويقول: «ألا تريد أن تركب على ظهري؟».

أحد أسطع الأمثلة على ما نقول نجده في أعمال الرسل، «وبينما نحن مقيمون

أياماً كثيرة انحدر من اليهودية نبي اسمه أغابوس. فجاء إلينا وأخذ مِنطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال هذا يقوله الروح القدس. الرجل الذي له هذه المِنْطقة هكذا سيربطه اليهود في أورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأُمَم[1]». لو كان القائل نبياً غريباً لما كان تجشم هذه المشقة كلها، بل لكان اكتفى بالقول: «ليس بودي التدخل في شؤونك الخاصة يا صاحبي، ولكن لو عاد الأمر لي مانزلت إلى أورشليم. فهؤلاء اليهود ليسوا بممتنين لما تفعله وقد يسببون لك كرباً». ولكن تلميحاً من هذا النوع ما كان ليدفع رفاق بولس إلى البكاء ولا بولس إلى القول: «ماذا تفعلون تبكون وتكسرون قلبي لأني مستعد ليس أن أُربَط فقط بل أن أموت أيضاً في أورشليم لأجل اسم الرب يسوع[2]».

ولأن السوري يحب الحديث بالصور، تراه يُسخِّر الدقة الحرفية للانطباع العام في العبارة ويكثر من استعمال المبالغات الكبيرة. فبدل أن يقول يوحنا المعمدان للفرّيسيّين: «إن تظاهركم بالفضيلة وحُسن المولد يتنافى مع ممارستكم للفضيلة»، نراه يصرخ بهم: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه *الحجارة* أولاداً لإبراهيم[3]».

وكما يحب الشرقي النكهة الحادة في طعامه والألوان البراقة في ثيابه، كذلك يحب استعمال الأمثال والمبالغة والإيجابية في الحديث. فالدقة والاعتدال في الكلام بالنسبة إليه هما من مظاهر الضعف. وكم من الأمثلة حول ما أقول يقفز إلى مخيلتي من ذكرياتي كيافع سوري. إني لأذكر هؤلاء الرجال المرحين الذين كانوا يؤمون دارنا «ليقعدوا» أي ليقوموا بزيارة غير محدودة الأجل. فقد كانوا يجزمون بأغرب الأمور ويدعمون ذلك بعهود لم يكن في نيتهم تنفيذها على الإطلاق. فيقول أحدهم: «إن ما أقوله لك هو عين الصواب، وإن لم يكن كذلك قطعت ذراعي اليمنى»، ويمسك الرجل بذراعه «من الكتف» علامة التأكيد. ويقول آخر: «إني أعدك» – مهما كان الوعد– «وإن لم أنفذ وعدي لك قلعت عيني اليمنى».

لقد كنا نصغي إلى هذا الكلام باندهاش واحترام. ولكن لم يخطر ببالنا مرة أن القائل سينفذ ما تعهد به، أو أن أياً من المستمعين له الحق في أن يطالبه بذلك. جلّ قصده أنه جدّي في الموضوع أو أن زعمه حق.

ما تقدم من أمثلة على هذا الأسلوب الشرقي في التفكير يقدم لنا الخلفية الصحيحة لفهم قول يسوع «فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك. لأنه خير بك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى

[1] أعمال 21: 10
[2] أعمال 21: 13
[3] متى 3: 7-9

تعثرك فاقطعها والقها عنك[4]».

إن هذه النصوص تقدم إشكالية لا يمكن حلّها للعديد من المسيحيين الغربيين، لاسيما البروتستانتيين منهم، الذين يؤمنون إيماناً مطلقاً بعصمة كل ما ورد في الإنجيل بحرفيّته. فالسؤال «كيف يمكن أن أكون تلميذاً مخلصاً للمسيح إن لم أُطع مثل هذه الأوامر؟» يجعل من هذه الأقوال التي أسيئ فهمها عقبات مريعة. لقد كتبت لي سيدة رسالة تعلمني فيها أن الواعظ، في اجتماع للصلاة حضرته، وبعد أن قرأ الإصحاح الخامس من متّى قال: «إذا كنّا حقاً مسيحيين علينا ألا نتراجع عن إطاعة هذه الأوامر الصريحة التي ألزمنا بها المعلم».

وأضافت محدثتي قائلة إنها سألت الواعظ السؤال التالي: «فلنفترض أن لساني قد زلّ، وأني قطعته فعلاً، هل يجعل هذا مني مسيحية أفضل مما لو حاولت طلب الغفران بطريقة أخرى؟». بعد لحظة من الحيرة والصمت قال القسيس: «إن لم يكن بيننا من يستطيع الإجابة على هذا السؤال، فإننا سنرنّمُ ترنيمة».

إن أفضل تعليق على تعاليم يسوع هذه نجده في رسالة بولس إلى أهل رومية «ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثمٍ للخطيئة بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات برٍ لله[5]»، وهذا بالتحديد هو ما عناه السيد. فقطع الأوصال والتمثيل بها لا علاقة له بأيٍ من المقطعين السابقين ولا بالحياة المسيحية على الإطلاق. إن قطع الذراع التي تسرق لا يضمن أن الرغبة بالسرقة قد زالت. كذلك، فإن قلع العين التي تشتهي لا يزيل الشهوة التي استعملت العين كوسيلة للرؤية.

إلى هذه التعاليم يمكن إضافة الأوامر التالية وتصنيفها معها: «من لطمك على خدّك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فأعطه الرداء أيضاً. ومن سَخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين[6]».

إن الأمر بإعطاء الثوب والرداء عوضاً عن المخاصمة يبدو محيراً أكثر متى عرفنا أن ***الثوب*** هو ما يرتديه المرء على جسمه، أما ***الرداء*** فهو اللباس الخارجي الذي يرتديه المرء فوق الثوب. وبالتالي، فان الانصياع التام لهذا الأمر يترك المُمْتَثِلَ له في حالة يرثى لها.

وتقدم لنا الآية الأخيرة من هذا الإصحاح إشكالية أخرى إذ يرد فيها «من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه[7]». لقد سمعت الكثيرين يتذمرون من هذه الآية، وأخص بالذكر منهم محام تعرفت إليه في إحدى الولايات الغربية، وكانت

[4] متّى 5: 29-30
[5] رومية 6: 13
[6] متّى 5: 34-41
[7] متّى 5: 42

كلمات المسيح هذه تسبب ضيقاً شديداً له. فما من مرة جلسنا فيها لنتباحث في شؤون الكتاب المقدس أو في المسيحية بشكل عام إلا وتسلّح بهذه الآية ليهاجم الناصري البريء. فقد كان يقول لي: «بماذا كان يفكر يسوع حين تفوه بهذه العبارات؟ ماذا يحدث لأعمالنا ومصالحنا ومؤسساتنا المالية إذا أعطينا كل سائل أو أقرضنا كل طالب من دون كفالة معقولة»؟.

إن الفكرة التي يعرض لها هذا النص تعاني من انتفاء شرط يقيدها، وهذا ما يعطيها طابعها الشرقي. فبسبب معرفته أن الجمهور الذي يخاطبه يفهم تماماً ما يعنيه، لم يرَ الكاتب حاجة لأن يفسر الأسباب التي من اجلها وُضعت هذه التوصية. ولكن على ما يبدو، فإن يسوع حين تفوه بتلك العبارات كان يفكر بالآية التالية: «وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فأعضده غريباً أو مستوطناً فيعيش معك. لا تأخذ منه رِباً ولا مرابحة بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك. فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعط بالمرابحة[8]». استناداً إلى هذا الشرط القانوني، لا يحق لإسرائيلي أن يحمِّل إسرائيلياً آخر فائدة على قرض. لذلك، ومن وجهة نظر عملية بحت، كان المرابون اليهود يفضلون إقراض غير اليهود ممن يحق لهم تحميلهم الفائدة، و «يتجنبون» إقراض الذين هم من جنسهم. وكما كان شيوخ إسرائيل في ذلك الوقت يتهجمون على يسوع بسبب عدم تقيده بالناموس، فإنه لم يتوانَ قط عن تذكيرهم بأن ممارساتهم تعرض الناموس للخطر أكثر بكثير من تفسيراته التحررية الهادفة إلى خدمة الإنسان.

من فهمي لأنماط التفكير والحياة في الشرق، لا يمكنني بحال أن أتصور أن يسوع قصد بكل هذه الأقوال إعطاء الأفضلية للقوة الغاشمة في مسيرة الحياة الإنسانية. فهو بنفسه طرد التجار من الهيكل بالقوة الجسدية. إن هذه المبادئ لم توضع لمنع استعمال القوة الجسدية في حالات الدفاع عن النفس وحماية الممتلكات، ولكنها وُضعت كعلاج ضد قانون الانتقام القاسي الذي شعاره «العين بالعين والسن بالسن». إن رسالة السيد لا تبشر بالعجز، بل تفرض مسلكاً مشرفاً للسلام والوئام عوضاً عن الرغبة الدائمة بالانتقام والخصومة.

أعود فأكرر أن الشرقي يتوقع أن يقاس خطابه بما يعنيه وليس بما يقوله. فهو يدرك، بشكل عام، أن ما يقوله ينقصه الكثير من الدقة. لذلك، فمتى عرف مخاطبي أنني اعرف أن ما يقوله ليس صحيحاً بالتمام، لم يعد بإمكاني اتهامه بالكذب، وإن لم أرض عن أسلوب كلامه.

إذا قام جاري في قريتنا في جبل لبنان برحلة إلى دمشق، وقدم إلى بيتي ذات عشية ليخبرني عن تفاصيل رحلته، فانه لا يكون سورياً أصيلاً إن لم يطلق العنان

[8] لاويين 25: 35

لمخيلته في وصف الرحلة عوضاً عن إعطائي صورة فوتوغرافية عنها. وأنا، فيما أستمع وأضحك وأتعجب من أخباره، أعرف في قرارة نفسي أن أقواله ليست كلها صحيحة، وهو يعرف حقيقة مشاعري تجاه ذلك. ولكن كِلانا يُقدِّر أن حديثنا ليس عملية تجارية بمقدار ما هو مجرد تسلية. فصديقي لا يتعمد تصوير الأشياء على غير ما هي عليه بسبب سوء في القصد. جلّ ما في الأمر أنه يحب الكلام بلغة شعرية، ولا يرتاح كثيراً للاستجواب حول صحة ما يقول. هل نقوم ببيع وشراء الثيران والغنم وحقول العنب على هذا المنوال؟ طبعاً لا! ولكن لا مانع عندنا من التسلية بمثل هذه النوادر. إن حسن الوفادة يفرض التسامح، والمقدرة على الاستيعاب الفكري تفرض التغاضي. خارج هذين الحيزين الواسعين، فإن محصل كلام صديقي، عبر الصور والتشابيه التي رصّع بها وصفه، هو أن رحلته إلى دمشق كانت جميلة أو مليئة بالأخطار، وأن ثمة العديد من الأمور الجديرة بالرؤية في ذلك الجزء من العالم، وهذه كلها حقائق لا شك فيها.

في زيارة لي إلى سورية بعد عدة سنين أمضيتها في هذه البلاد في وسط أميركاني بحت، شعرت بالفارق الكبير بين نمطي التفكير السوري والأميركاني. لقد أحدثت الأيام الكثير من التغييرات في نفسي وأصبحت مدمناً على استعمال العبارة المقتضبة كما هو شائع في الأوساط الأميركانية.

في تلك الرحلة قمت بزيارة صديق قديم. أثناء استقباله لي في منزله، كان صديقي يستعمل عبارات مثل: «شرفتنا بقدومك، نحن لا نستحق هذا الشرف، البيت بيتك، أحرقه إذا شئت، أولادي فداك، أضحي بهم في سبيل سعادتك، يا له من يوم مبارك إذ أشرق نور وجهك علينا». الخ..

لقد فهمت صديقي تمام الفهم وبعث كلامه السرور في قلبي. ولكنه لم يكن من السهل عليّ أن أترجم عواطفه إلى زوجتي الأميركانية من دون أن أقلق راحتها على مصير بيت صديقي من الحريق، أو على أولاده من الذبح. إن ما قصده صديقي في أسلوبه الجياش لا يتعدى ما يعنيه أي مضيف أميركاني كريم حين يقول لضيفه: «إنني سعيد جداً لرؤيتك، تفضل واعتبر نفسك في بيتك».

فلو قارب أولئك الذين وضعوا العقيدة المسيحية الإنجيل من وجهة نظر النفسية الشرقية، ولو قرأوا نصوصه من خلفية الحياة السورية، لما كان تعاطيهم مع الكتابة المقدسة كتعاطي القانوني مع القوانين التشريعية. كذلك الأمر بالنسبة إلى الناقدين المعادين للإنجيل. فلو كان لديهم أدنى معرفة بالأرض التي ولد عليها الانجيل لما كانوا على هذه الثقة من أنه لا يتعدى «كتلة مستحيلات». إن الحقيقة المحزنة هي في كون الحرفيين من الطرفين، الصديق والعدو، قد سببوا الكثير من الأذى للإنجيل.

على سبيل المثال، حين فشل التلامذة في شفاء الغلام المريض وجاءوا إلى يسوع

يسألونه عن سبب ذلك، أجابهم حسب النسخة المنقحة، والنسخة العربية كذلك: «لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل[9]». لقد كان يحلو دائما للكولونيل روبرت انغرسول، أن يتحدى المسيحيين الأميركان لوضع هذه الآية موضع التنفيذ، وبالتالي *إقناعه* بأن الإنجيل موحى به. وفي مواجهة تحدٍ كهذا، لم يكن أمام «*المؤمن*» من خيار سوى الإعلان أن الكنيسة لا تملك القدر الكافي من الإيمان وإلاّ لكان بمقدورها نقل الجبال.

إن أي شخص مطّلع على نمط الكلام الشرقي يدرك أن المقصود لم يكن تحديد قاعدة للسلوك، بل جعل الإيمان مثالياً. ولتحقيق ذلك على الطراز السوري الأصيل، تكلم يسوع عن مقدرة كمية متناهية في الصغر من الإيمان على نقل أكبر شيء على وجه البسيطة. ولا بد أن يكون تلامذته قد فهموا مرامه إذ أننا لم نسمع أن أياً منهم قد حاول نقل الجبال من مكانها بالإيمان والصلاة. ولكان من دواعي العجب فعلاً لو أن يسوع اعتقد بأن هؤلاء التلامذة الذين تخلّوا عن كل شيء وتبعوه افتقروا إلى مقدار حبة خردل من الإيمان. ألم يصفهم بقوله «أنتم ملح الأرض؛ أنتم نور العالم[10]».

كذلك الأمر بالنسبة إلى قول يسوع «وأقول لكم أيضاً أن مرور جمل من ثقب إبرة أيسرٌ من أن يدخل غني إلى ملكوت الله[11]». إن هذا القول قد دفع بعبقرية التأويل لدى الدائبين على «تبسيط الإنجيل»، إلى استنباط التأويل التالي، والذي من كثرة المرات التي سئلت بها عنه، بالإضافة إلى أنني قرأته مطبوعاً، لا بد وأن يكون شائعاً جداً.

«كان للمدن المحاطة بالأسوار ولقلاع الإقطاعيين في فلسطين بوابات كبيرة. وبسبب حجمها، لم تكن هذه البوابات لتفتح إلا في المناسبات الخاصة وللسماح بدخول القوافل والمركبات. لتسهيل مرور المشاة، يفتح باب صغير بحجم الباب العادي في وسط البوابة الكبيرة وعلى مستوى الأرض». هذا الباب الصغير، برأي المعلقين، هو «ثقب الإبرة» المنوه عنه في الإنجيل. لقد سمعت مرة ناظراً في مدرسة الأحد يفسر هذا المقطع بقوله إن الجمل يستطيع أن يمر من هذا الباب إذا لم يكن محمّلاً. لذلك، يصبح بإمكاننا الدخول بسهولة إلى ملكوت السموات إذا رمينا بحمل الخطيئة خارجاً.

لو أن الناظر ترك البوابة والجمل جانباً، لكان في وصفه تحذير أبوي ممتاز. ربما لايكون في السماء بوابة كبيرة بما فيه الكفاية ليدخل منها شخص مثقل بأحمال الخطيئة. بيد أن المشكلة الأساسية في هذه التفسيرات كلها «لثقب الإبرة» تكمن في أنها لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

[9] متى 17: 19
[10] متى 5: 13 و 14
[11] متى 19: 24

إن هذا القول مايزال متداولاً جداً في الشرق، ومن المرجح أنه كان شائعاً حتى قبل مجيء المسيح. ولكنني لم أسمع مرة أن الباب الصغير يدعى «ثقب الإبرة»، ولا أن البوابة الكبيرة تدعى «الإبرة». في الواقع أن الباب، وباللغة العامية الشائعة في البلاد يسمّى «الخوخة». وإني على ثقة أن النصوص المقدسة لا تشير إليها لا من قريب ولا من بعيد. ويستعمل القرآن هذا التعبير، في واحد من أكثر نصوص العربية صفاء[12] فيسميه ***سمّ الخياط***، وهو في هذا يعني أداة الخياطة ولا شيء غير ذلك.

إن هذا المقطع، إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حقيقة الطابع الشرقي، سواء لهذا النص من العهد الجديد، أو للمعلم الذي استعمله. إنه يدل على إيجابية عظيمة في التفكير وعلى مخيلة لا حدود لها. إني استطيع تخيل المعلم أثناء قوله هذا الكلام. فقد كان هدفه أن يبيّن أنه «ما أعسر دخول المتّكلين على الأموال إلى ملكوت اللّه[13]». لهذا الغرض، اختار أكبر حيوان وأصغر ثقب معروف لدى قومه، وأقام المقارنة بين استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة، واستحالة سير المثقلين بالمسائل الأرضية في خطى اللّه.

إن توبيخ السيد للكتبة والفريسيّين بقوله «أيها القادة العميان الذين يُصَفُّونَ عن البعوضة ويبلعون الجمل[14]»، يعبر عن الفكرة ذاتها وإن يكن القالب والرابط مختلفين. في هذا المثل، لا مجال للحيرة حول الإشكالية التشريحية، وما إذا كان حلق الفريسيّ يتسع لابتلاع جمل بكامله أم لا. إن نكهة هذا المثل الشرقية المحببة تستند إلى التناقض الكبير بين حجم البعوضة وحجم الجمل. لهذا استعمله المعلم ليبيّن مدى التناقض بين المبادئ التي كان الكهنة ينادون بها في تلك الأيام وبين ممارستهم. فهم الذين خاطبهم بقوله: «لأنكم تعشّرون النعنع والشِبِتَ والكمّون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان[15]».

أما أحد أفضل الأمثلة على نمط الكلام الشرقي فنجده في بشارة متّى: «حينئذٍ تقدم إليه بطرس وقال يا رب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مراتٍ. قال له يسوع لا أقول لك إلى سبع مراتٍ بل إلى سبعين مرة سبع مرات[16]». هل قصد يسوع فعلاً أن نسامح المعتدي أربعمائة وتسعين مرة؟ هل من مصلحة المجتمع، لا بل ومصلحة المعتدي نفسه أن يُسامحَ أربعمائة وتسعين مرة؟ أليس في العقاب الذي يقوده العقل والعاطفة، والهادف إلى إصلاح النفس، عامل مساعد في بناء شخصية الإنسان؟ فلنحاول تفسير هذا المقطع استناداً إلى مشاهد معينة من حياة يسوع

[12] «إِنَّ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ولا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ وكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِين». (سورة الأعْراف، الآية 40) (المحقق)

[13] مرقس 10: 24

[14] متّى 23: 24

[15] متّى 23: 23 (المحقق)

[16] متّى 18: 21

نفسه. ففي متّى نقرأ: «من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقْتَل وفي اليوم الثالث يقوم. فأخذه بطرس إليه وأبتدأ ينتهره قائلاً حاشاك يا رب. لا يكون لك هذا. فالتفت وقال لبطرس *إذهب عنّي يا شيطان. أنت معثرة لي* لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس[17]».

وفي يوحنا: «بعد هذا انحدر إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه وأقاموا هناك أياماً ليست كثيرة. وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم. ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصَّيارف جلوساً. *فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل.* الغنم والبقر وكبَّ دراهم الصَّيارف وقلَّب موائدهم. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة[18]».

إن القول بالمسامحة، «سبعين مرة سبع مراتٍ»، لم يطبق في هذه الحالات. ففي الإصحاح الثامن عشر من متّى يعطينا يسوع مثلين على العقوبة الأكيدة والسريعة للمخالفات. فهو يقول في الآية الخامسة عشرة: «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. فإن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخُذْ معك أيضاً واحداً أو أثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة *فليكن عندك كالوثني والعشّار*[19]».

مباشرة بعد مقطع «السبعين مرة سبع مراتٍ»، تلي قصة الملك والخادم الشرير، «لذلك يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أنِ يحاسب عبيده. فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّم إليه واحد مديون بعشرة آلافِ وزنةٍ. وإذ لم يكن له ما يوفي أمَرَ سيده أن يباع هو وامرأته وأولاده وكل ما له ويوفي الدين. فخرّ العبد وسجد له قائلاً يا سيد تمهل عليَّ فأوفيك الجميع. فتحنَّن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدينَ. ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه مديوناً له بمئة دينار. فأمسكه وأخذ بعنقه قائلاً أوفني مالي عليك. فخرّ العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلاً تمهّل عليّ فأوفيك الجميع. فلم يُرد بل مضى وألقاه في سجنٍ حتى يوفيَ الدينَ. فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان حزنوا جداً وأتوا وقصّوا على سيدهم كل ما جرى. فدعاه حينئذ سيده وقال له. أيها العبد الشرير كل ذلك الدَّين تركته لك لأنك طلبت إليَّ. أفَمَا كان ينبغِي أنك أنت أيضا تَرْحَم العبد رفيقك كما رحمتك أنا. وغضب سيده *وسلمه إلى المعذبين حتى يوفي كل ما كان له عليه*. فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاّته[20]».

[17] متّى 16: 21
[18] يوحنا 2: 13
[19] متّى 18: 15
[20] متّى 18: 23-35

في هذه القصة نجد أن سيد الخادم الشرير لم يسامحه سبعين مرة سبع مراتٍ، بل «سلّمه إلى المعذِّبين» من أجل خطيئته الأولى. فهل يفعل الأب السماوي *بالمثل*؟ أليس في هذه النصوص من تناقض لا يُحَل؟ مما لا شك فيه أن ثمّة صعوبة في هذا النص. ولكنني أعتقد بأنه ما إن نفهم المقصود من عبارة سبعين مرة سبع مراتٍ، حتى تتلاشى الصعوبة. لقد اختار بطرس الرقم المقدس «سبعة»انسجاماً مع ميله القانوني، كقياس متحرر للتسامح. أما بالنسبة إلى يسوع، فالهدف على ما يبدو كان أن يجعل من التسامح ميلاً للتعاطف وأسلوباً في التعامل عوضاً عن النظر إليه كعملية حسابية. من هنا كان لجوءه إلى مثل شرقي يفيد المطلق، عوضاً عن وضعه لقاعدة محددة. فالقول الذي استعمله يسوع يرد في أحد أوائل نصوص العهد القديم:

«وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة
اسمعا قولي يا امرأتي لامك
وأصغيا لكلامي
فإني قتلت رجلاً لجرحي
وفتى لشدخي
إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف
وأما للامك فسبعة وسبعين[21]».

إن ما يستفاد من هذا الكلام، سواء الوارد في العهد الجديد أو القديم هو المطلق. إنه واحد من مجموعة نصوص إنجيلية يجب الحكم عليها لجهة ما تعنيه وليس لجهة ما *تقوله*. إن كاتب الإصحاح الثامن عشر من بشارة متّى قد جمع كل هذه النصوص المتناقضة في ظاهرها لأنها تتعاطى مع مفهوم التسامح. وكونها قيلت تحت ظروف مختلفة أمر لا شك فيه. فالنصيحة حول الأخ الذي يخطئ تجاه أخيه (الآيات 15-17 من متّى) هي لتشجيع المسيحيين لأن «يحكّموا العقل» فيما بينهم، وبروح أخوية، حول الخلافات التي قد تطرأ بينهم، ولمحاولة إعادة العضو الشاذ إلى القطيع *إذا أمكن ذلك*. أما قصة الخادم الشرير، فالمقصود منها إظهار التناقض بين اللطف والقسوة.

[21] تكوين 4:23


ABU ABDO ALBAGL

الفصل السادس

التكلم بالأمثال

إن التعليم ورواية الحكايات الرمزية والتحدث بالأمثال هي بالتأكيد خصائص شرقية. فالحكاية الرمزية هي صورة كلامية المقصود منها ليس وضع تحديدات ثابتة ولا عقيدة متماسكة بل إيصال انطباع لا أكثر. غير أن الشرقي لا يميز بين الحكاية الرمزية والمَثَل. ففي اللغتين العربية والعبرية، تعني كلمة ***مثل*** إما قولاً قصيراً يعبّر عن حكمة معينة كتلك الموجودة في سفر الأمثال، أو حكاية ذات مغزى كحكايات العهد الجديد. وفي النسخة العربية من الكتاب المقدس، يعرّف الاثنان ***بالأمثال***، جمع كلمة ***مثل***. ويُطلق هذا القول أيضاً على حكمة منظومة على وزن شعري، أو على حالة إنسانية من الغنى أو العداء. وهكذا، فالإنسان الكريم يصبح ***مثلاً*** في الكرم؛ والرجل سيئ السمعة يصبح ***مثلاً*** بين الناس. ففي المزمور الرابع والأربعين يصرخ الشاعر «تجعلنا مَثَلاً بين الشعوب. لإنغاض الرأس بين الأمم[1]». ويمكن أن يكون ***المثل*** قولاً شعرياً وإن لم يكن مجازياً كما ورد في سفر أيوب:

«وعاد أيوب ينطق بِمَثَلِهِ فقال
يا ليتني كما في الشهور السالفة
كالأيام التي حفظني اللّه فيها
حين أضاء سراجه على رأسي

[1] مزامير 44: 14

وبنوره سلكت الظلمة
كما كنت في أيام خريفي
ورضى اللّه على خيمتي
والقدير بعدُ معي وحولي غلماني
إذ غَسَلْتُ خطواتي باللبن
والصخرُ سَكَبَ لي جداول زيت[2]».

أين لنا أن نجد في الأدب الإنساني قطعة تفوق في الجمال والرقّة هذه الأبيات التي تغوص في أعماق الذات؟

إن التكلّم بالأمثال عزيز جداً على قلب الشرقي. فالأمثال تتميز بالشاعرية والغموض والعبرة الاجتماعية. ويفسر الكتّاب الإنجيليون تكلّم يسوع بالأمثال على أنه كان يفضل الأسلوب غير المباشر والمجازي في الكلام، ويحجب الحقيقة عن أولئك الذين «لا يفهمونها»، الخ.. ولكن هؤلاء لا يدركون أن السبب الرئيسي يكمن في الناحية *الاجتماعية* المرافقة لهذا الأسلوب في التعليم، وهي ناحية عزيزة جداً على قلوب السوريين. فبالنظر إلى القيمة القليلة التي يعطيها الشرقيون للوقت، يصبح الراوي والمتحدّث بالأمثال أكثر المتكلمين شعبية. لماذا الاختصار والحرفية والتجريد في الكلام؟ إن قصة الابن الضال وما تتضمنه من إثارة مذهلة وتماسك شديد تستهوي العقل الشرقي أكثر بكثير من المبدأ العام القائل إن اللّه يغفر لأولاده التائبين. آه كم تحمل لي من الرومنطيقية والسحر ذكريات تلك ***السهرات*** التي كنا نقضيها في منزل والدي! كم كانت تبدو بسيطة وإنسانية الحكمة المتضَمَّنَة في القصص والحكايات التي كانت تُروى في تلك المناسبات. فقد كان يحلو لشيوخ العشيرة أن يتحدثوا بما كان ***في قديم الزمان. قال المثل*** كانت الافتتاحية التي تبدأ بها كل حكاية. وكلما تقدم الراوي في حكايته، كان يدعمها بالأمثال وبما تقدح به مخيلته الشعرية في تلك المناسبة من أبيات. أما نحن، فكنا نستمع بإعجاب ونتطلع بشوق إلى اكتشاف ***المعنى***، أي الحكمة أو المغزى من وراء الحكاية. وكان النبع الذي لا ينضب لهذه الحكايات هو الأدب الشفهي، والكتاب المقدس، والأدب المحمدي، وغيرها من النصوص الغنية بالحكمة والنوادر المسلية.

فلتصوير حالة المحبَط ومن دون أي رجاء في الخلاص، كان الراوي الظريف يروي السالفة التالية: «في قديم الزمان وقع رجل عن سطح بيته فتأذى كثيراً. حمله جيرانه وأدخلوه إلى منزله وأراحوه على سريره. وجاء صديق ليعوده فقال له «أسعد، يا صديقي الحبيب، ***كيف حالك***؟» ففتح الرجل فاه وقال وهو يئن من الألم «إن ذراعيّ مكسورتان، وكذلك ظهري وإحدى رجليّ. واحدة من عينيّ قد انطفأت، إنني جريح في

[2] أيوب 29: 1

صدري، وأشعر وكأن كبدي قد قُطع من مكانه، ولكنني على ثقة أن اللّه سبحانه تعالى سيشفيني ويعيدني إلى سابق عهدي». فأجابه صديقه «يا أسعد، إذا كانت هذه حالتك، فإنه أسهل أن يخلق اللّه إنساناً جديداً من أن يقوم بإصلاح وضعك».

أما إحدى أجمل القصص التي سمعتها، والتي كان والدي غالباً ما يرويها، فتتعلق بالمحاباة، وتدور حوادثها على الشكل التالي:

«كان في قديم الزمان رجلان اسم الأول إبراهيم والثاني يوسف؛ وكان لكل منهما جمل. وحدث أن يوسف مرض، فطلب من صديقه إبراهيم، الذي كان على وشك السفر إلى حلب، أن يأخذ معه جمله محملاً بالبضاعة. وافق إبراهيم، فرجاه يوسف أن يعتني بجملِهِ كما لو أنه جَمَلَه، ووعده، في حال أبقاه اللّه على قيد الحياة لحين عودته، أن يكافئه على معروفه بالإضافة إلى كلفة علف الجمل ومأواه. قبل إبراهيم الأمانة وسافر إلى حلب وبرفقته الجملان. لدى عودته، لاحظ يوسف أن جمل إبراهيم يبدو وكأنه بحالة أحسن من جمله. فقال لصديقه: «أيا إبراهيم، بحق ربك، ما الذي حدث لجملي، إنه لا يبدو لي بحالة جيدة كجملك. قل لي بربك، هل اعتنيت بجملي كما وعدتني؟». فأجابه إبراهيم «وحياة اللّه، يا يوسف لقد أطعمت جملك وسقيته ونظفته تماماً وكأنه جملي. ويشهد اللّه بيننا يا يوسف، أن هذه هي الحقيقة بعينها. ولكن للأمانة أقول لك يا يوسف، يا عيني ويا قلبي، إنني كنت إذا حلَّ الليل، واضطجعت على عباءتي لأنام بين الجملين، أضع رأسي أقرب إلى جملي من جملك».

إن محبة الشرقيين لهذا النوع من الكلام هي التي دفعت كاتب بِشارة متّى إلى القول عن يسوع «وبدون مثل لم يكن يكلمهم[3]». ولكن حتى هذه العبارة هي شرقية بامتياز. فيسوع تكلم كثيراً إلى الجموع من غير أمثال. ولكن ميله الشديد لاستعمال الأمثال والاستحسان الذي كانت تلاقيه، دفعا الكاتب الإنجيلي إلى هذا الإطلاق.

بالنسبة إلى الأمثال الواردة في العهد الجديد، فإن بعضها مذكور في هذا الكتاب خارج عن موضوع هذا الفصل. أما هنا، فإني سآتي على ذكر بعضها الآخر كنماذج إضافية مشيراً إلى ما له علاقة بالحياة الشرقية منها.

في الإصحاح الثالث عشر من متّى، نقع على مَثَل القمح والزوان[4] : «يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله. وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى. فلمّا طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضا».

إن ***الزوان*** هو نوع من الحَبِّ الذي إذا طُحِنَ مع القمح سبب دوخة وغثياناً شبيهاً بدوار البحر. لهذا فإن السوريين يكرهون هذا الحَبَّ وإن كانوا يستعملونه بكثرة

[3] متّى 13: 34
[4] متّى 13: 24-30

كعلف للدجاج. في أيام الضيق يقوم باعة الحنطة ببيع ما يدعى بالقمح ***المزوَّن***، لأنه باستطاعتهم شراءه بسعر أقل بكثير من القمح الصافي. إني لا أعتقد بأنه يوجد عائلة من عامة الشعب في سورية لم تتعرض في وقت من الأوقات «لمرض الزوان». أما وقد تعرَّضتُ لنكد هذه النبتة الخبيثة بنفسي، ولأكثر من مرة، فإني لا استغرب إن اعتقد السوريون بأن مصدرها هو الشيطان بنفسه. وما أذكره بالكثير من الإعجاب والعطف هو اللعنات الحامية التي كان يصبها المصابون على رأس بائع القمح المزوَّن. فحين كان مفعول النبتة يسري في الجسم، ويشعر المصابون بحاجتهم لترك الطبيعة تأخذ مجراها، كنا نسمع اللعنات تزاحم الشهقات في طلب الهواء: «اللّه يخرب بيته!»، «اللّه يحول الذهب في يده إلى تراب!»، «ليته يصرف المال الذي جناه مما باعنا على جنازة أولاده!»، الخ..

هل تشعر الآن بقوة المشاعر التي تحملها الإشارة إلى الزوان في الحكاية؟ «فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك. فمن أين له زوان. فقال لهم. إنسان عدو فعل هذا».

من الطبيعي أن يحاول الأعداء أذية بعضهم بعضاً. وفي بلد زراعي كسورية، غالباً ما يقع الأذى على الممتلكات بهدف الانتقام. وهكذا فإن نثر حب الزوان في حقل حنطة بهدف الانتقام ليس بالأمر المستغرب. ولكن الإشارة إلى الزوان في المثل لها علاقة باعتقاد آخر يسري في سورية ألا وهو أن الزوان سينبت في حقل القمح بغض النظر عن كل جهود الزارع لتلافي ذلك، إذ أن الروح الشرير هو الذي يتولى ذلك. لقد استمعت مرة إلى نقاش حاد دار حول الموضوع بين ملاّك سوري ومبشر أميركاني. فالملاّك السوري كان يصر على أن الزوان سينبت في الحقل حتى ولو من دون زرع على الإطلاق، في حين أصر ابن الغرب على استحالة حدوث أمر كهذا. انتهى النقاش بالتعادل.

«فقال له العبيد أتريد أن نذهب ونجمعه؟ فقال لا. لئلاّ تقلعوا الحنطة مع الزوان وانتم تجمعونه».

في الكثير من الأحيان حجري المحاولة لقلع النبتة الأثيمة من بين الحنطة، ولكن عبثاً. أما العبرة المتضمنة في الآيات الأخيرة من هذا المقطع[5] فيمكن لكل مصلح مصاب بداء الاستعجال الاستفادة منها، لاسيما إذا كان كذلك الدعّي الذي حين طلب منه التمهل بعض الشيء أجاب «في الحقيقة أنني مستعجل، أما اللّه فلا».

وفي الإصحاح نفسه، نقرأ مَثَل «الخمير». «قال لهم مثلاً آخر. يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع[6]».

[5] متّى 13: 30 «دعوهما ينميان كلاهما إلى الحصاد. وفي وقت الحصاد أقول للحصّادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزماً ليحرق وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني». (المحقق)

[6] متّى 13: 33

سأعطي التفاصيل لخلفية هذه الحكاية في الحياة السورية في مكان آخر من هذا الكتاب. ولكنني أذكرها هنا لأعلق على تفسير لها تناهى إلى مسامعي مؤخراً، ووجدت فيه بعض الغرابة. أثناء حديث حصل بيني وبين مبشر معمداني معروف، ذكر لي أن ثمة تفسيراً لهذه الآية يقول إن المقصود بالخمير هنا هو الفساد الذي دخل الكنيسة، الخ. وطلب رأيي حول ما إذا كان السوريّون يربطون الخمير بالفساد.

في الواقع أن في هذا التفسير صدى لفكرة قديمة عن الخمير لا يعرف سوريّو اليوم أي شيء عنها على الإطلاق. فالسوريون اليوم ينظرون إلى الخميرة بأعلى درجات التقدير والتبجيل وكرمز للنمو والخصب. وفي العديد من المناطق الريفيّة في سورية، تلصق العروس كتلة من الخميرة على عتبة بيتها الزوجي وتمر من تحتها إلى البيت بمهابة فيما صديقاتها ينادينها قائلات «باركك الله وجعلك مثمرة كالخميرة».

فمن الحقائق المعروفة لدى المطلعين على التاريخ القديم أن الخبز في الزمن السحيق كان يصنع من دون خميرة. فالقبائل الإسرائيلية أثناء طوافها، كانت تأكل وتقدم القرابين إلى يهوه من هذا الخبز. والقبائل العربية على تخوم سورية اليوم تأكل خبزاً غير مخمّر إذ أنها تعتقد بأنه يضعف من حيوية الجسم وجَلَده. ولعل السبب الحقيقي وراء تفضيل الخبز غير المخمّر يكمن في سهولة صنعه، وفي انتفاء الحاجة لدى القبائل الضاربة للمحافظة على الخميرة من الفساد بين الخَبْزة والأخرى، وهو أمر عسير على القبائل الضاربة في الصحراء. إن استعمال الإسرائيليين للخبز غير المخمَر على مدى أجيال جعله مقدساً لديهم وجعل منه التقدمة المقبولة لدى المتدينين المحافظين بالرغم من شيوع استعمال الخبز المخمّر كطعام يومي في العالم قاطبة.

لذا، فإن القدماء كانوا يعتبرون التخمّر فساداً. لقد كان شيئاً يدخل في كتلة العجين فيفسدها. في العهد الجديد، نجد أن كلمة «الخمير» قد استعملت مجازاً لتعني التأثير في الآخرين أو العقيدة الفاسدة. بهذا المعنى استعمل يسوع العبارة في قوله لتلاميذه «تحرّزوا من خمير الفريسيين والصدوقيّين[7]». وفي قوله «وأوصاهم قائلاً انظروا وتحرّزوا من خمير الفريسيين وخمير هيرودوس[8]». وكون التلاميذ لم يفهموا بادئ ذي بدء ما قصده المعلم بقوله هذا يشير إلى أن الربط بين «الخمير» و «الفساد» لم يكن شائعاً لدى العامة حتى في ذلك الوقت. فلو كان، لما استعمل يسوع المَثَل «يشبه ملكوت السموات خميرة».

في الإصحاح الخامس عشر من بشارة لوقا، نقرأ أمثالَ الخروف الضائع، والدرهم المفقود، والابن الضال. سوف أتناول مَثَلَ الخروف الضائع في فصل آخر من

[7] متى 16: 6

[8] مرقس 8: 15

هذا الكتاب[9]. أما مَثَل الدرهم المفقود فيعطي صورة عن مشهد مألوف جداً في حياة العائلة السورية الاعتيادية. «أية امرأة»، يقول المعلم، «لها عشرة دراهم إن أضاعت درهماً واحداً ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده. وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة افرحن معي لأني وجدت الدرهم الذي أضعته[10]».

إن السراج المذكور هنا هو مصباح صغير يُوقَد فيه زيت الزيتون، ويتكون من وعاء فخّاري صغير له شفة ممتدة ومرفوعة قليلاً عند حافتها. كم من مرة حملت فيها مثل هذا السراج لكي تبحث والدتي على نوره الشاحب المتراقص، عن درهم أو غرض آخر فقدته! فبيوت العامّة من السوريين لها باب واحد ونافذتان صغيرتان بمصاريع خشبية من غير زجاج. لهذا السبب، فإن داخل البيت يكون معتماً لاسيما في فصل الشتاء. وبما أن النقود كانت من الندرة بمكان في أيدي العامّة، فان إضاعة درهم واحد (حوالي ستة عشر سنتاً)[11] كان يعتبر حادثاً محزناً بالفعل. في مثل هذه الحالة كانت المرأة تقوم بتفتيش البيت «باجتهاد»، فترفع الحصير القشيّ والوسائد وجلود الغنم وتكنس الأرض الطينيّة. ولاتتوانى المرأة عن البحث باجتهاد وضراعة وأمل، حتى تجد الدرهم المفقود. إن النسخة العربية من الإنجيل تقول إن المرأة الفرِحَة «تدعو ***الصديقات والجارات*** قائلة افرحن معي لأني وجدت الدرهم الذي أضعته». إن تحديد الصديقات والجارات هنا له مغزاه. ففقد امرأة لدرهم كان يستدعي حنق زوجها بغضّ النظر عمّا إذا كانت هي التي كسبت الدرهم أم هو. أما الصديقات والجارات فلهنّ مصلحة راسخة في مثل هذه المسائل. إنهنّ يحفَظْنَ أسرارهن عن الرجال، ويفْرَحْنَ إذا تجنبت إحداهن موقفاً كرباً.

إن المعنى النهائي لهذا المثل على غاية من البساطة والأهمية في آن معاً. فعَبرْ هذا المثل الاعتيادي الحدوث في البيت السوريّ، يطبع يسوع في أذهان سامعيه، وفي وجدان الإنسانية كلها، القيمة اللامتناهية للنفس الإنسانية، ومحبة الأب السماوي لها. «هكذا أقول لكم يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب[12]».

يلي مَثَلُ الابن الضال[13] مباشرة بعد مثل الدرهم المفقود. «وقال. إنسان كان له ابنان. فقال أصغرهما لأبيه يا أبي أعطني القسم الذي يصيبني من المال. فقسم لهما معيشته». إن أول ما يلفت انتباه القارئ في هذا المقطع هو سرعة استجابة الوالد لطلب ابنه. «فقسم لهما معيشته». إن قسمة الوالد لأرزاقه بين أولاده الذكور وهو حي يرزق، هي عادة سائدة في الشرق أكثر منها في الغرب. فبشكل عام، لا يعطي القانون ولا العرف قيمة شرعية للوصية. في بعض الأحيان، قد تنفذ رغبة الأب بعد وفاته.

[9] أنظر الصفحة رقم 163
[10] لوقا 15: 8-9
[11] مبلغ محترم حتى في أميركانيا نسبة إلى قيمة النقد في مطلع القرن العشرين. (المحقق)
[12] لوقا 15: 10
[13] لوقا 15: 11-32

ولكن، وكقاعدة عامة، فإن الأب الذي لا يقسم رزقه شرعياً بين أبنائه قبل وفاته، يتركهم في وضعية محفوفة بالمخاطر. فالتقاضي في مثل هذه الحالات يأخذ وقتاً طويلاً ويكلف الكثير من المال.

لابد وان تكون حالة كهذه هي المقصودة في الإصحاح الثاني عشر من بشارة لوقا «وقال له واحد من الجمع يا معلم قل لأخي ان يقاسمني الميراث. فقال له يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً أو مقسّما[14]». وباستطاعتنا استنتاج ما دار في خلدِ يسوع حين قال هذه الكلمات مما يلي جوابه للرجل مباشرة. «وقال لهم انظروا وتحفظوا من الطمع. فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله[15]». وهكذا فإن والد الابن الضال تصرف بشكل طبيعي حينما قسّم أرزاقه بين ولديه.

«وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الأصغر كل شيء وسافر إلى كورة بعيدة وهناك بذر ماله بعيش مسرف». إن سبب اختيار الابن الأصغر لعبرة هذه المغامرة يجد جذوره في تقليد شرقي على درجة عالية من الأهمية، يجعل من غير المستحسن تصوير الابن الأكبر، الذكر الأول المولود في البيت، كمن يرتكب عملاً شائناً كهذا. فمنزلة ***البكر*** في العائلة السورية هي إلى جانب منزلة أبيه من الاحترام، ليس ضمن بيته فحسب، بل في مُتَّحَدِه عامة. فلا يفترض فيه أن يكون نَزِقاً إلى درجة يكسر معها الدورة المقدسة للعائلة ويبدد إرثه في صخب من العيش.

«فلما أنفق كل شيء، حدث جوع شديد في تلك الكورة فابتدأ يحتاج. فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير. وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله. فلم يعطه أحد».

إن مهنة «راعي الخنازير» هي أحقر مهنة يمكن للشرقي أن يمتهنها. فلا عجب عندي أن كتّاب الأناجيل جعلوا وجهة «حشد» الشياطين الذين طردهم يسوع من الرجل في «كورة الجَدَريين»، قطيعاً من الخنازير[16]. ولا يوجد سوري يرضى أن يقتني خنزيراً كحيوان مدلل. فإن فعل، فلا بد وأن يلقّب ***أبو خنزير*** لآخر أيامه، مورثاً لقبه هذا لذرّيّته، «حتى إلى الجيل الثالث والرابع».

أما كلمة «القشور» المستعملة في النسخة الإنجليزية من الإنجيل، فإنها لا تعطي المعنى الصحيح المقصود. ففي النسخة الإنجليزية المنقّحة يرد «جيوب شجرة الخرنوب». أما في العربية، فيُكتفى بكلمة **خرّوب**. وشجرة الخرّوب موجودة بكثرة على السواحل السورية. وهي شجرة كبيرة أغصانها كثيفة وأوراقها مستديرة ولمّاعة وداكنة الخضرة. يبلغ طول جيوب الخرّوب، حوالي الخمس إلى العشر بوصات، وهي

[14] لوقا 12: 13
[15] لوقا 12: 15
[16] متّى 8: 32؛ مرقس 5: 13؛ لوقا 8: 33

مسطحة وتشبه القرون. لا أدري لماذا وصف المترجم الإنجليزي هذه الجيوب بكلمة «قشور» فهي تباع في غالبية المدن السورية كطعام، والأولاد يحبونها كثيراً للسكّر الذي تحتويه. وفي طفولتي، كانت متعة كبيرة لي أن أشتري ما يملأ جيبي من الخروب بقرش واحد. أما عند كبار السن، فلم يكن للخروب التقدير نفسه الذي يكنه الأولاد له. فكمية السكّر التي فيه بالقياس إلى حجمه صغيرة لدرجة أنها أصبحت مضرباً للمثل. فالذي ينمّق الكلام الفارغ يقال عنه «مثل الخروب. عليك بأكل كُرْدٍ[17] من الخشب لتحصل على أونصة من الحلاوة». وحين يأكل الناس الخروب، يتماثل لهم انهم قد امتلأوا بينما هم في حقيقة الأمر لم يحصلوا سوى على نزر يسير من الغذاء. من هنا، فان الخروب إجمالاً هو مأكول الحيوانات.

ولا بد من الإشارة إلى أن قول المثل «وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله. فلم يعطه أحد»، إنما يقصد منه وصف الحالة المزرية التي وصل إليها الابن الضال. فراعي الخنازير باستطاعته أن يتناول ما يشاء من «الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله». أما المقصود فهو المقارنة بين الغنى الذي كان متوفراً له في بيت أبيه، والذي تركه عن طيبة خاطر، وبين الفقر المدقع الذي حلّ به بحيث لم يعد يجد ما يسد به رمقه.

إن عودة الابن الضال إلى منزل أبيه، مدقعاً ولكن تائباً، وعاطفة أبيه وشهامته تجاهه بحيث أقام الوليمة على شرفه، تدل على التواضع والكرم، وهي خصال لا يمكن حصرها بأبناء الشرق فقط. ولكن أمر الوالد «وقدِّموا العجل المسمّن فنأكل ونفرح»، تجلب إلى الذهن موضوع ***الذبيحة*** (التضحية الحيوانية) التي لا يعرف الغرب عنها شيئاً.

إن هذا التقليد القديم الذي لم تمت أصداؤه في الشرق يقضي بأن قمة إكرام المضيف لضيفه إنما تكون بذبح خروف على عتبة البيت فور وصول الضيف، ودعوته للخطوِ فوق الدم أثناء الدخول. هذا العمل يقيم «ميثاق الدم» بين المضيف والضيف ويوحد بينهما. بالنسبة إلينا، كانت إحدى ألطف الدعوات وأكثرها حرارة حين نقول لضيف من بلدة بعيدة «إذا أنعم اللّه علينا بزيارة منك ذبحنا لك **ذبيحة**».

للتعبير عن فرحه العظيم بعودة ابنه، قام والد الابن الضال باستقباله كما يستقبل أعلى ضيوفه شأناً. فـ «العجل المسمّن» كان الذبيحة، وليس فقط الخروف، كميثاق جديد بين الوالد وابنه، الذي «كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجِد.[18]»

[17] الكرد: مقياس للحطب يساوي 128 قدماً مكعباً. (المحقق)

[18] لمعرفة سبب عدم ذكر والدة الابن الضال، أنظر فصل «ألزمهم بالدخول»، الصفحة 120، و فصل «بولس والمرأة» الصفحة 174

أما مَثَل «الكنز المخفي في حقل[19]» فيُلْمِحُ إلى ناحية مشوقة في التفكير السوري.
«أيضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مُخفى في حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل».

لا أرى مناصاً من العودة إلى المعلق المشهورْ آدم كلارك في هذا المجال. ففي تعليقه على هذا المثل يقول:

«ليس لنا أن نتخيل أن *الكنز* والذي يرمز به الإنجيل إلى الخلاص، هو *وعاء* أو صندوقٌ مملوء بالمال ومخبأ في حقل. المقصود هو منجم فضة أو ذهب، لا بد للذي يجده من قَلْبِ الحقل لكي يصل إليه، ولهذا فلا بد من شرائه. إن رأي السيد ويكفيلد حول هذا الموضوع هو غاية في الصواب حين يقول: «لاحاجة هنالك لشراء حقل من أجل وعاء مليء بالمال، كان يمكن له حمله بسهولة وبأمانة أكثر مما لو اشتراه من صاحبه بسعر بخس». من وجهة النظر هذه فلو كان المقصود *وعاء* ملؤه المال لكان يجب القول « كنز *مخبأ*» عوضاً عن القول « كنز*اً مخفياً*» وهو تعبير أدق لوصف منجم غني بالمعادن. والشيء نفسه ينطبق على كلمة *فأخفاه*، فهي تنطبق أكثر على موضوع الاكتشاف لحين إتمام الشراء، من كلمة خبأ التي لا معنى لها في هذا الإطار طالما أن الوعاء مخبأ بالدرجة الأولى، ولا أحد يعرف مكانه سواه».

لقد اضطررت إلى استعمال المزدوجين والكلمات بالحرف المائل للإشارة إلى انه متى غابت الحقائق الفعلية عن ذهن الإنسان، فإنه يقف عاجزاً أمام إغراء التلاعب بالألفاظ. ففي شرحٍ كالذي مرَّ معنا أعلاه، يصبح المَثَلُ وثيقة قانونية تتعرض كل كلمة فيها لإمعان النظر. فتتحول «مخفي» إلى «مُخَبَّأ» و «أخفاه» تحل محلها «خبأه» لكي يصبح الكنز مَنْجَماً فيه كمية عظيمة من المعادن ويتحول الفلاح السوري البسيط عن الفلاحة إلى صناعة التعدين.

إن حقائق هذا المثل تتناقض مع التفسير المعطى أعلاه. إني متأكد انه ما من رجل أو امرأة أو حتى طفل في سورية إلاّ ويفهم أن هذا المثل إنما يشير إلى كنز من الفضة والذهب أخفته أيد بشرية في الحقل. أما تخبط المعلِّق في معنى النص الأدبي، فلا عذر له.

لقد كان بإمكان كاتب الإنجيل أن يكتفي بالقول إن الرجل لديه من المعلومات *ما يجعله* يعتقد بوجود كنز مخفي في ذلك الحقل. بَيْدَ أن الشرقي لا يتكلم بمثل هذا الأسلوب و ليس من الإنصاف حرمان كاتب الأمثال من حرّية الشاعر والفنان لكي يتجنب مثل هذا التحايل على الكلام المقصود منه خدمة نظرية معينة.

بمقدوري أن أملأ كتاباً عن قصص الكنوز المخفية التي كانت تسحرني أيام

---

[19] متى 13: 44

طفولتي وأنا بعدُ في سورية. لقد كتبت بحثاً[20] مطولاً عن اختباراتي الشخصية في البحث عن الكنوز المخفية، والذي يُظهر بجلاء أن الحصول على هذه النعم ليس بالسهولة التي يعتقدها كاتب التعليق أعلاه. ولإظهار موقف السوريين في هذا الموضوع، فأني أضمن الفقرة التالية من البحث الذي كتبته :

«هناك اعتقاد سائد في سورية أنه بالإمكان العثور على الكنوز المخفية في أي مكان لاسيما حيث توجد الخرائب القديمة. يستند هذا الاعتقاد إلى حقيقة بسيطة مفادها أن قبائل سورية وعشائرها هي في حالة حروب مستمرة منذ ما قبل الزمن التاريخي الجلي، وأنها كانت تخبئ كنوزها في الأرض لاسيما عشية المعارك. إضافة إلى ذلك، وحيث أن الحروب في الماضي كانت حروب إبادة، فإن المقهور لم يكن ليعود لاستعادة ثروته المخبأة. وهكذا تحفظ الأرض في باطنها ثروات هائلة تملأ قصص التنقيب عنها البلاد من قاصيها إلى دانيها. قصص عن كنوز من الذهب وغيره من النفائس في جرار فخارية مختومة، يتم العثور عليها بطريق الصدفة في حائط بيت أو تحت شجرة مسكونة أو في المقابر. منذ الطفولة الباكرة ومثل هذه القصص تدغدغ مخيلة الناس فيكبرون وحواسهم متيقظة إلى أية إشارة عن إمكان العثور على كنز».

إن كاتب الأمثال لم يكن بحاجة لأن يشرح هذا الأمر لقرّائه الشرقيين. فمجرد ذكر الكنز المخفي كان كافياً ليفهموا المقصود من الكلام. لقد كان قصد الكاتب أن يطبع في مخيلتهم قيمة المملكة السماوية التي لا تقدر بثمن، والتي جاء المسيح ليعلنها للعالم.

[20] نُشر هذا البحث في مجلة آتلنتك منثلي سنة 1914، ثم نشره المؤلف في كتاب سنة 1920 بعنوان The Hidden Treasure of Rasmola (المحقق)

الفصل السابع

الحَلْف

لعل كثرة الحَلف هي أبرز مظاهر الكلام التي تُعرِّض الشرقي لتهمة عدم الصدق. ومع أن هذه العادة السيئة لا تعرف حدوداً جغرافية ولا فواصل عنصرية، فإن الشرقيين، وعلى الأرجح بسبب ميلهم للمبالغة والحدّة والتأكيد في الكلام، يستعملون الحلف أكثر من غيرهم بكثير. ولكن يجدر الانتباه إلى أن الحَلف في ذلك القطر من العالم لا ينظر إليه باستنكار وازدراء كما ينظر إليه في أميركانيا. فالحَلف باسم الآلهة يعتبر من أكثر الوسائل قدسية في تأكيد عبارة ما. ببساطة، إنها دعوة اللّه ليكون شاهداً على أن ما يقال هو الحقيقة المقدسة. لهذا يقول أبيمالك لإبراهيم «فالآن أحلف لي بالله ها هنا أنك لا تغدر بي ولا بنسلي وذريَّتي. فقال إبراهيم أنا أحلف[1]».

ويستعمل بولس الرسول هذا النمط من الكلام وإن بأسلوب مخفف انسجاماً مع تقليد العهد الجديد، فيقول في رسالته إلى رومية: «فأطلب إليكم أيها الأخوة *برأفة اللّه* أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدسة مرضية عند اللّه عبادتكم العقلية[2]». أما في مطلع الإصحاح التاسع من الرسالة نفسها فإن بولس ينجح، وبشكل لائق جداً، في عدم الحَلف إذ يقول: «أقول الصدق في المسيح. لا أكذب وضميري شاهد لي بالروح القدس».

[1] تكوين 21: 23، 24.
[2] رومية 12: 1

بشكل عام، يمكننا القول إن تقليد الحلَف على نمط العهد القديم لم يتغير في سورية منذ أيام إبراهيم. فالحلَف جزء أساسي من الكلام الشرقي. يرفع المتكلم عينيه ويديه صوب السماء ويقول: «وحق الله إن ما أقوله هو الحق والصدق. ***يشهد الله*** على صدق كلامي». وعلى المنوال نفسه، وكما نرى في أمكنة عديدة من العهد القديم، فإن القائل قد يُسأل من قبل المستمع أن يحلف بالله كتوكيد مقدس على صدق كلامه ومدى إخلاصه.

في القانون المحمدي، وهو القانون المعمول به في سورية العصرية، يحق للمدَّعي أن يأخذ المدعى عليه إلى أي مزار يختاره هذا الأخير، ويجعله يقسم ***اليمين*** كشهادة أخيرة على براءته. بهذا العمل، يضع المدَّعي خصمه في يد القاضي الأعظم الذي حكمه «صالح وقويم». أما اليمين الكاذب فيفترض أن ينزل أوخم العواقب على من يؤديه وعلى ذريَّته من بعده.

إن هذا النمط من الكلام هو على درجة عالية من الأهمية بحيث أن الإسرائيليين اعتقدوا بأن يهوه نفسه كان يقوم بمثل هذا التوكيد: «بذاتي أقسمت يقول الرب[3]». ويلقي الإنجيل المزيد من الضوء على هذه النقطة فنقرأ في رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين «فإنه لمّا وعد اللّه إبراهيم إذ لم يكن له أعظم يُقسم به أقسَمَ بنفسه[4]».

لا شك عندي في أن فكرة كون اللّه يقسم بذاته نابعة من تقليد متّبع لدى الأرستقراطيين الشرقيين. فهم إذا ما أرادوا التأكيد على تعهد أو صدق عبارة أو على النيِّة بالقيام بشيء خطير، يختمون كلامهم بالقول «أقسم برأسي». هذا الحلَف كان يملأني بالإعجاب كلما سمعته في أيام حداثتي. ونجد كلاماً شبيهاً لهذا في الإصحاح الثاني والستين من إشعيا «حلف الرب بيمينه وبذراع عزَّته[5]».

لدى المحمديين، يعتبر الحلَف «بالله العلي العظيم» و«بحياة النبي» و«بالقرآن الكريم» بعد كل عبارة تقريباً أمراً اعتيادياً وشائعاً جداً. أما المسيحيّون فيقسمون بالله والمسيح والعذراء والصليب والقديسين وقيامة الموتى والمدينة المقدسة والقربان المقدس والسماء والأعياد الكبرى وغيرها الكثير. فالأب يقسم بابن عزيز لديه، وأبناء الآباء المحترمين يقسمون بآبائهم. والقول «أقسم بحياة أبي أنني أقول الحق» تعبير شائع جداً. ويتّضح مدى قِدم هذا التقليد من كونه استعمل في سفر التكوين «وحلف يعقوب **بهيبة** أسحق أبيه[6]».

---

[3] تكوين 22: 16

[4] عبرانيين 6: 13

[5] إشعيا 62: 8

[6] **تكوين 53: 31. تجدر الإشارة إلى أن المؤلف يعلق على استعمال النص الإنجليزي لكلمة «مخافة» عوضاً عن كلمة «هيبة» فيقول** إن هذه الكلمة تؤدي المعنى الأصلي الذي ينقذه استعمال النص العربي لكلمة هيبة. ويضيف الكاتب أن يعقوب يقسم بما أحب من خصال أبيه وليس مما خاف. (المحقق)

أما ما يبدو للأميركانيين وكأنه أمر سخيف جداً، وأعني عادة الحلف باللحية والشارب، فإنه جزء من الحلف بالرأس. فالحلف بالشارب أو اللحية يعني الحلف بمدى التزام الرجل بكلامه. «أحلف بهذا»، يقولها الرجل بينما أصابعه تلامس طرف شاربه. أما الحلف باللحية فمن المفترض أن يكون له وزن أكبر إذ أن كبار السن من الرجال هم الذين يطلقون لحاهم. والتكلم بقلة احترام عن شارب رجل أو لحيته، أو شتم لحية والد شخص ما هو من الأمور التي غالباً ما تؤدي إلى نزاعات كبيرة.

تعود قدسية اللحية لدى الشرقيين إلى الماضي السحيق يوم كان شعر الرأس والوجه يعتبر مقدساً. وماتزال تربية اللحية في سورية تعتبر عملاً مهيباً إلى اليوم. وإذا أطلق رجلٌ لحيته ومن ثم عاد وحلقها، فأنه يصبح مثار هزء في مُتَّحَدِهِ. إن مجرد ذكر المقص أو الموسى في حضرة ملتح لاسيما إذا كان رجلاً من النبلاء أو من رجال الدين، يعتبر إهانة عميقة تؤدي في أغلب الأحيان إلى قتال. في سفر صموئيل نقرأ عمّا صنعه حانون بعبيد داود الذين ظنهم جواسيس. «فأخذ حانون عبيد داود وحلق أنصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط إلى أستاهِم ثم أطلقهم ولما أخبروا داود أرسل للقائهم لأن الرجال *كانوا خجلين جداً*. وقال الملك أقيموا في أريحا حتى تنبت *لحاكم* ثم أرجعوا[7]».

بسبب هذه النظرة القديمة إلى الشعر يحلف السوريون بالشارب واللحية وإن كان السواد الأعظم منهم لا يعرف السبب الحقيقي وراء ذلك. وإني لأذكر بوضوح مدى افتخاري حين لمست طرف شاربي لأول مرة، وهو بالكاد قد ظهر، وأقسمت به كما يفعل *الرجال*. واذكر، بكثير من الخجل، مدى الرعب الذي أَحْدَثَته فيَّ قهقهة الكهول من عشيرتنا عند رؤيتهم هذا المشهد.

يمكن الاستنتاج أن الحلف كان قد خسر الكثير من قدسيته الأساسية حتى في أيام المسيح لدرجة أنه أعطى أمره المتشدد «وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة. لا بالسماء لأنها كرسي الله. ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه. ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير[8]». ولعل هذه كانت أكثر وصايا يسوع صعوبة على تلاميذه.

[7] صموئيل الثاني 10: 4

[8] متّى 5: 34. (المحقق)


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الثامن

أربع خصائص

هناك العديد من خصائص الكلام عند السوريين. ولكنني سأحصر كلامي بأربع منها قبل الانتهاء من هذا القسم من الكتاب.

أولى هذه الخصائص هي في تعدد اللهجات الغنية بتعابيرها الزاهية. إن عدم وجود نظام عام للتعليم وندرة المؤسسات التربوية بشكل عام، ناهيك عن الافتقار إلى الكتب والدوريات، أضف إليها صعوبة المواصلات، كلها قد تضافرت لتبقي على التعدد الهائل في اللهجات المحكية في سورية. إن اللغة السائدة في البلاد هي العربية، وهي على نوعين: الفصحى، أو لغة العلم والمعرفة؛ والعامية، أو اللغة المحكية في حياة الناس اليومية. إن اللغة الفصحى هي واحدة، أما العامية فهي متاهة من اللهجات ولكل قسم من تلك البلاد ***لهجته*** الخاصة. وليس من المبالغة القول إنه لكل بلدة أو قرية لهجتها الخاصة لدرجة أن الأحرف الأبجدية تلفظ مختلفة بين منطقة وأخرى. ففي بعض المناطق يقال ***قام*** لفعل القيام، بينما في مناطق أخرى يقال ***آم***. كذلك الأمر بالنسبة إلى *المذكر*. ففي بعض المناطق يقال ***ذَكَرْ***، بينما في مناطق أخرى يقال ***دَكَرْ***.

من الواضح أن هذه الحالة كانت سائدة منذ أيام الإسرائيليين القدماء وحتى أيام العهد الجديد. ففي سِفر القضاة هناك سِجِلٌ لمعركة بين الجلعاديين والأفراميين نقرأ فيه: «فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرايم وكان إذ قال مُنْفَلِتُو أفرايم

دعوني أعبر. كان رجال جلعاد يقولون له قل إذاً شِبُّولت فيقول سِبُّولت ولم يتحفَّظ لِلَفظِ بحق. فكانوا يأخذونه ويذبحونه[1]».

وسيلة التعريف البسيطة هذه ماتزال تستعمل في سورية اليوم بالقدر ذاته من الفاعلية.

نجد مثلاً ساطعاً على خاصية الكلام الشرقي هذه فيما حصل لبطرس وهو في دار الكاهن الأعلى. « فمضوا بيسوع إلى رئيس الكهنة فاجتمع معه جميع رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة. وكان بطرس قد تبعه من بعيد إلى داخل دار رئيس الكهنة[2]». ونتابع بعد ذلك في الآيات(17-66) «وبينما أن بطرس في الدار أسفل جاءت إحدى جواري رئيس الكهنة. فلما رأت بطرس يستدفئ نظرت إليه وقالت وأنت كنت مع يسوع الناصري. فأنكر قائلاً لست أدري ولا أفهم ما تقولين. وخرج خارجاً إلى الدهليز... وبعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس حقاً أنت منهم لأنك جليلي أيضاً *ولغتك تشبه لغتهم*[3]. فابتدأ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه».

يا لَبطرس المسكين! لقد كان كلما زاد في لعناته وحَلفِه، كلما كشف عن هويته الحقيقة بشكل أوضح. لقد كان بإمكان جُبنه أن يخفي هويته لولا لهجته. فهو جليليٌّ ويتكلم بلهجة أهل الجليل في القدس. وهذا لَعَمري أَفْعَلُ من بطاقة هوية تعلن أن حاملها جليلي.

الخاصية الثانية هي اللجاجة شبه الصبيانية في التماس المعروف بمناسبة وبغير مناسبة. إن محاولات الحصول على نفوذ لم يُسْتَحَق، بل التوسل، بأكثر النبرات تأثيراً، هي عادة شرقية قد يجدها الأميركاني غير قابلة للاحتمال. هناك العديد من الأمثلة على ما أقول، ولكنني سأكتفي بذكر الحادثة التالية التي سمعتها من أحد أصدقاء أبي.

كان هذا الرجل قد اشترى من الكنيسة، بمبلغ قدره ستمائة قرشٍ، قطعة أرض وهبها أحدهم **كننر** لكنيستنا، كنيسة الروم الأرثوذكس. بعد أن سُلِم الرجل صك التعهد، وحصل على ملكية الأرض، خطر في باله أن السعر الذي دفعه كان غالياً، وانه بصفته ابناً للكنيسة كان يجب أن يحصل على الأرض بمبلغ أربعمائة قرش فقط. فنزل صاحبنا إلى بيروت، كرسي المطرانية، وبقي هناك ثلاثة أيام حصل خلالها، وبالتوسل المتواصل، على امتياز رؤية المطران أربع مرات متتالية لبحث الموضوع. في وقت لاحق، وبكثير من الجذل، أخبرنا الرجل أنه في اللقاء الرابع رفض أن يقوم من قرب قدمي المطران إلى أن استجاب الكَنَسي المسكين لطلبه تخلصاً من كثرة إلحاحه.

---

[1] قضاة 12: 6،5
[2] مرقس 14: 53.
[3] أنظر أيضا متى 26: 73

إن مَثَلَ قاضي الظلم في بشارة لوقا يقدِّم النموذج الصارخ على هذه الخاصّية. «كان في مدينة قاض لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً. وكان في تلك المدينة أرملة. وكانت تأتي إليه قائلة انصفني من خصمي. وكان لا يشاء إلى زمان. ولكن بعد ذلك قال في نفسه وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني أنصفها *لئلاّ تأتي دائما فتقمعني*[4]».

في هذه الحالة، وهي غير نادرة الحصول في تلك البلاد، نجد قاضياً يعطي حكماً بعكس قناعته لضرورة الدفاع عن النفس! ويمكنني القول، وأنا الخبير بتلك الميول الشرقية لاسيما لدى النساء الأرامل: إنني أتعاطف مع قرار القاضي.

بَيْدَ أن هذا الإلحاح في التوسل إلى أبي البشر هو الذي أعطى البشرية تلك المزامير النبيلة، والابتهالات الواهنة التي نجدها في الكتب المقدسة. إن هذا الإلحاح في التوسل البنوي، بل واللجاجة فيه، هو الذي جعل الإسرائيليين يعودون إلى «إله الحق» مرة تلو الأخرى صارخين: «لقد ارتكبنا المعصية» متوسلين وحياً أعمق يريهم طرق الرب. إن صرخة أيوب «حتى ولو قتلني فإني أثق به»، ربما لاتكون لغة آداب المعاشرة العصرية السليمة، ولكنها من دون أدنى ريب اللغة الدينية السليمة. لقد أعطى يسوع تلاميذه مثل الأرملة الذي ألمحنا إليه أعلاه وإلحاحها كوسيلة للحصول على البركة من السماء، وعلى تبرئة من الديَّان القويم. على طالبي العطايا الروحانية ألاّ ينفروا من تقليد هذا الأسلوب الشرقي. عليهم ألاّ يخافوا الطلب إلى أبيهم السماوي المرة تلو المرة للحصول على بركته الكريمة، ولا يمتنعوا عن «اقتحام أبواب السموات بصلواتهم».

الخاصية الثالثة في الكلام الشرقي تكمن في إلفَتِهِ وعدم تحفظه. إن مجرد التلميح، كما هو شائع في الكلام المتحفظ والمحترس، يترك فراغاً كبيراً في نفس الشرقي. لهذا يطلب الشرقيون دائما «علامات وعجائب» ويفسرون الظواهر الطبيعية على أنها اتصالات عجائبية مباشرة مع الله يطمئنهم من خلالها إلى غيرته عليهم. فجدعون كان يكلم يهوه نفسه الذي كان قد وعده بأن يخلص أبناء عشيرته من الميديانيين، ولكننا نراه، بالرغم من ذلك، يطلب منه علامة ملموسة وأكيدة على تعهده «وقال جدعون لله إن كنت تخلص بيدي إسرائيل كما تكلمت فها إني واضع جزَّة الصوف في البيدر فإن كان طِلٌ على الجزّة وحدها وجفاف على الأرض كلهّا علمت انك تخلص بيدي إسرائيل كما تكلمت. وكان كذلك[5]». ولكن جدعون على ما يبدو لم يكتف، فيطلب ثانية ببساطة وإلفة «لا يحم غضبك عليَّ فأتكلم هذه المرّة فقط. أمتحن هذه المرة فقط بالجزّة. فليكن جفاف في الجزّة وحدها وعلى كل الأرض طِلٌ. ففعل الله كذلك في تلك الليلة».

[4] لوقا 18: 2-5
[5] قضاة 6: 36

إنه لأمر طبيعي في سورية أن يطلب الأصدقاء الخلَّص من بعضهم بعضاً علامات تأكيد على عاطفتهم ومحبتهم، وأن يحصلوا على هذه العلامات، والتي هي كخمرة الحياة بالنسبة إليهم. فحين يريد الواحد الاطمئنان إلى ثقة الآخر، أو طلب أمر مهم منه، فإنه يتحول إليه بعينين ملؤهما العاطفة البريئة ويقول: «إنك تحبني. أنا أقول إنك تحبني، أليس كذلك؟». فيجيبه الآخر: «يا روحي، ويا عينيَّ، أنت تعرف ما بقلبي تجاهك، أنت تعلم والله يعلم!». عندها يقوم الأول بعرض مسألته.

إن ذلك المقطع من الإصحاح الحادي والعشرين من بشارة يوحنا، الذي يتكلم فيه يسوع مع بطرس بتلك المودة السورية، لهو واحد من ألطف وأنبل مقاطع العهد الجديد، والذي يستمد المرسلون والمبشرون من روحه قوة لهم على مر العصور. كم هي طبيعية وأليفة كلمات كهذه على الأذن الشرقية! «فبعدما تغدّوا قال يسوع لسمعان بطرس يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟». وكم كان طبيعياً رد بطرس: «قال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك». عندها وَرَدَ الطلب المهم «ارعَ خرافي». ثلاث مرات قرع يسوع على بوابة قلب بطرس إلى أن صرخ التلميذ المسكين المندفع «يا رب أنت تعلم كل شيء. أنت تعرف إني أحبك. قال له يسوع ارع غنمي[6]».

أما الخاصية الرابعة لكلام الشرقي فهي الثقة القاطعة التي تصبغ كلامه. فخارج دائرة قلّة من السوريين المتفرنجين، لا يسمع المرء تعابير مقيِّدَة مثل «برأيي»، أو «على ما يبدو لي»، أو «كما أرى الأمر»، الخ... فهذه التعابير غائبة عن كلام الشرقي الذي لا يأخذ جانب الحذر في كلامه كما فعل رئيس تحرير إحدى النشرات الدينية حين كتب عن قايين إنه «*القاتل المزعوم* لهابيل»! مثل هذه التعابير لا تستعمل في الكتاب المقدس إلا مانْدر، وفي العهد الجديد تحديداً حيث يظهر التأثير اليوناني بشكل بارز. مَثَلٌ على ذلك قول بولس في الإصحاح السابع من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «*فأظن* أن هذا حسنٌ لسبب الضيق الحاضر[7]». وليس على حد علمي أن مثل هذا التعبير مستعمل في العهد القديم على الإطلاق.

إن لغة الشرقي هي لغة اقتناع وعاطفة وليست لغة فكر اختصاصي وتمييزي عال. فحين تقول للشرقي: «إنني أعتقد بأن هذا الشيء جميل»، وكان هو يعتقد العكس، يجيبك «كلا إنه ليس جميلا». فمع أنه يعبر عن رأيه الخاص، فانه لا يتجشم عبء إعلان ذلك. فإن كان الشيء لا يبدو جميلاً له، فإنه *ليس* جميلاً.

إذا نظرنا إلى هذا النمط من الكلام من وجهة نظر فكرية واجتماعية، فقد نحكم أن هناك خللاً فيه. ولكن الأطفال يعبّرون عن ذواتهم بالأسلوب ذاته. إن العقل الشرقي هو عقل النبي والرائي وليس عقل العالم والفيلسوف. إنه العقل الأكثر ملاءمة لنقل الوحي الربّاني، وهذا ما لا يجب إغفاله.

[6] يوحنا 21: 15 (المحقق)
[7] كورنثوس الأولى 7: 26

حين يمتلك الرائي رؤية حول الأمور الأبدية، فإنه لا يعبر عنها بصيغة افتراض أو تساؤل، ولا ينقلها باحتراس وتخوف فكريين. «هكذا يقول الرب». «كلام الرب عليَّ قائلٍ أنطق يا ابن الإنسان» فحين نتكلم عن أعمق حقائق الحياة لا نُرصِّع خطابنا بالجُمل الشرطية. فالكلام عن الحب الحقيقي والحزن العميق والرؤى الحقيقية للأمور الروحانية لا يحتمل الجمل الاحترازية بل يتطلب، وبقوة لا تقاوم، الكلام الذي لا لُبس في تعبيره وفي مدى سلطانه.

فلنأخذ مثلاً إعلان يسوع الذي لا يضاهى: «روح الربِّ عليَّ لأنه مَسَحَني لأبشر المساكينَ أرسلني لأشفي المنكسري القلوبِ لأناديَ للمأسورين بالإطلاق وللعُمى بالبصر وأُرسِلَ المنسحقين في الحريّة وأكْرِزَ بِسَنَةِ الربِّ المقبولة[8]». كيف كان لهذه العبارة أن تبدو لو غلفناها بالتعابير اللطيفة الحذرة التي يبرع باستخدامها المفكرون العصريّون؟ ما مدى القوة التي تبقى لها لو كتبت على المنوال التالي: «يبدو لي، وإن كان من الممكن جداً أن أكون مخطئاً، أن ثمة شيئاً مما قد يمكن لنا دعوته-روحِ الرب- قد حلَّ عليَّ، وأشعر بأنه من واجبي، وبضمن إمكانياتي المحدودة جداً، أن أكرزَ بالبشارة»؟

بالطبع، فإن التأكيد العقائدي الجازم المتهور على منابر الوعظ لا حكمة فيه، ولا هو بالأمر المرغوب. ولكن في الوقت نفسه لا بد من الاعتراف بأن الوعَّاظ اليوم يعانون من علة الحذر الزائد على اللزوم. فهناك العديد ممن يقيّمون الأمور من وجهة نظر فكرية لا روحانية. من هنا نرى هذا الحذر في التعبير الذي يهدد روح النبوءة وسلطة التجربة الروحية الحقيقية لدى المعلمين الدينيين اليوم. إنه لمن غير المقبول أبداً أن ينحط الحذر الفكري الشرعي إلى جبن روحاني، ولا أن تطفئ معرفة الأمور الخارجية من جذوة النبوءة التي في الروح. ومما لا شك فيه أن ثمة عبرة في الرواية التالية عن الواعظ الذي لم يشأ أن يتفوه بعبارات متهورة فوعظ رعيته عن ضرورة التوبة بقوله: «إن لم تتوبوا، إذا جاز التعبير، وتهتدوا، إلى درجة ما، فإنكم إلى حد ما، ستلاقون الهلاك». إن الرعية التي لها واعظ كهذا مصيرها الهلاك بكل تأكيد. أين هذا من قول المعلم: «الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مِثْلَ الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات[9]».

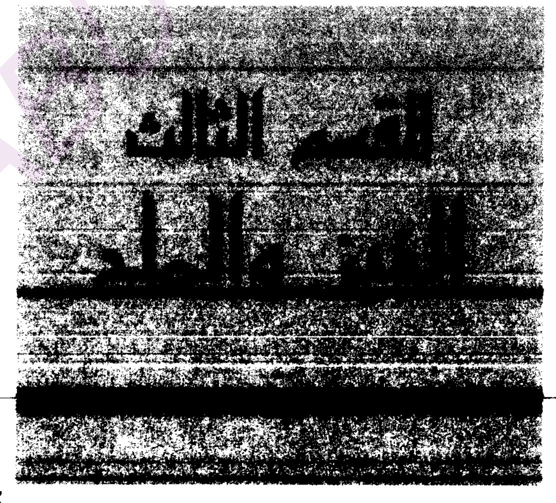
إن ما يبدو وكأنه ضعف في نمط الكلام الشرقي وفي الكتاب المقدس هو في الواقع قوة روحية عظيمة. فعبر نصوصنا المقدسة نسمع أصوات أولئك الأنبياء الشرقيين الذين تكلموا كما رأوا وشعروا؛ كأنبياء وليس كأهل منطق. وإنه لمن الحظ السعيد لهذا العالم أن يكون الإنجيل قد كُتب في وقت كان الإنسان مايزال يستمع إلى صوت اللّه بالفطرة، وفي بلاد قامت أنماط الكلام البريئة فيها بحماية حقائق الإنجيل العامة «على وعورتها»، من المؤثرات الفكرية المبالَغ في أهميتها.

---

[8] لوقا 4 18

[9] متّى 18 :3


ABU ABDO ALBAGL


القسم الثالث


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الأول

العيش المقدس

«للخبز والملح» معنى مقدس عند الشرقي. فالقول «يوجد بيننا خبز وملح»، وهو قول سائد منذ الزمن الغابر، يعني «أننا مترابطون فيما بيننا بميثاق مقدس». وإذا قيل عن أحدهم «إنه لا يعرف قيمة الخبز والملح»، فهذا يعني دمغه بصفة المنحطّ الجاحد للجميل.

الخصم الشهم يرفض أن «يذوق ملح» خصمه، أي أن يأكل معه إن لم يكن على استعداد للصلح معه. فهذا الخصم يتهيب فكرة نقض الميثاق الذي يكوِّنه كَسْرُ الخبز معاً بين الطرفين. هناك تقليد مايزال معمولاً به في سورية، وإن يكن في المناطق الريفية أكثر منه في المدن، يقضي بألاّ يأكل رجل جاء في طلب شيء مهم في بيت مضيفه قبل عرض الغرض الذي في سبيله جاء. والمغزى هو ألاّ يدخل الاثنان في ميثاق «الخبز والملح» قبل أن تتضح نوايا المضيف تجاه الطلب. فإن استجيب الطلب يكون الطعام بمثابة التأكيد الأخوي على ما تم الاتفاق عليه. هذا ما نقرأه في سفر التكوين حيث يرفض خادم إبراهيم،الذي كان قد توجه إلى مدينة ناحور في بلاد ما بين النهرين، ليطلب عروساً لإسحاق ابن معلمه من بين أهل عشيرته،أن يأكل في بيت لابان قبل أن يعرض ما جاء في سبيله. بعد أن يستمع أخو رفقة إلى رواية أخته، يتجه إلى خادم إبراهيم المخلص ويدعوه بألطف عبارات الضيافة الشرقية «ادخل يا مبارك الرب. لماذا تقف خارجاً وأنا قد هيأت البيت ومكاناً للجمال. فدخل الرجل إلى البيت... وَوُضِعَ قدامه ليأكل. *فقال لا آكل حتى أتكلم كلامي*». ولكن بعد عرض

الطلب والموافقة عليه، «أخرج العبد آنية فضة وآنية ذهب وثياباً وأعطاها لرفقة... *فأكل* وشرب هو والرجال الذي معه[1]».

من بين جميع أعدائه، رأى كاتب المزمور الواحد والأربعين أن أسوأهم هو «الصديق العشير» الذي نكث بعهده. فيصرخ «أيضاً رجل سلامتي الذي وَثَقْتُ به آكلُ خبزي رفع عليَّ عقبه[2]».

لقد ولدت في عائلة سورية ونشأت على الاعتقاد بأن للخبز قيمة غامضة مقدسة. وهكذا يستحيل عليَّ أن أدوس على كسرة خبز وقعت على جانب الطريق، بل ألتقطها وأقبلها بخشوع، وأضعها على حائط بحيث لا تدوسها الأقدام.

من تقاليد بني قومي التي أعتبرها غاية في النبل، عادة احترام *العيش* (العيش، أي الخبز، يعني حرفيا «واهب الحياة»). فكنا لا نقف لضيف أثناء كسرنا للخبز مهما علت مكانته الاجتماعية. أما عذرنا في عدم تقديم واجب الاحترام الذي تقتضيه تقاليدنا الشرقية، قبل فراغنا من الطعام، وسواء أعلناه أم لا، فهو ***حرمة العيش***. بالطبع كنا دائماً نلح على دعوة الضيف إلى تناول الطعام معنا.

طوال سنوات، كنت أحمل على الأقل مرة في كل سنة، ***القربان*** (تقدمة الخبز) إلى **مذبح** كنيسة قريتنا كتقدمة من أجل راحة نفوس موتانا ومن أجل طمأنينتنا الروحية. وكان الخبز أحد عناصر القربان المقدس. وفي نهاية القدّاس، كان الكاهن يختتم الخدمة بأن يقدم قطعاً صغيرة من الخبز المكرّس لأبناء الرعية. فالإنجيل يُعلّم أن المسيح هو أيضا «خبز الحياة».

لقد كان *العيش* أكثر من مجرد مادة. فبمقدار ما كان يحفظ الحياة، كان هو حياة اللّه نفسها تجسدت ملموسة لكي يتغذى منها ابنه، الإنسان. فالعلي العظيم هو الذي يطعم جوعنا. ألم يقل صاحب المزامير «أنت تفتح يدك فتُشبع كل حي رضي[3]» أنّى لنا خبزنا اليومي إن لم يكن من عند اللّه؟

---

[1] تكوين 24: 53-54. إن كلمة «شرب» التي غالباً ما ترافق كلمة «أكل» في الإنجيل لا تعني بالضرورة شرب الخمر. فالتعبير «الأكل والشرب» يستعمل في سورية للدلالة على المأوى. فرب العمل يقول للعامل «أدفع لك كذا وكذا مع (أكلك وشربك)» والشرب في هذه الحالة ربما لا يكون سوى الماء.

[2] مزامير 41: 9

[3] مزامير 145: 16

الفصل الثاني

«خبزنا اليومي»

كثيراً ما سمعت من المتدينين العصريين في هذه البلاد إن القول «أعطنا خبزنا كفاف يومنا» في الصلاة الربانية، ما هو سوى توسل شحاذ كسول. ويذهب بعضهم إلى حد المطالبة بإلغاء هذه الكلمات من الصلاة مستندين في ذلك إلى كونها تتعاطى «بالأمور المادية». «على أية حال»، يقول هؤلاء، «إن الخبز اليومي لا يمكن الحصول عليه إلا بالعمل».

بالطبع! ولكن الشرقي الذي يفهم هذه الأمور البدهية كلها يدرك أيضاً أنه حين يعمل في سبيل خبزه اليومي فإنه لا *يخلقه*، بل يجده. فالدعاء «أعطنا خبزنا كفاف يومنا»، ما هو سوى تعبير عن خالص التقدير «لواهب جميع الأشياء الحسنة والخيّرة». فالشرقي لا ينظر إلى «الأمور المادية» كما ينظر إليها الغربي، ولا يستبدل الله بالكيمياء العضوية. فحياته بكليّتها تتمحور حول الله ونقطة الارتكاز بالنسبة إليه هي المذبح وليس المصنع. أما دعاؤه للخبز اليومي فوراءه أجيال من التأمل الصوفي. إن الشرقي لا يطلب القربى مع الذين لا يطلبون الخبز سوى في المخبز، بل مع كاتب هذا المزمور الحديث:

«وراء الرغيف طحين أبيض
ووراءه حجر الرحى
ووراء الطاحونة القمح والمطر
والشمس ومشيئة الله».

ليس الهدف من هذا الكلام المبالغة بتقوى الشرقي واستقامته الأخلاقية. فإنني أدرك البون الشاسع الذي يفصل بينه وبين السمو إلى ذرى تقاليده الأنبل. بالرغم من ذلك، فان الذين يعرفون داخلية حياة الشرقي يدركون أنه منذ اللحظة التي ينثر فيها البذار وإلى حين الحصاد، وحتى وصول رغيف الخبز إلى مائدته، فإن نظرته إلى «عكّاز الحياة» هي نظرة دينية بالأساس. فعلى اسم الله يرمي بذوره في التراب؛ وباسم الله يقحم منجله في الحصاد اليانع؛ وباسم الله يبعثر سنابله على البيدر ويطحن حبها في الطاحونة؛ وعلى اسم الله تعجن زوجته العجين وتخبز الخبز وتقدمه لعائلتها.

في طفولتي، كان «يوم العجن» في بيتنا يوماً ذا أهمية خاصة بالنسبة إليّ. فإذ لم يكن لطفل مثلي في تلك الأيام ألعاب وكتب يتلهى بها، كنت شغوفاً بمراقبة أمي أثناء قيامها بالعجن. وكانت كلماتها وحركاتها المليئة بالخشوع تجعل من العجن احتفالاً دينيّاً.

فبعد البسملة ورسم إشارة الصليب، كانت تأخذ كمية الطحين المناسبة من فتحة صغيرة في أسفل الكوّار الفخاريِّ الكبير حيث يخزن الدقيق الثمين. لقد كان كوّاراً كهذا الذي أخذت منه أرملة «صِرْفَةَ التي من صيدون»... «ملء كفٍ من الدقيق» هو كل ما كان عندها وخبزت منها كعكة لإيليا النبي. والتي من أجلها كافأها إيليا بدعائه «أن كوّار الدقيق لا يفرغ[1]».

بعد ذلك، كانت والدتي تضع الدقيق على شكل هلال في جانب من ***المعجن***، وهو إناء فخاري قطره حوالي الثلاثين بوصة. ثم تذيب الملح في كمية من الماء الدافئ وتصبها إلى جانب الدقيق. ومع عبارة «بارك يا الله» كانت تأخذ الخميرة، وهي كتلة صغيرة من العجين السابق تُدفن في قليل من الدقيق لكي لا تفسد، أي لا تتخمر أكثر من اللزوم، فتذيبها في الماء المالح برويّة، ثم تخلط المزيج مع الدقيق وبهذا تكون قد «خبأت الخمير في الدقيق». هذه هي العملية التي يصفها يسوع باختصار في الإصحاح الثالث عشر من بشارة متّى «يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع[2]».

بعد الانتهاء من العجين كانت الوالدة تملِّس سطح الكتلة المباركة، وتغمس يدها في الماء ومن ثم ترسم بحافة يدها صليباً عميقاً على طول قطر المعجن، ثم ترسم إشارة الصليب على وجهها ثلاث مرات فيما هي تتمتم بالصلاة والأدعية، وتغطي الوعاء وتترك العجين لينتفخ. هذا الخشوع كان يرافق عملية صنع الأرغفة الصغيرة من العجين المنتفخ، وأثناء الخبز، وكلما مدت الوالدة يدها إلى مخزن الأرغفة لتقدم الخبز لعائلتها.

[1] الملوك الأول 17: 8-16 (المحقق).
[2] متّى 13: 33. (المحقق)

هل يمكن بعد هذا الوصف أن نعتبر دعاء هذه المرأة، «أعطنا خبزنا كفاف يومنا»، شيئاً غريباً عنها أو خارجاً عن نطاق حياتها اليومية؟ هل يمكن لنا أن نقبل الهبة وننسى الوهّاب؟ مهما بدا طريقنا إلى خبزنا متعرجاً، فلا شك عندنا في أننا نتغذى من حياة الله. «للرب الأرض وملؤها[3]».

إن الأفران الحديدية لم تكن معروفة عند السوريين أيام طفولتي. وحتى اليوم، فإن هذه الأداة العصرية لم تنتشر كثيراً خارج دائرة بعض الأثرياء في المدن الكبيرة. أما السواد الأعظم من الشعب فما يزال يخبز في أفران شبه مشتركة تدعى التنّور، يوجد في كل قرية عدد منها. يذكر الإنجيل مكان الخبز هذا في أكثر من مكان. ولكن مصطلح «الفرن» المستعمل في الترجمة الإنجليزية لا يفي بالمقصود. ذلك أن ***التنّور*** (المُترجَم «فرناً» في الإنجيل) غير معروف للناطقين بالإنجليزية بل حتى للغرب كله. ***فالتنور*** كناية عن نفق طينيٍّ قطره ثلاثة أقدام وطوله حوالي الخمسة، يُحفر له في الأرض ضمن كوخ حجري صغير. تتناوب النسوة على الخبز في التنور وفق نظام يُخصص لكل عائلة يوماً من أيام الأسبوع. يتراوح عدد الأرغفة في الخبزة الواحدة بين المائة والمائتين رغيفاً. أما الوقود المستعمل فيتألف من الأغصان الصغيرة والشوك والقش التي ترمى في *التنور* بكميات كبيرة. إلى هذا الوقود أشار يسوع في المقطع الذي يقول فيه: «فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم *ويطرح غداً* في التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحري جداً يلبسكم أنتم يا قليلي الأيمان[4]».

كلما تذكّرت منظر التنور المشتعل يصبح من السهل عليّ تخيل ما قصده رجل الدين القديم بقوله «الحفرة المشتعلة». فكتل الدخان الأسود التي كانت تخترقها بين الفينة والأخرى ألسنة من اللهب، كانت تحوِّل فضاء الكوخ الصغير الذي لا مدخنة له إلى فوهة بركان مشتعلة.

أي إنسان يرى مثل هذا المنظر ويعجز عن فهم ما عناه النبي ملاخي بقوله «فهوذا يأتي اليوم المتّقدُ كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً[5]». وأي شخص يرى السخام الأسود الملتصق إلى سقف ذلك التنور وحيطانه ويعجز عن فهم مرثية إرميا «جلودنا اسودت كتنور من جَرَى نيران الجوع[6]».

إن الخَبزة الكبيرة هي مصدر فخر وأمان. فالزوجة السورية تفتخر باستعمال التنور لوحدها لمدة يوم بكامله. وانه لعار، لا بل ولعنة أن تكون الخَبْزَة صغيرة، وأسوأ من ذلك أن تضطر العائلة لشراء الخبز بكميات صغيرة «وزنة واحدة» في كل مرة. فأحد أرهب التهديدات ضد إسرائيل هو الذي يرد في سفر اللاويين: «بكسري لكم

---

[3] مزامير 24: 1 (المحقق)

[4] متّى 6: 30. (المحقق)

[5] ملاخي 4: 1

[6] مراثي إرميا 5: 10

عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون[7]». لقد كانت الوالدة غالباً ما تنصحنا بأن نكون من الشاكرين لأننا لسنا كأولئك الذين يشترون خبزهم بالوزن، أي بكميات قليلة.

قد يفسر بعضهم القول «ويرددن خبزكم بالوزن» على أنه يعني وزن الحصص التي يحصل عليها كل عضو في العائلة بما يضمن العدالة في توزيع القليل المتوفر من الطعام. غير أنني لم أعرف في حياتي مثل هذا التقنين في توزيع الطعام في عائلتنا، علماً أنه لم تحدث مجاعة حقيقية في سورية بما يمكنني تذكره. غير أنه يوجد تقليد قريب من هذا تتبعه القبائل العربية في قسمتها لموارد الماء أثناء تجوالها في الصحراء. فلضمان المساواة، تُوضَعُ حصاة في قعر كوب خشبي صغير تصب فيه الماء، فيكون نصيب كل مسافر، وبعد سفر مسافة كبيرة، «ما يغمر الحصاة» أي كمية من الماء بالكاد تغطي الحصاة التي في الكوب.

[7] لاويين 26: 26

الفصل الثالث

«ألزِمْهُمْ بِالدُّخُول»

إن حسن الضيافة عند الشرقيين هو مَضرب مثل في العالم قاطبة. وفي حين قد يكّون بعض الغربيين فكرة مغلوطة عن كرم الشرقي، فالشرقي مشهور بسرعة استعداده لتقديم المأوى لعابر السبيل ولمشاركته خبزه وملحه. والذي لا يقوم بواجب الضيافة هذا، يعرض نفسه وبلده وعشيرته للخزي.

سواء كان الوافد صديقاً أو غريباً، فإن الرجل هو الذي يقوم بواجب حسن الوفادة وليس المرأة. فالدعوة أولاً تتم باسم رب البيت وحده. فإن كان غائباً، فباسم ابنه البكر. وفي حالة الأرملة التي لا أبناء لها، تتم الدعوة باسم قريب لها يقوم عنها بواجب الضيافة. وعلى الرجل ألاّ يسمح لعابر سبيل بأن يمر به من دون أن يعرض عليه «كسرة خبز يهدأ به قلبه». هكذا دعا إبراهيم الغرباء الثلاثة الغامضين الذين مرّوا به عند بلوطات مَمْرا، «فرَفَع عينيه ونظر وإذ ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كُنتُ قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخَذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة. فآخذ كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ثم تجتازون[1]».

كم هو طبيعي ومن طبيعة السوريين هذا الكلام! إن ساره لم تشعر بالإهمال لأن إبراهيم لم يقل «إنه ليسرنا، ساره وأنا أن تتناولوا طعام الغذاء معنا، إن استطعتم إلى ذلك سبيلا». على العكس، لقد كان شرف لها أن اسمها لم يذكر في الدعوة.

[1] تكوين 18: 2

في مَثَلِ الابن الضال في بشارة لوقا نرى مثلاً آخر على ما نقول. فحين عاد الابن الضال إلى منزل أبيه، مدقعاً وتائباً، كان والده هو الذي ركض خارجاً ليلاقيه و «وقع على عنقه وقبّله». الوالد هو الذي أعطى الأمر لعبيده قائلاً: «أخرجوا الحلة الأولى والبسوه واجعلوا خاتماً في يده وحذاء في رجليه. وقدموا العجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح[2]». إني أعلم حق العلم أن فرحة والدة الابن الضال بعودة ابنها لم تكن لتقل عن فرحة زوجها، وأن ترحيبها به لم يكن ليقل عن ترحيبه. ولكن انسجاماً مع أفضل تقاليد الشرق، فإن الإنجيل لا يذكرها دون أن يعني ذلك وجود نية مبيتة لإهمال الوالدة الصالحة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ذكر مريم ومرتا في الإنجيل كصديقتين ومضيفتين ليسوع عائد إلى أن يسوع لم يكن ضيفاً فحسب بالنسبة إلى هاتين المرأتين، بل القديس والنبي المرتجى. بناء عليه، فإن يسوع كان شخصاً فوق العادة. ولكن بالرغم من هذا، فإن يسوع لم يأخذ معه أية امرأة، صديقة كانت أم تلميذة، إلى أي من المناسبات العظيمة كالتجلي أو العشاء الأخير.

إن تقديم واجب الضيافة على المنوال السوري ليس بالأمر الهيِّن. فالاختصار في الدعوة في مناسبة كهذه هو البخل بعينه. إن المبالغة الشرقية والحدّة في الكلام تزهوان بأبهى حللهما في دعوة الضيوف. فالدعوة الأميركانية المختصرة، «إنه ليسعدني دعوتك للعشاء معي، إن استطعت»، تبدو للشرقي وكأنها محاولة للتخلص من واجب الضيافة. وفي الوقت نفسه، يرى الشرقي أن القبول السريع لدعوة إلى العشاء في الغرب هي من مظاهر عدم الوقار. فمع أن المدعو يستطيع القبول، فإن عليه واجب القول «لا، لا أستطيع»، بمقدار ما يلح الداعي بقوله «نعم يمكنك ذلك».

وحين يريد سوري دعوة من يرغب باستضافته، فإنه يشاغله بحوار كالنموذج التالي الذي يتميز بحدة العواطف التي من الصعب جداً نقلها إلى الورق:

«**شرفنا** بحضورك».

«**نتشرف**، ولكنني لا أستطيع القبول».

«غير ممكن».

«لا واللّه ممكن».

«***أقسم عليك***، بصداقتنا وبحياة اللّه، أريد أن أجعل بيننا خبزاً وملحاً».

«أقسم أنا أيضاً أن ***هذا غير ممكن***. خبزك وملحك معروفان للجميع».

«أعملها كُرمى لنا. فبيتنا هو بيتك، اسمح لنا أن نرد ***فضلك***».

«***أستغفر اللّه***، لم نقم بما يستحق الذكر».

---

[2] لوقا 15: 22

هنا يمسك المضيف بذراع ضيفه ويجره بالقوة إلى منزله صائحا «مش ممكن خلّيك تفل» (أي أدعك تذهب). عندها، فإن الضيف الذي يسره أن يكون قد غُلِب «بشرف»، يقبل الدعوة.

هل تفهم الآن مغزى ما ورد في الإصحاح الرابع عشر من بشارة لوقا؟ «إنسان صنع عشاء عظيماً ودعا كثيرين. وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين تعالوا لأن كل شيء قد أعدّ. فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون، فقال السيد للعبد أخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي[3]».

كذلك فعلت ليديا، «بياعة أرجوان في مدينة ثياتيرا»، حين دعت الرسل الذين عمّدوها في الإيمان الجديد إلى بيتها، «فلما اعتمدت هي وأهل بيتها طلبت قائلة إن كنتم قد حكمتم أني مؤمنة بالرب فادخلوا بيتي وامكثوا. *فألزمتنا*[4]».

في القرى والمدن النائية في سورية، مايزال التقليد بأن أي غريب يصل إلى البلدة في آخر النهار يذهب إلى ***ساحة*** البلدة، فيكون ضيفاً على أهلها. والساحة هي بمثابة مشاع في القرية. ومع أن النسخة الإنجليزية من الإنجيل تطلق اسم الشارع على الساحة، فإن الشوارع غير معروفة في القرى السورية. على أول من يرى عابر السبيل واجب استضافته في منزله على طقس الضيافة السوري. فإن لم يفعل فإنه يجلب العار، ليس فقط على نفسه، بل على أبناء بلدته جميعاً. بالطبع، لا يمكننا أن نتوقع أن يكون الجميع على المستوى المطلوب من الامتثال للتقاليد العريقة حتى في الشرق حيث نرى بعض الحالات التي يُكسر فيها قانون الضيافة.

ففي سفر القضاة، نقرأ قصة غريب جلس في ***ساحة*** بلدة ولكنه لم يُمنح الضيافة المعهودة بالسرعة المطلوبة. هذا الرجل كان لاوياً في طريقه من بيت لحم إلى «عقاب جبل إفرايم»، وكانت معه زوجته وخادمه وحماران. «وغابت لهم الشمس عند جبعة التي لبنيامين. فمالوا إلى هناك لكي يدخلوا ويبيتوا في جبعة. فدخل وجلس في ساحة المدينة ولم يضمهم أحد إلى بيته للمبيت. وإذا برجل شيخ جاء من شغله من الحقل عند المساء. والرجل من جبل إفرايم وهو غريب في جبعة ورجال المكان بنياميون. فرفع عينيه ورأى الرجل المسافر في ساحة المدينة فقال الرجل الشيخ إلى أين تذهب ومن أين أتيت. فقال له نحن عابرون من بيت لحم يهوذا إلى عقاب جبل إفرايم... وأنا ذاهب إلى بيت الرب ليس أحد يضمني».

وليزيد في عار المدينة يضيف الرجل قائلاً: «وأيضاً عندنا تبن وعلف لحميرنا وأيضاً خبز وخمر لي ولأَمَتِكَ وللغلام الذي مع عبيدك ليس احتياج إلى شيء». يا له من توبيخ للمدينة!

---

[3] لوقا 14: 16-23
[4] أعمال 16: 15

«فقال الرجل الشيخ السلام لك. إنما كل احتياجاتك عليَّ ولكن لا تبت في الساحة. وجاء به إلى بيته وعلف حميرهم فغسلوا أرجلهم وأكلوا وشربوا[5]».

هذا الرجل أنقذ سمعة البلدة.

وهناك آية من أجمل وألطف ما يُقرأ في سفر أيوب، حيث يقول البطرك المريض في ابتهاله لله أن يفك عنه المرض: «غريب لم يبت في الخارج. فتحت للمسافر أبوابي[6]».

إن قواعد الضيافة السورية تمنع رب البيت الذي يحل عليه ضيف فجأة أن يسأله ما إذا كان قد تناول الطعام أم لا، قبل أن يضع الطعام أمامه. فالضيف، حتى ولو لم يكن قد تناول الطعام، يعتبر أن في الإجابة بالإيجاب حطاً من قدره. وبالتالي، فحين يحل زائر كهذا يرحب به رب البيت بكلمتين تصعب ترجمتهما إلى الإنجليزية هما ***«أهلاً وسهلاً»***. أما معناهما فهو «لقد حللت ليس بن غرباء بل بين أهلك، حيث تسير على أرض سهلة». وبينما الرجل يرحب بضيفه بمثل هذه العبارات وغيرها مما يناسب المقام، تكون الزوجة الصالحة قد بدأت بإعداد «لقمة» لعابر السبيل، بغض النظر عن الساعة التي يحل فيها. بعد ذلك، يوضع الطعام أمام الزائر «فيلُزم» بأكله.

في بشارة لوقا، هناك مثل يضيء على جانب غني من الحياة العائلية السورية: «ثم قال لهم من منكم يكون له صديق ويمضي إلى نصف الليل ويقول له يا صديق أقرضني ثلاثة أرغفة. لأن صديقاً لي جاءني من سفر وليس لي ما أقدم له. فيجيب ذلك من داخل ويقول لا تزعجني. الباب مغلق الآن وأولادي معي في الفراش. لا أقدر أن أقوم وأعطيك[7]».

ها هنا رجل جاءه ضيف في نصف الليل فعليه أن يقوم بواجب الضيافة نحوه بغض النظر عمّا إذا كان عابر السبيل جائعاً أم لا. وبما أن الخبز قد نفد من عند المضيف، فانه يذهب ليقترض بضعة أرغفة. ونظراً إلى التجانس في طبيعة الحياة في الشرق، فإن الاقتراض قد تطور إلى فن راق بالفعل. يقرع الرجل باب جاره ويطلب ثلاثة أرغفة من تلك الأرغفة السورية الرقيقة. أما سبب تحديد المعلم الرقم بثلاثة فلأنه معدل أكل الرجل في الوقعة الواحدة. وبما أن الجار كان على ما يبدو تعباً جداً ونعساً، جاء جوابه ضارباً عرض الحائط بما تقتضيه آداب الضيافة السورية. أما العذر الذي قدمه، أي أن الباب مغلق فلا يستطيع فتحه لتقديم العون لصديقه، فقد حيَّر الكثيرين من قراء الإنجيل الغربيين. ألم يكن بمقدوره فتح الباب؟ أو كما تساءل

---

[5] قضاة 19: 16-21. هذه القصة جديرة بالاهتمام وبقراءتها بكليتها. فاللاوي، أي يهودي على درجة الكهنة كان قد رفض نصيحة خادمه أن يبيتوا في مدينة اليبوسيين، «المدينة الغريبة حيث لا أحد من بني اسرائيل». قضاة 19: 12. فنزلوا في مدينة البنياميين وهم عشيرة يهودية أخرى، فلم يستقبلهم أحد سوى «الشيخ الغريب» أي غير اليهودي، الذي قام بواجب الضيافة على الطقس السوري. تابع القصة في التوراة لتقرأ كيف اعتدى البنيامينيون على زوجة اللاوي وأذلوها حتى ماتت. (المحقق)

[6] أيوب 31: 32

[7] لوقا 11: 5-7

أحدهم مرة أمامي: «لعل الخوف من السارقين في تلك البلاد قد دفع بالجار إلى تركيب قفل ذي أرقام على الباب، مما جعل فتحه عملية صعبة للغاية». في الواقع أن الأبواب في سورية لا تغلق، صيفاً أو شتاء، إلا في وقت النوم. إن كلمات والديّ ترن في أذني كلما أطلت السهر «أغلق الباب واذهب إلى النوم». إن ما قصده الرجل الذي «في الداخل» إذاً،لم يكن أنه لا يستطيع فتح الباب، بل أن الساعة متأخرة لدرجة أن *الباب مغلق*، فليس من الجائز طلب خدمة كهذه.

«وأولادي معي في الفراش». من هذه العبارة يُستدل أن الأسرَّة الفردية والغرف الخاصة شيء لا وجود له عند العامة في سورية. فالناس يمدّون من الفرش بمقدار ما يحتاجه أفراد العائلة النائمون جنباً إلى جنب. فينام الوالد إلى جهة من الفراش، والوالدة إلى الجهة الأخرى والأولاد بينهما فلا يتدحرجون بعيداً عن الغطاء.

في بقية هذا المثَل، وكما في مَثَل قاضي السوء، يركز يسوع على عادة السوريين في الإلحاح بالطلب ويوصي تلاميذه باعتمادها: «أقول لكم وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه فإنه من أجل لجاجته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاج». وهكذا نرى السيد يكرم تقاليد شعبه ويرفع من شأنها باعتمادها كوسائل للوصول إلى أعلى المثل الروحية حين يقول: «وأنا أقول لكم اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم[8]».

[8] لوقا 11:9


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الرابع

تأخير الضيف المغادر

تقضي أفضل قواعد الضيافة السورية بالاحتيال على الضيف لتأخير موعد مغادرته لاسيما إذا كان وافداً من مكان بعيد. فما أن يعلن الضيف عن رغبته في الرحيل ويحدد موعداً لذلك، حتى يبدأ المضيف محاولة جعله ينسى ذلك الموعد، أو استنباط الحيل لتأخيره. ففي اليوم المحدد للسفر، يقول عابر السبيل لمضيفه شيئاً من هذا القبيل: «لقد غمرتني بكرمك إلى قمة رأسي. الله يديم هذا البيت ويطيل من عمر أحبابك. قدّرني الله على رد كرمك اللامتناهي. لقد جئت، أنا الذي غمرته ببحر كرمك، أستأذنك بالرحيل». أما المضيف فيظهر استغرابه من هذا الإعلان المفاجئ، ويعلن عدم استحقاقه لكل هذا الإطراء، ويرجو ضيفه أن «لا يفكر بالرحيل». يرد الضيف أنه «لا مفر من مغادرته» (حتى ولو كان بإمكانه البقاء). هنا يقول له المضيف «***بترجّاك***» (أرجوك) أن تبقى وأن تتناول معنا طعام الغداء». بعد الفراغ من وقعة الظهر هذه، يقول المضيف: «إن سفرك طويل والنهار قد قارب على الانتهاء، وسفر الليل فيه خطر. أبق عندنا للغد وبعدها ارحل». هذا ما يحدث عادة لمدة يومين أو أكثر إلى أن تتغلب مشيئة الضيف ويسافر.

في الإصحاح التاسع عشر من سفر القضاة، وفي قصة اللاوي التي ذكرناها آنفاً، يوجد لدينا مثل حي على المضيف السوري الكريم. فكلمات هذه القصة تذكرني بأمثالها التي غالباً ما سمعتها في سورية، بحيث أن مجرد قراءتها يجعلني أشعر بالحنين للوطن. فالتلحمي (ابن بيت لحم) العجوز كان يستضيف صهره الذي مكث عنده مدة ثلاثة أيام كما تقضي بذلك أصول الضيافة. «وكان في اليوم الرابع انهم بكروا صباحاً وقام للذهاب. فقال أبو الفتاة لصهره اسند قلبك بكسرة خبز وبعد

تذهبون. فجلسا وأكلا كلاهما معاً وشربا. وقال أبو الفتاة للرجل ارتض وبِت وليطب قلبك. ولما قام الرجل للذهاب ألح عليه حموه فعاد وبات هناك. ثم بكر في اليوم الخامس للذهاب فقال أبو الفتاة اسند قلبك. وتوانوا حتى يميل النهار[1]. وأكلا كلاهما. ثم قام الرجل للذهاب... فقال له حموه أبو الفتاة إنِ النهار قد مال إلى الغروب. بيتوا الآن. هوذا آخر النهار. بت هنا وليطب قلبك وغداً تبكرون في طريقكم وتذهب إلى خيمتك. فلم يرد الرجل أن يبيت بل قام وذهب[2]».

حين يغادر ضيف محترم منزل مضيفه، يرافقه المضيف مسافة تطول أو تقصر بمقدار المعزّة التي يكنّها له. ففي بعض الأحيان كنا نسير لمدة ساعة مع ضيفنا المغادر، ولا نعود أدراجنا إلا بعد إلحاح عظيم منه. وهكذا فإننا نقرأ في الإصحاح الثامنِ عشر من سفر التكوين «ثم قام الرجال وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيّعهم[3]». يرد في النص الإنجليزي ما معناه «*ليدلهم على الطريق*» لكنها لا تفي بالمعنى الذي تفيده كلمة **شيّع**.

إن الحج إلى الأماكن المقدسة والمناسبات العائلية، كالأعراس وعمادة الأطفال والأعياد الدينية، هي المناسبات الوحيدة التي يجتمع فيها عامة السوريين بأعداد كبيرة. في مثل هذه المناسبات، تستضاف عائلات بأكملها فيصعب تحديد عدد الضيوف الذين سيفدون. يُقدم الطعام بكميات ولكن ليس بالتنوع الذي تشهده الولائم في الغرب. أما تجهيزات المائدة، فمتواضعة جداً. فليس هناك من أزهار ولا مناديل للمائدة أو شوك وسكاكين وملاعق لماعة كالتي تزين الموائد الغربية في مثل هذه المناسبات. يجلس الضيوف على الأرض، جنباً إلى جنب، حول طاولات قليلة الارتفاع أو حول أطباق كبيرة من القش، ويأكلون بشكلٍ مشترك من عدد قليل من الصحون الكبيرة. فإذا كان العدد المتوقع عشرين شخصاً مثلاً، وجاء ثلاثون، يُكتفى بتوسيع الدائرة، أو بالالتصاق أكثر بعضهم ببعض. إن جلوس الضيوف بهذا القرب إلى بعضهم بعضاً يقيم من «كسر الخبز» بين هؤلاء الأصدقاء رباطاً أخوياً.

في بشارة مرقس، يرد ذكر الجموع التي تبعت يسوع وتلاميذه إلى أحد البيوت. «فاجتمع أيضاً جمع حتى *لم يقدروا ولا على أكل الخبز*». ويشير فهرس الإنجيل إلى ارتباط هذا المقطع بالإصحاح السادس من البشارة نفسها، الآية الواحدة والثلاثين. «لأن القادمين والذاهبين كانوا كثيرين *ولم تتيسر لهم الفرصة للأكل*». أما أنا فأعتقد بأن الحادثتين مختلفتان وبالتالي فإن إشارة الفهرس خاطئة. فالفقرة الأولى تشير إلى أن الجمع كان كبيراً لدرجة أنه لم يعد هناك متسع لكي يجلس الناس ويأكلوا، بالرغم من *المساحة الصغيرة* التي تتطلبها آداب المائدة في سورية كما أشرنا آنفاً. النص الثاني يشير إلى أن الجمع كان كموج نهر غفير، «قادمين وذاهبين»، بحيث أن تلاميذه لم «تتيسر لهم الفرصة ليأكلوا». إن هذين النصين يشيران إلى السبب الذي من أجله شعر يسوع مع تلاميذه. فالسوري يكتفي لغدائه برغيف أو اثنين من الخبز الرقيق الذي يأكله عادة مع بضع حبات زيتون أو غيرها

[1] من الأعذار التي غالباً ما يستعملها المضيف طلبه من الضيف البقاء للعصر، لاسيما في موسم القيظ.

[2] قضاة 19: 5-10

[3] تكوين 18: 16. (المحقق)

من خفيف الطعام. وهو ليس بحاجة للجلوس إلى مائدة ليتناول طعامه. بل بوسعه أن يجلس القرفصاء، على الأرض، أو يأكل ماشياً. من هنا تكمن أهمية القول «فاجتمع أيضاً جمع حتى لم يقدروا ولا *على أكل الخبز*».

في أكثر من مكان في الإنجيل نجد ذكراً لكون يسوع «يتكئ[4]» في معرض الحديث عن جلوسه ليتناول الطعام. لقد كان من عادة اليونان أن يتكئوا إلى الطعام. وقد يكون أن بعض أثرياء السوريين جاروهم في عادتهم تلك كما يقلد بعض السوريين الأوروبيين في بعض عاداتهم اليوم. ولكنني لا أجد بين تجاربي الخاصة، أو في الآداب والتقاليد السورية، أن عادة الاتكاء إلى الطعام، لاسيما لدى العامة ومنهم يسوع، كانت مقبولة. إن طريقة الجلوس ***اللائقة*** هي في أن يجلس المرء على الأرض إلى طاولة قليلة الارتفاع، منتصب الظهر، ورجلاه تحت جسمه في وضعية القرفصاء، أو وراءه في وضعية الركوع. في بعض الحالات فوق الاعتيادية، كالحزن أو الفرح الكبيرين، قد يعانق الأصدقاء بعضهم بعضاً، كما فعل يوحنا ليلة العشاء الأخير. ولكن هذا التصرف نادر الحدوث لاسيما إلى مائدة الطعام حيث تفرض «حرمة العيش» الجلوس المنتصب.

لقد استعمل بعض المعلقين الإشارة إلى الاتكاء لشرح كيف مسحت مرتا قدمي يسوع بالطيب أثناء تناوله العشاء عندها في بيت عنيا. «فأخذت مرتا من طيب ناردين كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشَعرها[5]». وهناك وصف مماثل في بشارة لوقا «وسأله واحد من الفريسيّين أن يأكلَ معه فدخل بيت الفريسيّ واتكأ. وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكئٌ في بيتِ الفريسيّ جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميهِ من ورائه باكية وابتدأت تبُلُّ قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتُقبِّلُ قدميه وتمسحهما بالطيب[6]». أما التعليق فيدور حول سهولة غسل قدمي يسوع ومسحهما بالطيب وهو في وضعية *الاتكاء* على المقعد.

إني متأكد انه لا حاجة لوجود مقعد في مثل هذه الحالة. فحين يغسل الشرقي قدميه، يجلس على الأرض ويضع قدميه في طشت الغسيل. بهذه الطريقة العملية كنا نغسل أقدامنا ونحن صغار. وسواء كان النص «عند قدمي يسوع» أو «عند قدميه من ورائه[7]»، فإن فكرة المقعد لا تغني الموضوع لأنه يمكن لمس القدمين من جهة الوراء أثناء ركوع يسوع لتناول الطعام[8]. غير أن الناحية الأساسية في كل ما تقدم لا تكمن في الناحية المادية لعمل المرأة، بل الروحية. لقد كانت روحية المحبة والتقوى التي أظهرتها هذه المرأة الخاطئة، وفي تواضعها وتوبتها، هي التي خلدت ذكرها في الأناجيل. إن القدمين عند الشرقي هما جزء غير نظيف و « غير مشرف» من الجسم، ولمسهما بالشكل الذي سبق وصفه يدل على تواضع جم. لهذا غسل يسوع أقدام تلاميذه ليعطيهم درساً في التواضع.

---

[4] متّى 26: 7، 20: يوحنا 12: 2.

[5] يوحنا 12: 3

[6] لوقا 7: 36-39

[7] إشارة إلى اختلاف بين النصوص في الترجمات الإنجليزية. (المحقق)

[8] كما سبق وأشرنا، فان عامة السوريين لايرتدون الأحذية أثناء تناول الطعام.

يمكن الاعتراض على كل ما تقدم استناداً إلى ورود كلمة «الاتكاء» إلى الطعام في واحد من أقدم النصوص في العهد القديم والذي لا يمكن رده إلى التأثير اليوناني. ففي سفر عاموس نقرأ: «أنتم الذين تبعدون يوم البلية وتقربون مقعد الظلم المضطجعون على أسرة من العاج *والمتمددون على* **فرشهم** *والآكلون خرافاً من الغنم* وعجولاً من *وسط الصيرة*[9]». بعض المعلقين يستعملون هذا النص للتأكيد على وجود عادة «التمدد» أثناء تناول الطعام. ولكن قراءة دقيقة للنص العربي ترينا بوضوح أنه لا يفسح المجال لاستنتاج كهذا، كما أن تقاليد المائدة في سورية ماضياً وحاضراً لا تدعم مثل هذا التفسير.

[9] عاموس 6: 3-4

الفصل الخامس

الاحتفالات العائلية

هناك العديد من الولائم العائلية التي تعيد اليَّ الكثير من الذكريات والعواطف، ولكنني سأحصر حديثي عن اثنتين: يوم «ذبح الخروف»، والمرفع. في فصل الصيف، تقوم كل عائلة سورية بتسمين خروف فتتولى ربة البيت إطعامه بالقوة، عدة مرات في النهار والليل إلى أن يسمن لدرجة لا يعود يقدر معها على الوقوف. لقد كان من غير المفروض أن يأتي أي شخص على ذكر هذا الخروف دون أن يقول «يا بركة الله». ليت لي أن أعود طفلاً فاشعر بالغبطة التي كانت تتملكني حين أساعد والدتي بِلَف أوراق العنب والتوت لقماً صغيرة، أغمسها بماء النخالة المملحة وأناولها لوالدتي فتطعمها إلى «الخروف المبارك»!

وفي مطلع الخريف، موعد ذبح الخروف، كان والدي يعود إلى البيت مهما كان بعيداً. فذبح الخروف هو مسؤولية رب البيت. في السابق، كان دم الخروف يهدر على العتبة. ولعل في ذلك صدى للتقاليد الساميّة القديمة القاضية بترضية إله البيت على هذا النحو. أما اليوم، فان الخروف يذبح في ناحية بعيدة بعض الشيء وقد يكون ذلك لأسباب صحية. لقد كانت هيبة المهمة تخفف من قسوتها. ففي يوم الذبح، كنا نسنُ السكاكين ونطحن الملح في الجرن الحجري ولا نطعم الخروف سوى القليل. ومع انحدار الشمس، كنا نأخذ الخروف إلى المكان المعيّن للذبح، فنُضجعه على العشب برفق، كما أُضجعت التقدمة أمام الرب في قديم الزمان. بعد ذلك، كان والدي يمسك

برأس الخروف ويرسم إشارة الصليب بالسكين على عنقه ثلاث مرات، ثم يذبحه على اسم اللّه.

إن قيام عدد كبير من أبناء البلدة بذبح خرافهم في اليوم نفسه يذكِّرُ بليلة الخروج من مصر، وكلام يهوه مع موسى «في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت...ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة اسرائيل في العشية[1]».

بعد ذبح الخروف، كنا نولم عليه مع بعض الأصدقاء، ثم نقطع اللحم الأحمر قطعاً صغيرة تسمى «راس عصفور» ونقليه في دهن الخروف ونخزِّنُه في آنية فخارية.

أما المناسبة السعيدة الثانية فهي ***المَرْفَعْ***، أو الاحتفالات التي تسبق الصوم الكبير. فقبل أسبوعين من الصوم، يبدأ السوريون بولائم المرفع حيث تسود ***«الكِبِّي»*** المصنوعة من اللحم والبرغل، وهي الطبق المفضّل في هذه المناسبة. تُدق اللحمة في جرن حجري بمدقة خشبية كبيرة إلى أن تصبح كاللّبِّ الناعم ثم يضاف إليها البرغل المنقوع بالماء البارد ويُخلط المزيج بالتوابل والملح، ويعاد دقّه في الجرن إلى أن يتحول إلى عجين ناعم.[2]

في كتاب الأمثال، يشير الكاتب، وبحماس سوري، إلى طريقة عمل ***الكبي*** أثناء وصفه للأحمق، فيقول «إن دققت الأحمق في هاون بين السَّمِيذ بمدق لا تبرح عنه حماقته[3]».

إن توق السوريين الشديد إلى ***الكبّي*** يجعل توق أهل بوسطن إلى فطور الأحد المكون من السمك المكوَّر والفاصوليا المقلية يبدو هزيلاً بالمقارنة. اسألوا هذا «المجرَّب» فإني أتكلم عن معرفة.

أثناء ***المرفع*** يولِم الأصدقاء والجيران معاً لغاية آخر ليلة قبل بدء الصوم. في تلك الليلة، يقام احتفال رصين يقتصر على أهل البيت فقط، فيأكلون معاً ويشربون كأساً من الخمر قبل أن يدخلوا في مرحلة الصوم. يجب أن يحضر جميع أفراد العائلة هذه الوليمة مهما كلّف الأمر انسجاماً مع تقاليد ولائم التضحية القديمة المشابهة. لقد أنقذ هذا التقليد حياة داود من الملك شاول، إذ أعطى ليوناثان الذريعة لإبعاد داود عن الملك الذي كان قد نوى قتله. «وكان في الغد الثاني من الشهر أن موضع داود خلا فقال شاول ليوناثان ابنه لماذا لم يأت ابن يسى إلى الطعام لا أمس ولا اليوم. فأجاب يوناثان لشاول إن داود طلب مني أن يذهب إلى بيت لحم وقال أطلقني لأن عندنا

---

[1] خروج 12: 3-6

[2] من الملاحظ أن الكاتب لم يذكر في الأصل الإنجليزي أن الكبة تُأكل نيَّة! (المحقق)

[3] أمثال 27: 22

ذبيحة عشيرة في المدينة وقد أوصاني أخي بذلك[4]».

في تلك الليلة السعيدة والمهيبة، كانت والدتي تمد الأكل وتنادينا هي ووالدي إلى العشاء. فنتحلّق حول الطاولة الصغيرة على الأرض. كان والدي يصب النبيذ في الكأس الذي كنا نعتبره رمزاً للسعادة المقدسة ثم يقول رافعاً كأسه ومخاطباً الوالدة «اللّه يطوِّل بعُمْرِكِ، ويُعيدُهُ عليك بالفرح»، ثم يلتفت نحونا ويقول «طوّل اللّه بأعماركم، عسى أن نشرب كأس فرحتكم (زواجكم)، أعاده اللّه عليكم ومنحكم الصحة والسعادة». فنجيب بصوت واحد «جعَلَهُ مشروب الهناء والصحة وطول العمر». بعد ذلك كانت الوالدة تتمنى للوالد ما تمناه لها وتطلب من العَلَيِّ العظيم أن يباركه ويحفظه «فوق رؤوسنا»، ثم تشرب من الكأس. بعدها كنا نشرب جميعاً من الكأس تجاوباً مع قول الوالد، «اشربوا كلكم منها»، فمن يدري إن كانت دائرة العائلة ستبقى متصلة لغاية عيد الفصح أم لا. بعد الانتهاء من الطعام كنا نرمي أو نحرق كل الفضلات. فبالإضافة إلى تحريم البيض واللحم والحليب على المؤمنين إبّان الصوم، كذلك لا يجوز أن يبقى أي أثر من الوليمة لليوم التالي.

بمثل هذه الكلمات خاطب المعلم تلاميذه في ليلة عذابه: «وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم...وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما اشربه معكم في ملكوت أبي[5]».

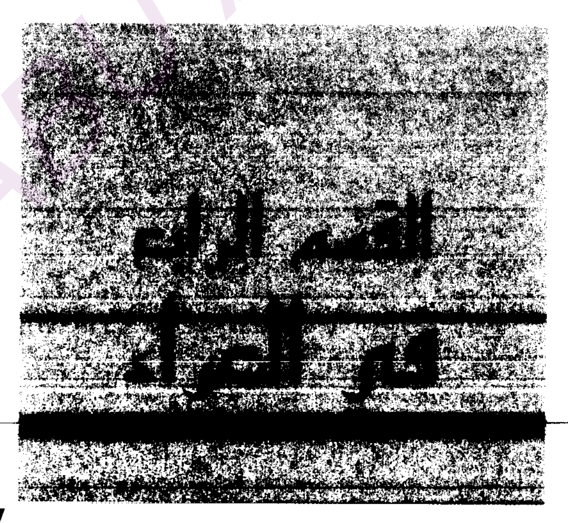
وهكذا، فإن الشرقي دائماً ينظر إلى الخبز على أنه شيء مقدس، سواء كونه وسيلة لسد الرمق أو عنصراً غامضاً ومقدّساً. «الخبز والملح»، «المسيح خبز الحياة»، «فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحد»، «أعطنا خبزنا كفاف يومنا». إن هذه التعابير ومثلها الكثير السائدة في الإنجيل وفي الكلام الشرقي، تنبع من أعماق الحياة في الشرق القديم.

إن لقدسية الخبز، هذا الطعام الاعتيادي، قيمة لا توازى عند الشرقي. ففي غياب المُثُلِ المدنية العليا وغيرها من الروابط الاجتماعية التي تشد أواصر الناس بعضها إلى بعض، وجد الشرقيون المنقسمون على بعضهم البركة والنعمة والسلام والاطمئنان في القول «يوجد بيننا خبز وملح».

[4] صموئيل الأول 20: 27-29

[5] متّى 26: 27


ABU ABDO ALBAGL


القسم الرابع
في العراء


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الأول

المأوى والمنزل

قال أحدهم إن القبائل الإسرائيلية القديمة سمَّت اللّه «الملجأ والملاذ» وليس البيت، لأن السوريين[1]، وإلى حد بعيد، يمضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم. فالمسكن الوحيد الذي احتاجه الإسرائيلي هو الملجأ من العاصفة والملاذ من العدو. من هنا كانت صلاة المزموري «لأنك كنت ملجأ لي. برج قوة من وجه العدو[2]». أو نبوءة إشعيا «وتكون مظلّة للفيء نهاراً من الحر ولملجأ ولمخبأٍ من السيل ومن المطر[3]».

إن القول بأن السوريين القدامى والمعاصرين يمضون قسماً كبيراً من أيام السنة خارج بيوتهم، هو قول صحيح. ففصل الصيف الطويل الذي تنقطع فيه الأمطار، وحياة الناس الدائرة حول الزراعة والرعي باستثناء بعض المدن الكبيرة، ووسائل التنقل البدائية، كل هذه تمكّن السوري من تمضية معظم وقته في الخارج. فبيته الذي يتألف من طبقة واحدة ويتضمن غرفة أو اثنتين على الأكثر، يبدو ملجأً للطوارئ أكثر منه منزلاً. غير أن هذا البناء الذي لا هندسة له ولا فن فيه قد أثبت عن صلاحه

[1] لا يميّز المؤلف هنا بين القبائل الإسرائيلية والسوريين. وقد يكون ذلك عائد الى نظرة سائدة في الغرب عبّر عنها Atlas of the Bible طبعة سنة 1981 كما يلي: «في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، أي عصر القضاة، كانت أرض كنعان في حالة من فقدان الحكومة. ومع أن العبرانيين كانوا يطالبون بأرض كنعان، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخضاع كل سكانها. وكانت المدن–الممالك الكنعانية في حالة انقسام بين التل والوادي. فالجغرافية شجعت الانقسام السياسي، ذلك المرض الكنعاني المزمن الذي تفاقم بسبب التدفق المستمر من أقوام جديدة إلى المنطقة.في أغلب الأوقات كانت هذه الأقوام في حالة حرب. ولكن حين كانت الأرض ترتاح من الحروب، فإن العبرانيين كانوا يختلطون مع جيرانهم ويتعلمون منهم فن الزراعة متخلّين تدريجيا عن حياة الرعي التي تعودوا عليها». (المحقق)

[2] مزامير 61: 3

[3] أشعيا 4: 6

وملاءمته لحياة الشرقي الطبيعية بحيث أنه عصي على التطور. إن استمرارية تلك البيئة البسيطة «على حالها من عصر إلى عصر» تثبت أن الارتقاء ليس بالضرورة محتماً، وأن الإنسان يستطيع أن يجمد في الزمن إذا شاء ذلك وأن يعيش بارتياح بمجرد تكرار الماضي.

ليست الحياة بالنسبة إلى الشرقي تطوراً أو إنجازاً، إنها إرثٌ. فعقله الشعري المستكين يجد في الطلول القديمة قيمة وجدانية آسرة. وفكرة الحياة الواحدة المستمرة عبر خمسين قرناً تثير مخيلته، وتوحي له بالثقة والاطمئنان إلى قوانين الحياة.

يجب ألا يُستدل مما تقدم أن السوري لا يقيم وزناً لبيته المتواضع، بل العكس هو الصحيح. فهو يحب بيته حباً جماً ويربط به أعمق مشاعر الحزن والفرح التي تمر به في حياته. ولكنه لم يفرق في تسميته بين المسكن «House» والوحدة التي تضم المسكن وأهله «Home» كما هو شائع في الغرب. فالكلمة العربية (بيت) والعبرية (بايث) تعنيان الملجأ وهو ما ترمز إليه كلمة «House». إن ابن فلسطين لم يستنبط تعبيراً خاصاً للمفهوم الثاني الغني بالمعنى لأنه يعتبر إقامته على هذه الأرض مؤقتة. فخيمته او بيته الصغير يكفيان كملجأ له ولعائلته إبّان رحلته الأرضية. إن ما ترجمته النسخة الإنجليزية من الإنجيل بكلمة «Home» والتي ترد حوالي الأربعين مرة، لا تختلف في النص الأصلي عما ترجم بكلمة «House» والتي استعملت حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة مرة. فالتعابير التي تفيد معنى «الخيمة» و «البيت» و «مكان الإقامة»و «ليذهب إلى قومه» و «ليعود إلى موطنه» قد ترجمت كلها بما يعني البيت «Home» أو ليذهب إلى بيته «To go home».

إن كلمة «بيت» لها معنى هام جداً لدى الشرقيين. فالبيت هو ***الملجأ***، بل إنها تحمل في طياتها ما هو أكثر من الملجأ. إنها تعني الملاذ. وبهذه الصفة يتوجه الشرقي إلى اللّه ليحميه. ففي ذلك الشرق المليء بالنزاع، كنا دائماً نفتش عن ملاذ نلوذ به في وقت الشدة. فكل عائلة من عامة الشعب محسوبة على اسم سيد إقطاعي تلوذ به في وقت الخطر. وإذا كان الإقطاعي قوياً وغنياً ومتعاطفاً يحمي «خاصّته» أو «محاسيبه»، أفلا يكون رب الجنود هو الأقوى والأغنى والأكثر تعاطفاً! إن الشرقي المعوز والوَجِل قد اكتشف منذ أقدم العصور مبلغ هشاشة الملجأ الأرضي فاتجه إلى ملك الملوك ورب الجنود ليكون ملجأه الذي لا يخونه. إن الثقة باللّه كونه المساعد الذي لا يغيب قد هدّأت من روع أجيال لا حصر لها وثبتت من خطاها المتعثرة. «الرب صخرتي وحصني ومنقذي. الهي صخرتي به احتمي. ترسي وقرن[4] خلاصي وملجأي[5]». «اللّه لنا ملجأ وقوة. عوناً في الضيقات وُجِدَ شديداً. لذلك لا نخشى ولو

[4] «القرن» رمز القوة
[5] مزامير 18: 2-3

تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال إلى قلب البحار[6]».

أليس مجدياً للمرء أن يخاف ويتألم إذا ما قرّبه الخوف والألم أكثر إلى اللّه؟ إن العالم مدين لكاتب المزمور التاسع عشر بعد المائة لهذه النظرة العميقة إلى الخالق: «خيرٌ لي أني تذللت لكي أتعلم فرائضك. شريعة فمك خير لي من ألوف ذهب وفضة[7]».
ترى، كم هي مَدِينَةٌ الإنسانية لمن تعذب على الجلجثة؟

[6] مزامير 46: 1-2

[7] مزامير 119: 1، 72


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الثاني

«نمشي على ما يقدّر الله»

إن السفر على خطوط شركة «القرن العشرين (ليمتِد)» سريع ومريح وغالباً ما يمر دون حادث يذكر. غير أن ميكانيكية وسائل النقل وكمالها ودقة جداول المواعيد وعصمتها حوّلت السفر إلى مجرد انتقال، فلم يعد هناك من حاجة إلى شد الحقوين، أو إلى عصا يحملها الساعي إلى الحج. والمسافرون اليوم لا يتوقفون لتبادل التحية ولا ينشدون أغاني السفر. ولا يحتاج المسافر للاهتمام بمن يعتمد عليهم في سفرته كالجمل أو البغل أو الحمار، ولا يقوم بسد رمقه أو إطفاء عطشه بتناول زاده على حافة نبع موحش.

لقد عانى بولس الرسول الأهوال وحقق الانتصارات في «أسفار مراراً كثيرة. بأخطار سيول. بأخطار لصوص. بأخطار من جنسي. بأخطار من الأمم...في تعبٍ وكدٍ. في أسهار مراراً كثيرة. في جوع وعطش[1]»، تبدو للمسافر الغربي وكأنها أصداء تتجاوب من ماض سحيق.

ولكن هذه التجارب وأمثالها هي القاعدة للشرقي في ترحاله مما يجعله يحدو في الأعراس مشيداً ببطولة والد العروس بقوله:

«بيّكْ يا حلوة سافر وحدو عالشّام». (دمشق)

فقبل مدٌ خط سكة الحديد بين بيروت ودمشق، كانت السفرة من بلدتي[2] إلى دمشق تستغرق يومين. في تلك الأيام، ولغاية اليوم، كان الرجال يسافرون جماعات كبيرة

[1] كورنثوس الثانية 11: 26، 27

[2] ولد الكاتب في الشوير وعاش فترة من حياته قبل الاغتراب في بتاتر جبل لبنان. (المحقق)

للحماية المتبادلة من «أخطار الطريق المجهولة». أما الذي كان يسافر إلى المدينة القديمة، دمشق، وحيداً، فكان يعتبر آية في البطولة.

إن القصص المثيرة التي كان هؤلاء الرجال يقصونها علينا لا تبارح مخيلتي. قصص مواجهة قطاع الطرق، والمعارك مع الأفاعي والوحوش الضارية، والمعاناة من قلة **الزاد** أو من «الانقطاع» المبكر لنبع ماء ظن المسافرون بأنه ما زال يجري.

وحدهم الذين عانوا من وطأة السفر تحت مثل هذه الظروف يقدّرون قيمة الوعد المبذول في سفر إشعيا: «ويقودك الرب على الدوام ويُشبِعُ في الجدوب نفسك ويُنشِّطُ عظامك فتصير كجنةٍ رَيًّا وكنبع ماء لا تنقطع مياهه[3]».

كم من مرة وقفنا مترددين على مفترق طريقين أثناء السفر في نهاية فصل الصيف متسائلين عن أيهما نسلك. ما أن يقرر أحد المسافرين المجربين بيننا أن النبع الذي على أحد الطريقين «ينقطع» في مثل هذا الوقت من السنة، حتى نسلك الطريق الآخر من دون أدنى تردد. فجفاف نبع في تلك البلاد العطشى قد يعرض المسافر إلى أخطار لا يمكن تجاهلها في أيام الصيف الطويلة وحين يصبح فم المسافر «مرّاً من العطش» بحيث يشكل الوصول إلى نبع جاف حالة مأساوية. من هنا كان الوعد «بينابيع المياه» والوعيد بانقطاعها من الأمور التي تتكرر في الإنجيل.

إن يسوع حين طلب من تلاميذه أن «يكرزوا أنه قد اقترب ملكوت السموات»، دون أن يقتنوا «ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم. ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا[4]»، إنما كان يطلب منهم ممارسة نكران الذات بأجلى صورها. فبمقدار ما يتعلق الأمر بالراحة والطمأنينة التي توفرها الأرضيات، يمكن القول إن هؤلاء التلاميذ قد أرسلوا في سبيلهم عُزّلاً. فخطة السيد لهؤلاء التلاميذ هي النقيض لما يهيئ به المسافر الاعتيادي نفسه.

لا يخطر ببال مسافر إلى الداخل السوري أن ينطلق في رحلته من دون **زاد**. فمع أنه يمكن الاعتماد على كرم السوري تجاه عابر السبيل، فإن تقاليد البلاد تنص على احترام المسافر لنفسه بأن يؤمن زاد رحلته ولا يقبل الضيافة إلا مضطراً. فأجمل التقاليد تقضي بأن يفتح المسافر الذي يُدعى إلى مائدة سواه كيس **زاده** (المزود) على الطاولة أمامه ويدعو الحاضرين إلى مشاركته. من جهته، فإن المضيف لا يسمح قطعاً لضيفه الطارئ بأن يتناول من **زاده**، بل يحيده من أمامه ويضيف إليه أو يعطيه زاداً جديداً قبيل مغادرته. من دون المزود يبدو المسافر حتى بنظر نفسه متسولاً يعتمد على الإحسان وليس ضيفاً محترماً.

«وَلِّف لك بضعة أرغفة زاداً للطريق»، هذا أول ما يسمعه من ينوي على السفر. تُطوى أرغفة الخبز الرقيقة كأوعية صغيرة وتحشى بالزيتون الأسود أو الجبن أو البيض المسلوق أو التين المحفوظ في دبس العنب، وتلف في فوطة كبيرة تربط وتحمل على الخصر. أما الخبز فيحمل على الظهر في كيس جلدي يدعى **الجراب**. هذا

[3] إشعيا 58: 11

[4] متى 10: 9، 10

هو المِزود الذي تكلم عنه يسوع في أمره لتلاميذه. إذا طالت السفرة يومين أو أكثر، ييبس الخبز ويتحول فتاتاً. لهذا فان الزاد الناشف والمفتت هو دليل على السفر الطويل. فالجبعونيون تصرفوا بمكر حين استعملوا خبزهم اليابس والمفتت لخديعة يشوع. فبالرغم من كونهم يعيشون على مقربة من حيث كان الإسرائيليون، فقد قالوا له «هذا خبزنا سُخناً تزودناه من بيوتنا يوم خروجنا لكي نسير إليكم وها هو الآن يابس قد صار فتاتاً[5]». هذا القول جعله يعتقد، هو ورؤساء الجماعة، بأنهم قد وفدوا من مكان بعيد. إن النص الإنجليزي بإدخاله مصطلح «العفن» قد أدخل مفهوماً مغايراً للواقع. ففي مناخ فلسطين الناشف، لا يتعفن الخبز أثناء الرحلة بل ييبس ويتفتت قطعاً صغيرة، كما يرد في النص العربي «هذا خبزنا ... يابس قد صار ***فتاتاً***».

«لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم». أثناء السفر في الشرق، كنا نحمل مالنا في المِنْطَقة وبعض النقود في المحفظة. مِنطقة اليوم كناية عن زنار من الصوف أو القطن المتين يعرف بالعامية باسم ***الكَمَر*** و يُلبس تحت الحزام الجلدي. أطول كَمَر رأيته في حياتي كان طوله حوالي الخمسة أقدام. يبلغ عرض الكمر حوالي الثلاثين بوصة ويطوى في النصف على مدى الطول ويُخيط بشكل متين بحيث لا يبقى فيه سوى فتحة صغيرة كافية لإدخال النقود المعدنية. يُطوى الكمر ويُلف على الخصر ويُثبت بإبزيم جلدي قصير، ويُلف طرفه الطويل فوقه بحيث لا يمكن انتزاعه عن خصر حامله، إذا ما تعرض للسرقة، إلا بعد التغلب عليه وإخضاعه كلياً.

يتكلم العامة من السوريين عن الكمر بمعنى القوة المالية. فالسؤال «كيف الكمر؟» يعني «ما هي قوتك المالية؟» والتربيت بفرح على الكمر يعني أن الأحوال حسنة. وارتداء الكمر لأول مرة هو مصدر فرح واعتزاز للشاب الذي بلغ من العمر ما يخوله حق ارتداء الكمر. إني لا أنسى الاغتباط والشعور بالاستقلالية والنضج وأنا اربِّت على كمري الجديد المملوء بالمال. شعور لم يوازه سوى شعوري بالفخر أول مرة حلفت فيها بشاربيَّ الجديدين. كمَري كان كنزي.

يُستدل من كل هذا أن توصية المعلم «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم» لم يكن المقصود بها عدم حمل النقود إبّان رحلاتهم التبشيرية فحسب، بل عدم طلب اقتناء المال وتخزينه أيضاً. فكمر الشرقي هو مستودع ماله.

أما القسم من التوصية القائل «ولا ثوبين» فالمقصود به غياران من الثياب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى القول، «ولا أحذية». ولكن المعنى الضمني هنا ليس التخلي عن الاحتياجات الضرورية بمقدار ما هو الاستعداد لنكران الذات.

«ولا عصا». إن العصا أو «عصا الترحال» هي رمز السفر في سورية. فالقول، ***ألقينا العصا***، يعني أننا بلغنا نهاية المطاف. ***وللعصا*** مكان مرموق في سجل الأخبار المأثورة في سورية. فلا يمكن لي أن أتخيل سورياً ينطلق في رحلة من دون ***عصا***. لقد أُعطيت للإسرائيليين تعليمات واضحة استعداداً لما يجب أن يقوموا به قبل خروجهم من مصر. فقد أمروا في سفر الخروج بأن يأكلوا شاة الفصح،

[5] يشوع 9: 12

«وأحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيّكم في أيديكم[6]».

أثناء سفرنا في سورية، كانت العصا خير مساعد في تسلقنا التلال المرتفعة أو لدى اجتيازنا جداول المياه، أو في قتالنا مع الأفاعي والكلاب الشرسة وقطاعي الطرق. «العصا رفيق» يقول المثل الشعبي في سورية. لقد أوصى يسوع تلاميذه بهذه الوصية (ولا عصا) لكي يتخلوا عن المصالح المادية في هذا العالم، وليقفوا ذواتهم كلياً على التبشير بمملكة السماء. في احتياجهم و في ضعفهم، كان عليهم أن يستمدوا من رؤيتهم للحقائق الأزلية غنىً لهم وقوة.

في الإصحاح العاشر من بشارة لوقا، يأمر يسوع اتباعه «لا تسلموا على أحدٍ في الطريق[7]». هذا الأمر يبدو مستهجناً. فكيف يحظر على رسل السلام والمحبة وحاملي خميرة الصداقة والفرح إلى العالم ألاّ يسلموا على إنسان في الطريق؟ ولكن الاستهجان من أمر الإنجيل يزول متى عرف القارئ كيف يسلم السوريّون على بعضهم بعضاً في تلك الرحلات الصعبة. فإذا التقى مسافران شرقيان، فإنهما لا يقنعان من السلام بالمختصر المفيد، ولا تكفيهم «كيف حالك، إنه لنهار جميل»، فيما يتابع كل منهما رحلته كما يحدث في الغرب. ففي السلام الشرقي يسكب المرء روحه بإسراف وفضولية بعيدين كل البعد عن عقلية الغرب.

فحين يلتقي مسافران ويقرران أن يترافقا، «ويقطعا الطريق في الحديث»، يبدأ السلام بينهما كالتالي:

«***الله يعطيك العافيه***».

«***الله يعافي عمرك***».

«من وين مشرف ***حضرتك*** وما هي وجهتك»؟

«قادم من الناصرة، ومتوجه صوب دمشق».

«الاسم الغالي»؟

«عبدك مسعود ابن يوسف من عشيرة أيوب».

«***والنِّعَم والنِّعَم***».

«***النِّعم*** بحضور جنابك وبعائلتك الكريمة».

«كم لك من العمر»؟

«أربع وثلاثون سنة».

«الله يمدّ بها ويجعلها سعيدة».

«الله يطول بعمرك».

«كم ولداً عندك»؟ (إنه لمفروغ منه أن رجلاً في هذا السن قد تزوج منذ زمن بعيد).

«ثلاثة صبيان بحفظ الله».

[6] خروج 12: 11
[7] لوقا 10: 4

«اللّه يعطيهم طول العمر والصحة والسعادة».

«كم رجلاً تعد عشيرتك»؟

«نعدُ ***سبعين بارودي*** (بندقية)».

«***سبعين بارودي!*** يا للرجال الشجعان! من هم أعداؤكم في بلدكم»؟

«أعداؤنا عشيرة الحداد. إنهم يعدّون مائة *بارودي*، ولكن حين تحمى الحديدة فإننا نكسر رؤوسهم».

وهكذا يمتد تبادل الحديث اللطيف ويتشعب إلى أن يتكون لدى كل من الطرفين معلومات واسعة عن حياة الآخر الخاصة والعائلية وعلاقاته الاجتماعية، بما فيها مهنته واهتماماته وما يزعجه وكل ما يحب وما لا يحب، كل هذا قبل أن يذهب كل منهما في حال سبيله.

وهكذا، فليس المقصود بقول المعلم «لا تسلموا على أحدٍ في الطريق»، أن يكون التلاميذ خشنين وغير بشوشين مع المسافرين، وإنما أن يكونوا مأخوذين بمجد رسالة البشارة بكليتهم. لقد أعطي الأمر «لأن أمر الملك كان معجلا[8]». فحتى الشرقي عليه أن يسرِع خطاه حين تكون مهمته «خلاص ما قد هلك[9]».

[8] صموئيل الاول 21.8 (المحقق)

[9] لوقا 19.10 (المحقق)


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الثالث

السـوق

ليس بمقدوري أن أفكر بالسوق الشرقي من دون أن تقفز إلى مخيلتي صورة قوافل الجمال. فوصول قافلة جمال هو الذي يخلق السوق في العديد من المناطق السورية حيث ***الحبة*** هي السلعة الأساسية، والجمل هو وسيلة نقلها الأولى. ومع أن القطار الحديدي قد بدأ يزاحم الجمل في وظيفته التاريخية في بعض المناطق، إلا انه لم يتمكن من أن يحل محل سفينة الصحراء.

إن وصول قافلة جمال آتية من «أرض المشرق» إلى بلدتنا اللبنانية، محملة بالحبة المباركة، يعيد لي أجمل الذكريات عن الحياة السورية في الهواء الطلق. فمنظر رتل من الجمال، متصل أحدها بالآخر برقبته المعقوفة، يوحي بخط يمتد فعلاً إلى اللانهاية. وهكذا فان زعم كاتب سفر القضاة أن المديانيّين والعمالقة «جِمالهم لا عد لها كالرمل الذي على شاطئ البحر[1]»، ليس بالأمر المستغرب. فعلى ما يبدو لي يكفي رتل من مائة جمل ليوحي باللانهاية.

ما أن تلوح القافلة القادمة عن بعد، حتى تعج الساحة بنا نحن الأولاد. فهناك تُنزل حمولة القافلة وينتظر الجمّالون الزبائن. آه كم تعن على بالي أيام طفولتي كلما قرأت سِفرَ التكوين، «ثم أخذ العبد عشرة جِمَال من جِمَال مولاه ومضى...وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات[2]». لقد كان

[1] القضاة 7: 12
[2] تكوين 24: 10

يكهربني صوت الجمَّال إذ يقول: **هش، هش، هيييش**، ومن ثم يشد رسن الجمل فينيخه. أما الجمل فيطلق عجيجاً مدوياً ويربض على ركبتيه الأماميتين الصلبتين، ومن ثم يخفض عجزيه، وبعد أن يتمايل يمنة ويسرة كجزيرة في قبضة زلزال، يستريح بعظيم هامته على الأرض.

تؤخذ الجمال إلى البركة للشرب عند الغروب، (في الواقع أواخر بعد الظهر) «وقت خروج المستقيات». وهذا الوقت هو موعد يومي ثابت يمكن للسوري ضبط مواعيده عليه وكأنه ساعة سويسرانية. إن ***وقت الملاية*** هو في الصباح الباكر وقبل الغروب. وطبيعي أن تختار النسوة وقت «البرود» من النهار لحمل جرار الماء الثقيلة من النبع إلى البيت. وهذا تقليد تحافظ عليه النساء في سورية منذ ما قبل أيام إبراهيم. أما الجمّالون فيستحسنون هم أيضاً سقاية حيواناتهم الثمينة في الوقت نفسه مما يثير حفيظة النساء. فالجمال تفرغ بركة الماء التي يتجمع فيها الفائض عن حاجات الشرب والذي تستعمله النسوة في قضاء حاجاتهن المنزلية. ومما لا شك فيه أن بعض النسوة في فلسطين القديمة كنَّ يتضجَّرن ويتذمَّرنَ من الجمالين إذا ما سحبوا الكثير من مياه الآبار التي لا يملكون غيرها.

بالنسبة إلينا نحن الأولاد، كانت المناسبة مهرجاناً بكل معنى الكلمة. فقد كنا نرشو الجمَّال بالعنب والتين والزبيب وكل ما يشتهيه البدوي المشهور بحبه للحلوى ليسمح لنا بامتطاء الجمال واقتيادها إلى بركة المياه. وقد يكون صحيحاً ما يزعمه بعض علماء اللغة من أن تمايل الجمال في مسيرها هو أول ما أدخل السرعة إلى أوزان الشعر العربي، غير أن مغامرتي الأولى على ظهر الجمل لم يكن فيها للشعر مكان. ما أن أطلت القافلة عن بعد حتى سارعت وملأت جيبيَّ بالزبيب بما يكفي لرشوة الجمَّال ولتسليتي وأنا على ظهر الجمل. ناولت الإعرابي ملء جيب من الزبيب، فبدأ بالتهامه ثمراً وعوداً. وما أن صعدت إلى السرج الخشبي على ظهر الجمل الراكع، وأعطاه الإعرابي إشارته المعهودة، **تشو تشو**، حتى نهض بسرعة وركض باتجاه البركة. أما أنا فشعرت وكأن نخاعي قد اجتث من جذوره ففقدت كل شعور بالاتجاه وأحسست وكأنني معلق بين السماء والأرض. صرخت؛ ولكن البدوي لم يدعني أنزل إلى أن وعدته بما تبقى معي من زبيب.

ليس ***السوق*** في سورية مجرد مكان لتبادل البضائع، إنه في الواقع مناسبة للتبادل في مختلف الشؤون العملية والاجتماعية. فالشرقي يعرف التجارة علاقة اجتماعية قبل كل شيء و***دكانه*** هو ملتقى الأصدقاء، حيث لا بد وأن يسبق عملية الشراء، لاسيما في داخل البلاد، بعض الاجتماعيات. في الدكان، يلتقي وجهاء البلد فيتبادلون التحية والأخبار ويتداولون في شتّى الأمور. لقد دل يسوع على الناحية الاجتماعية لهذه المناسبات في تحذيره لتلاميذه: «تحرَّزوا من الكَتَبَةِ الذين يرغبون

المشي بالطيالسة *والتحيّات في الأسواق*[3]». فعلى ما يبدو كان الكتبة الإسرائيليّون يترددون بكثرة إلى الأسواق ليتقبلوا إجلال العامة، إن لم يكن لشخصهم الذاتي فللمركز الذي يتبوأونه. في الماضي، كانت الأسواق العربية ملتقى لرجال الأدب لاسيما الشعراء. كذلك كان الحال في اليونان أيام بولس حيث كان «يكلم في المَجْمَعِ اليهود المتعبدين والذين يصادفونه في السوق كل يوم[4]». أما الأولاد فهم بطبيعة الحال يحبون التجمع في الأسواق حيث يلعبون ويتمازحون فيما هم يتفرجون على ما يقوم به الكبار من أعمال. لهؤلاء الأولاد شبّه يسوع أبناء جيله المتقلبين البَرِمِينَ بقوله: «وبمن أشبّه هذا الجيل. يشبه أولاداً جالسين في الأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون زمَّرنا لكم فلم ترقصوا. نُحنا لكم فلم تلطموا[5]».

في طفولتي، كان ***الكيّال***، ذلك الرجل القوي الذي يَكِيلُ الدقيق، والذي لن أنساه ما حييت، من أكثر شخصيات السوق جاذبية. فهو الذي يعطي «كيلاً جيداً ملبّداً مهزوزاً فائضا». فالتقليد في سورية يقضي بأن يفيض كيل المكيال، وعلى التجارة أن تقترن بالصداقة إلى الأبد. وكيل السوائل كذلك يجب أن يفيض في وعاء الشاري لأنه «بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم[6]».

ما أن يتم الاتفاق على السعر حتّى يفرش الجمّال عباءته الفضفاضة على الأرض ويفرغ كومة من الحبوب الذهبية عليها. يركع ***الكيّال*** بالقرب من كومة القمح فيبسمل ويقحم ***المدّ*** (كيل خشبي) في الحبوب الغالية. الحبُّ مقدّس؛ ولغة ***الكيال*** ملؤها التقوى. «بركة!» أي واحد، ينادي الكيال فيما هو يفرغ المدَّ الأول في كيس الشاري أو في حضنه. «من الله!» أي اثنان، ينادي فيما هو يفرغ ***المدّ*** الثاني. بعد ذلك يتابع العد بشكل اعتيادي ثلاثة، أربعة الخ..

حين يقحم ***الكيال*** المدّ في القمح، يسحبه وهو ممتلئ إلى النصف، ويديره على قاعدته المرتفعة بعض الشيء، ثم يدقّه على الأرض عدة مرات، فيما هو يكرر عدد الكيلات الذي وصل إليه «كي لا ينسى». بعد ذلك يعبئ المزيد من القمح في المد مستعملاً يده اليسرى، ضاغطاً براحته على القمح بكل قوة. تتكرر هذه العملية عدة مرات، فيما القمح يتناثر دائرياً أثناء إدارة المد إلى أن يمتلئ إلى حافته. عندها، يجعل قبضة يده اليسرى على شكل قمع فوق كومة القمح المتجمعة في المد على شكل هرم، ويروح ذلك الفنان يصب القمح من يده اليمنى في قمع يده اليسرى إلى أن تصبح قمة الهرم حادة «كرأس الإبرة». برشاقة خاطفة، يرفع الكيال المدّ ويفرغه في الوعاء دون أن تقع منه حبة واحدة. بأية دقة وبساطة وغنى في الوصف يذكر السيد هذا التقليد السائد في أسواق القمح في الشرق حين يوصي تلاميذه قائلاً: «أعطوا

[3] مرقس 12: 38
[4] أعمال 17: 17
[5] متّى 12: 16
[6] متّى 7: 2

تعطوا. كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يُعطُون في أحضانكم[7]». في النص الإنجليزي يستعمل المترجم عبارة «صدر» عوضاً عن حضن. إن الشرقي لا يحمل القمح في صدره بل في ثنية ثوبه الفضفاض، تماماً كما تحمل المرأة الأشياء في ثنية وَزرتِها. ولكن كلمة حضن لها مدلول اشمل من ذلك. «فالحضن» هو رمز الكثرة كما أن «الصدر» هو رمز العاطفة. وهكذا فمع أن الكيل الملآن قد يفرغ في كيس، فان كلمة حضن يجوز استعمالها.

في هذا المقطع، كما في العديد غيره من نصوص الإنجيل، نرى كيف يعطي يسوع لمسة روحانية للأشياء الاعتيادية في الحياة. فهو يضفي على عملية الكيل رمز الامتلاء من الحياة الروحية. فَمَنْ كانت حياته كحياة الآب السماوي، عطاء أبدياً لا ينضب، لن ينقصه شيء. فمِن كَرَمِه يتعلم الآخرون أن يكونوا كرماء، في حين يمنحه الوهّاب الإلهي هبة الحياة الكاملة. ما من فراغ لا تملؤه الحياة الإلهية، وما من حاجة لا تلبيها، وما من جوع إلاّ وتسده».

[7] لوقا 6: 38

الفصل الرابع

سطح البيت

في حين لا تحتاج قافلة من الجمال إلى أكثر من طلتها المهيبة للإعلان عن وصولها إلى بلدة ما، يعلن البغّالون عن بضاعتهم بالمناداة من على سطوح البيوت. فما أن يصل البغّال إلى *ساحة* البلدة مع حِمْلٍ من العدس، أو البطاطا، أو المشمش مثلاً حتى يرخي الحمل عن ظهر الحيوان ويصعد إلى أقرب سطح وينادي بملء صوته، وبعبارات موسيقية ممدودة عن بضاعته. لا يحتاج الصاعد إلى السطح الترابي لمنزل سوري إلى سلم، بل يرتقي بضع درجات حجرية في مؤخرة البيت. من هنا فإن يسوع في وصفه للسرعة التي تحل بها «النهاية»، يقول «الذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً[1]». إن إكمال المخطط الأبدي سيتمّ بسرعة مذهلة لأنه «لكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين[2]»، بحيث أنه لا يمكن حتى اجتياز المسافة القصيرة التي تفصل السطح عن البيت بأمان لمن لا يولي اهتماماً سوى للشؤون الأرضية.

سهولة الوصول إلى سطح البيت السوري تقدم الشرح أيضاً لحمل المريض «المفلوج» إلى السطح، «وجاءوا إليه مقدّمين مفلوجاً يحمله أربعة. وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه من أجل الجمع كشفوا السقف حيث كان وبعدما نقبوه دلوّا السرير الذي كان المفلوج مضطجعاً عليه[3]». هذا الوصف يعطي صورة حقيقية لكيفية عمل فتحة في سطح البيت السوري.

[1] متّى 24: 17

[2] متّى 24: 12 (المحقق)

[3] مرقس 2: 4

أما في لوقا، فالعبارة هي: «ولما لم يجدوا من أين يدخلون به لسبب الجمع صعدوا على السطح ودلّوه مع *الفراش* من بين *الآجُر* إلى الوسط قدام يسوع[4]». إن هذا الوصف تغلب عليه المسحة الرومانية وليس السورية. فكاتب لوقا كان مسيحياً لاتينياً وليس سورياً وبالتالي أجرى قلمه بوصف يتماشى مع ذهنية أبناء شعبه. فالسوريون لا يغطون سطوحهم بالآجر، ولا ينامون على الفرش. إن وصف مرقس يتحدث عن كشف «السطح» وإدلاء المريض مع سريره. فلنلق نظرة على كيفية بناء السوري لسطح بيته كي نفهم المقصود. تُمَدُّ الجذوع الخشبية[5] التي تحمل السطح بموازاة بعضها بعضاً من أعلى أحد أطراف البيت إلى الآخر وعلى مسافة ثلاثة أقدام تقريباً بين الجذع والآخر. ويُمد عليها بالعرض ***أخشاب*** طويلة متلاصقة، ويوضع فوقها أوراق وأغصان وأشواك وتُغطى جميعها بطبقة من التراب يبلغ سمكها حوالي اثنتي عشرة بوصة. يُحدل التراب بمحدلة حجرية حتى يقسى فلا يرشح منه الماء. في فصل الصيف، يفتح بعضهم فتحة في سطح بيتهم تدعى ***قفعة*** بهدف إنزال الحبوب وغيرها من المؤن التي تنشف في الشمس إذ أن المسافة بين «النقضة» والأخرى تسمح بمرور سل كبير.

إن الذين أنزلوا المفلوج، إما أن يكونوا قد فتحوا فتحة جديدة في السطح، أو أنزلوا المفلوج من ***القفعة*** الموجودة بعد توسيعها بحيث تسمح بمرور المريض الجالس على لحاف مطوي ومربوط من الزوايا الأربع. هذا اللحاف هو، على الأرجح، ما قصده يسوع بقوله «قم واحمل سريرك وامش». يُستدل مما تقدم أنه لم يكن من السهل إنزال فراش من السطح، كما لم يكن من السهل على الرجل المتعافي حديثاً أن يحمل فراشه.

إن النوم على سطح البيت في الصيف هو عادة شرقية بدأ الغربيون «باكتشاف» فوائدها مؤخراً. فاستعمال سطوح البنايات العالية للنوم هو اقتراح «جديد» لذلك العبقري الملقب بالمصلح[6] الاجتماعي. أما بالنسبة إلى الشرقي الذي «لا جديد تحت الشمس» عنده، فإن السكنى على السطح قد ترمز إلى الوحدة والكآبة. بالرغم من هذا، فإن كاتب الأمثال يقول: «السكنى في زاوية السطح خير من امرأة مخاصمة وبيت مُشترك[7]».

مِنْ على سطح البيت ينادي البغّال على بضاعته وينادي الرجال بعضهم بعضاً لمختلف الحاجات. من هناك يعلن ***النواطير*** عن المعتدين على أملاك الغير، وتُقرأ «فرمانات» المحافظ أو الحاكم. لقد كنا، كلما نادى منادٍ من سطح أحد البيوت في النهار أو الليل، نصيخ بأسماعنا لالتقاط الرسالة الصوتية. يذكرني صوت المنادي بصفير قطار يتماوج من بعيد. ولقد ظللت لفترة طويلة، أثناء سنوات إقامتي الأولى

[4] لوقا 5: 19
[5] تسمى «النقض» في بعض أنحاء سورية الغربية وجبال لبنان. (المحقق)
[6] لا ندري من هو المقصود بهذه العبارة. (المحقق)
[7] أمثال 21: 9

في أميركانيا، أتذكَّر منادي القرية كلما طرقت مسامعي صفارة قطار لاسيما في الليل.

لا بد وأن يسوع كان قد استمع إلى المنادي من على السطوح وصوته الموحي بالقوة والحرية، مرات كثيرة. ولا بد أن الأثر الذي تركه في نفسه هو النقيض للهمس الخائف وللجبن والضعف. فهو يعلن في بشارة متّى[8] استقلال المسيحية ويصور لتلاميذه مدى البغض الذي سيواجهونه: «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب... وتكونون مُبْغَضين من الجميع من أجل اسمي...فلا تخافوهم لأن ليس مكتوم لن يُستعلن ولا خَفيٌّ لن يُعرف». أما في وجه كل الأحقاد والمخاطر والموت فإن وصية يسوع لتلاميذه الذين حملوا رسالته الغالية عبر العالم كله كانت: « الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور. والذي تسمعونه بالأذن نادوا به على السطوح[9]».

في الصيف السوري الجاف يُستعمل السطح في العديد من الشؤون المنزلية. فالعشب الذي ينمو على السطح الترابي، لاسيما في الزوايا السميكة، يذوي باكراً في الموسم. إلى هذا يشير عدد من نصوص العهد القديم بالقول في معرض الحديث عن أعداء إسرائيل: «ليكونوا كالعشب على السطوح الذي ييبس قبل أن يقلع[10]». وفي بعض الأحيان يصار إلى طلي السطح كله بالطين لتجفيف الحبوب والفاكهة والخضار عليه. وفي الصيف أيضاً تُقام الأفراح أو المناحات على السطوح، وهذه غالباً ما يحضرها أهل البلدة كلها. إلى هذا يشير إرميا «على كل سطوح موآب وفي شوارعها كلها نَوْح[11]».

إن تقليد الصلاة على سطح البيت الذي بدأ حين كان السوريون يعبدون «جند السماء» مايزال متّبعاً في الشرق حتى اليوم. فصفنيا يهدد كل من يمارس هذه العبادة بغضب يهوه: «وأمدُّ يدي على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم وأقطع من هذا المكان بقية البعل...*والساجدين على السطوح لجند السماء*[12]». إن هذا التقليد مايزال سارياً في سورية وان أقل بكثير من السابق، ومع العلم أن «رب العالم كله» هو الذي يُعبد وليس «جند السماء». إني أذكر بكثير من الحنين والتقدير جاراً لنا، مارونياً مؤمناً يخاف اللّه ويعمل الصالحات، كان من عادته أن يؤدي فريضة الصلاة كل مساء على سطح بيته.

يعتبر العديد من المسيحيين أن رؤيا بطرس إبّان وجوده في يافا هي من أثمن الدرر التي يتضمنها العهد الجديد، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيت السوري وبسطحه الترابي المسطح. يلمّح الإصحاح العاشر من أعمال الرسل إلى الروح

---

[8] متّى 10: 16، 22، 26
[9] متّى 10: 27 (المحقق)
[10] مزامير 129: 6 (المحقق)
[11] إرميا 48: 38
[12] صفنيا 1: 4

الشمولية العميقة التي كانت قد بدأت تهز أعماق الوجدان لدى البقية الصغيرة المحافظة بين أتباع يسوع. فالآفاق الأرحب التي كشفها مسيح اللّه للتلامذة كانت قد زرعت شكوكاً عميقة في أذهانهم حول ادعاءات الديانة اليهودية بكون مملكة المسيح المنتظر هي لليهود حصراً. فالروحية المثالية التي حملتها الأمثال التي تكلم بها يسوع كانت تدفع المؤمنين من غير اليهود للمطالبة من دون كلل بحصة لهم في نعمة الملكوت. ومما لا شك فيه أن روح بطرس، اليهودي الأرثوذكسي المحافظ لدرجة التشدد، كانت تتمزق حائرة في ولائها بين مزاعم اليهودية القديمة حول «الشعب المختار» وبين الرؤيا الجديدة لمملكة إنسانية شاملة قائمة على صفاء القلب والجوع والعطش في طلب البرِّ. على ما يبدو فان بطرس كان غارقاً في مثل هذه الهواجس حينما، وعملاً بالتقليد الشرقي القديم: «صعد بطرس على السطح ليصلي نحو الساعة السادسة[13]. فجاع كثيراً واشتهى أن يأكل. وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة. فرأى السماء مفتوحة وإناءً نازلاً عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاّة على الأرض. وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء. وصار إليه صوتٌ قم يا بطرس اذبح وكل. فقال بطرس كلاّ يا رب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية ما طهّره اللّه لا تدنسه أنت[14]».

أطاع بطرس. فذلك الشرقي الذي لم يتخوف من الكشف الخفي لمشيئة اللّه، أخذ العبرة وحفظها في قلبه. فنسمعه بعد حين يقول، وهو اليهودي المحافظ، في بيت كورنيليوس رئيس المائة الروماني: «بالحق أنا أجد أن اللّه لا يقبل الوجوه. بل في كل أمة الذي يتّقيه ويصنع البر مقبول عنده[15]». هذا هو الأساس المتين ليس لوحدة المسيحيين فحسب، بل لوحدة إنسانية شاملة. فحين تستجيب جميع المذاهب والأمم التي تعلن أنها من أتباع يسوع المسيح لهذه الدعوة الإنجيلية، وتدفن بحق عقائدها المجزِّئة بغض النظر عن المدى الذي تعتقده «لسلطانها»، عندها يمكن للإنسانية إن تنظر بأمل لأن تتحول سيوفها إلى محاريث ولأن تحل مملكة اللّه على الأرض.

[13] أي ساعة الظهر بالتوقيت الشرقي القديم. فالمزولة تضبط على أساس أن ساعة الغياب هي الثانية عشرة. بناء عليه تكون الساعة السادسة هي ساعة منتصف الليل وساعة الظهر. في سورية يسمى التوقيت الغربي بالتوقيت الإفرنجي. وهكذا يكون العمال الذين وفدوا للعمل في «الساعة الحادية عشرة»، كما ورد في متى 20: 9، قد وصلوا قبل الغياب بساعة واحدة.

[14] أعمال 10: 9-15

[15] أعمال 10: 34

الفصل الخامس

الكروم والحقول

منذ الأزل، والسوري ينظر إلى شجرتي الكرمة والتين كمصدر بهجة له. فبالإضافة إلى قيمتهما الفعلية، تحمل هاتان الشجرتان له رموزاً مقدسة لاسيما الكرمة. فامتلاء ثمارهما وحلاوتها يرمزان إلى أفراح الملكوت السماوي. واللغز الذي يكتنف كأس النبيذ، مع أن الإنسان قد حط من قدره، مايزال يحمل الكثير من القدسية للشرقي. لقد استعمل المسيح عبارة «نتاج الكرمة[1]» بمعنى الخمر وليس العنب، كالوسيلة المنظورة للصلة الروحية. «أنا الكرمة وانتم الأغصان[2]»، يقول يسوع لتلاميذه. ولا بد وأن يكون هذا التعبير شائع الاستعمال في الشرق منذ ما قبل المسيح. فالعهد القديم أيضاً يتكلم عن النبيذ كرمز للاتصال والوحدة الروحية بالإضافة إلى وحدة العائلة، فيرمز إلى إسرائيل ككرمة يهوه. «كرمة من مصر نقلت» يقول كاتب المزمور الثمانين، «طرَدْتَ أمماً وغرستها. هيّأت قدامها فأصَّلتْ أصولها فملأت الأرض...يا إله الجنود ارجعن اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة والغرس الذي غَرَسَتْهُ يمينك[3]».

لقد كنا دائماً ننظر إلى الكنيسة على أنها «الكرمة التي غرسها الله». فكلمات المزمور أعلاه ماتزال ترن في مخيلتي يترنم بها كاهن كنيستنا الأرثوذكسية بكل خشوع فيما يده مرفوعة فوق رؤوس الرعية الخاشعة. كذلك كنا نرمز بالكرمة إلى

[1] متى 26: 29، و مرقس 14: 25، و لوقا 22: 18 (المحقق)
[2] يوحنا 15: 5
[3] مزامير 80: 8، 14

العائلة كما رمز إليها واحد من ألطف المزامير وأجملها: «امرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك[4]». وهكذا أيضاً استعمل ميخا الكرمة والتين للإشارة إلى السلام والأمن: «بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب[5]».

في هذا النص ما يثير حنين هذا السوري قاطن أميركانيا إلى وطنه الأصلي. لقد كان الجلوس في ظل تينة وارفة بَرَكة يومية لنا في قيظ الصيف. وعلى ما يبدو ففي يوم كهذا شاهد يسوع نثنائيل لأول مرة. «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه. فقال له نثنائيل من أين تعرفني. أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك[6]». لا شك عندي في أن عادة نثنائيل الجلوس تحت التينة هي التي جعلت منه «إسرائيلياً لا غش فيه».

تعتبر معصرة العنب من معالم الحياة القديمة في سورية، وفي الوقت نفسه تستعمل في الإنجيل في أكثر الصور والتشابيه روعة. إن التعبير الإنجليزي للمعصرة، في هذا العصر الميكانيكي، قد يعطي الانطباع الخاطئ. فالعناقيد لا تعصر في آلة ميكانيكية بل تداس بالأرجل الحافية في ***المعصرة***. والمعصرة كناية عن فسحة صخرية مائلة بمساحة غرفة اعتيادية، محاطة بالحجارة، تُرمى عليها العناقيد في كُوم كبيرة وتداس بالأرجل. يتميز موسم المعصرة بالكثير من الحبور. فالعمل يستمر ليلاً ونهاراً لحين الفراغ من تحويل العناقيد التي جمعتها كل العائلات إلى نبيذ أو دبس. إن القصص الطريفة التي كان الشبّان «الدعّاسون» يتبادلونها والأغاني القديمة التي كانوا ينشدونها فيما هم يدوسون العناقيد جيئة وذهاباً، تعود إلى مخيلتي كأنما من ماضٍ سحيق. وإذ أسترجع صور هؤلاء بعد انتهائهم من «دعسة» كبيرة وثيابهم ملطخة بالعصير القوي من عنب لبنان، أشعر وكأن كلمات إشعيا «ما بال لِباسك محمرٌ وثيابك كدائس المعصرة[7]»، تنبض بالحياة.

غير أني أطرق هذا الموضوع مع اعتذار ضمني. ففي هذا العصر الذي يطغى عليه علم الميكروبيولوجيا، لا اعتقد بأن منظر رجال يدوسون عناقيد العنب بأرجلهم سيروق للحس الجمالي لدى القارئ أو ينال من إعجابه. لكن يكفيه أن يعلم أن جميع الخمور المذكورة في الإنجيل، بما فيها خمرة العشاء السري، قد صنعت بهذه الطريقة. فبالنسبة إلى الشرقي، تتكفل النيران وعملية التخمير العجيبة بتطهير عصير الكرمة الذي يجري عن سطح المعصرة ويمر في فتحات صغيرة ليتجمع في آبار صخرية صغيرة ليروق فيها ويصبح عصيراً نقياً يسمى بالعامية ***راووق***. الراووق الطازج مشروب منعش جداً. لهذا شبّه أيوب حالة الفقراء المظلومين بقوله «يدوسون

[4] مزامير 128: 3
[5] ميخا 4: 4
[6] يوحنا 1: 47
[7] إشعيا 63: 2

المعاصر ويعطشون[8]». بعد أن يمضي وقت على ركوده، يُغلى العصير بنسبة ما إذا كان سيصنع منه نبيذ حلو أم مزٌّ (النبيذ المُر). يحتاج النبيذ الحلو إلى وقت غليان أكثر، ويسمى ***بالخمر النسواني*** أما الرجال فيفضلون عادة النبيذ المزّ. عند صنع الدبس من عصير العنب يُصار إلى رشٍّ طينٍ أبيض ناعم على العناقيد قبل دوسها للتأكد من رسوب جميع المواد العضوية الخشنة أثناء ركود العصير في الآبار.

غالباً ما أتساءل عما إذا كان مرور السنين هو الذي يضفي على ذكريات الشباب هالة من الرومنطيقية، فيجعل الحياة الزراعية في الشرق تبدو أكثر شاعرية منها في الغرب، أو عمّا إذا كانت تلك الحياة هي بالفعل أكثر سحراً. على ما يبدو لي، فإن للأدوات جاذباً أكثر مما للآلات. وفي العمل اليدوي، لاسيما الفطري منه، لذة تفوق المهام المدروسة والمخطط لها. إن حياة المزارع الأميركاني مليئة بالتقدم ومبنية على العلوم الزراعية والمقالات الاختصاصية فلا تتسع لشيء من الرومنطيقية. ليس ثمة من غرائب مرعبة تقض مضجع المزارع الأميركاني، ولا أشباح مخيفة تسكن في حقوله. إن مبيدات الحشرات والنشرة الجوية اليومية بالإضافة إلى «أسعار» السوق، كلها تجعل منه مضارباً تجارياً أكثر منه فلاحاً بسيطاً. إن التطور الدائم الذي يدخل في الآلات الزراعية قد حفر هوَّة عميقة تتسع باستمرار بين المزارع الأميركاني وأجداده القدامى.

يختلف الأمر بالنسبة إلى المزارع السوري الذي يرى الحياة إرثاً لا تطوراً. فلو قام الرجال الذين كانوا ينقبون حقول إبراهيم في حبرون القديمة من قبورهم، لوجدوا أن أربعة آلاف سنة من الغياب عن هذه الأرض لم تترك أي أثر يذكر على تطور وسائل الفلاحة في «أرض الوعد». ولكانوا وضعوا يدهم على المحراث وباشروا في مهامهم اليومية وكأن شيئاً لم يكن. فلليوم لا يوجد سوى بضعة محاريث أوروبية يجري تجريبها في بعض أنحاء سورية، ولا شيء غيرها.

يذهب المزارع السوري إلى حقله حاملاً على كتفه اليمنى محراثه البدائي الطويل، ويحمل كيس البذار على ظهره فيما يتدلى النير من كتفه اليسرى. في يده اليسرى يحمل المنساس الطويل القوي كالذي جيء على وصفه في كتاب القضاة: «وكان بعده شمجر بن عناة فضرب من الفلسطينيين ست مئة رجل بمنساس[9]». بهذه الأداة البسيطة، يتحكم الفلاح بحركة زوج الثيران أو البقر الذي يسير الهوينا أمامه جارّاً المحراث. يتكون المحراث من قطعتين من الخشب متصلتين ويبلغ طوله حوالي الاثني عشر قدماً. ولمعرفة كمية الخشب التي يحتويها المحراث، يكفي أن نقرأ قصة لقاء إيليا النبي مع خليفته إليشع ابن شافاط إذ كان «يحرث واثنا عشر فدان بقر قدامه وهو مع الثاني عشر. فمر إيليا به وطرح رداءه عليه...فرجع من ورائه وأخذ

---

[8] أيوب 24: 11

[9] قضاة 3: 31

فَدّانَ بقر وذبحهما *وسلق اللحم بأدوات البقر* وأعطى الشعب فأكلوا. ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه[10]».

يتصل المحراث من طرفه الأمامي بالنير بخطّاف، أما طرفه الخلفي فيتصل بعارضة خشبية يشكل القسم الأعلى منها ما يعرف ***بالقابوسة*** أو القبضة، في حين تشكل شفرة المحراث الحديدية قسمها الأسفل. حين يضع الفلاح «يده على المحراث»، فهو إنما يمسك القابوسة بيده اليمنى فيما يدبِّرُ المنساس باليسرى. إن عدم استواء الأرض والحجارة الكثيرة التي تملؤها وخفة وزن المحراث تدفع الفلاح لإحكام قبضته على القابوسة والنظر أبداً *إلى الأمام*. يستعمل يسوع هذه الصورة بمنتهى البراعة في لوقا إذ يقول: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله[11]».

إن مَثَلَ الزارع الذي يستعمله يسوع في الإصحاح الثالث عشر من بشارة متّى يقدم صورة حية عن حياة المزارع في منطقة الجليل وجبل لبنان، فذلك المزارع البدائي لا يبذر حبه بمثقاب في خطوط متوازية، بل يتناول من كيسه قبضات ملأى بالحَبِّ وينثرها في التراب «على اسم الله الكريم»، ثم يطمرها في التراب بالحرث. إن طرقات الدواب التي تمر عبر تلك الحقول، والمعابر الضيقة التي تختصر المسافات، تسهل «سقوط» بعض الحب «على الطريق». وفي بعض أنحاء البلاد التي ترعرعت فيها، تعتبر «الأرض المحجَّرة» هي القاعدة «والأرض الجيدة» هي الشواذ. لهذا، فإن بعض الحبِّ الذي سقط على «الأماكن المحجَّرة حيث لم تكن له تربة كثيرة. فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق ارض. ولكن لمّا أشرقت الشمس احترق[12]». أما السبب الآخر لجفاف الحبِّ فهو انقطاع المطر في سورية من شهر نيسان إلى تشرين الأول مما لا يفسح المجال أمام الحَبّ الذي يسقط في التراب الضحل أن يعيش لفترة طويلة.

«وسقط آخر على الشوك. فطلع الشوك وخنقه[13]». الملامة من جرّاء هذا تقع على عاتق المزارع السوري وحده. فهو يحفظ الأشواك كعلف للماشية وكوقود للنار. فبعض الأشواك، لاسيما ***البلّان***، تُستعمل كوقود للطهي في الصيف الذي غالباً ما يتم في الخارج، وللخبز في ***التنّور***. «لأنه كصوت الشوك تحت القِدْرِ هكذا ضَحِكُ الجهّال[14]». أما غيره من الأشواك، فيُجمع بعد حصاد القمح والشعير ويُدْرَسُ ويُخزن كعلف للشتاء. يذكر العهد القديم دَرْسَ الأشواك في كتاب القضاة حيث يرد: «لذلك عندما يدفع الرب زَبَحَ وصَلَمَّناعَ بيدي أدرس لَحْمَكُم مع أشواك البرية بالنوارج[15]». شتّان ما بين النص الإنجليزي الذي يستعمل كلمة «أمزّق» لحمكم، وبين عبارة

---

[10] الملوك الأول 19: 19

[11] لوقا 9: 62

[12] متّى 13: 9 (المحقق)

[13] متّى 13: 7

[14] جامعة 7: 6

[15] قضاة 8: 7

«أدرس لحمكم مع أشواك البرية *بالنوارج*»، التي ترد في النص العربي، والتي تعطي الصورة الحقيقية للنوارج التي تجرها الثيران على البيدر فيما تُدْرَسُ الأشواك تحتها.

في طفولتي، كان تجولي في حقول القمح، فور اجتيازها مرحلة «الحليب» وبدء نضجها وقسوتها، مبعث فرحٍ كبير لي. في ذلك الطور، يسمى القمح ***فريكاً*** وهو لذيذ الطعم سواء أُكل نيئاً أم مشوياً. لقد كان بوسعي قضاء النهار بأكمله ولا أكل لي سوى قبضة من الفريك أحصلها من سنابل القمح التي أفركها بين يديَّ وامضغ حباتها الدسمة السمينة العطرة. منذ فجر التاريخ والتقليد يسمح لعابر السبيل في سورية أن ينتهك حرمة أملاك الآخرين على هذا المنوال بشرط ألاّ يحمل معه ما لا يأكله في الحقل. فنقرأ في سفر التثنية: «إذا دخلت زرع صاحبك فاقطف سنابل بيدك ولكن منجلاً لا ترفع على زرع صاحبك[16]».

إن انغماس تلاميذ يسوع في ممارسة هذا التقليد يوم السبت هو الذي استنزل عليهم نقمة الفريسيّين واحتجاجهم لجهة كونهم قد خرقوا حرمة السبت. «وفي السبت الثاني بعد الأول اجتاز بين الزروع. وكان تلاميذه يقطفون السنابل ويأكلون وهم يفركونها بأيديهم[17]». إن احتجاج الحرفيين الإسرائيليين وجواب يسوع في الآية التي تلي[18]، يقدمان لنا مظهراً آخر على الفكرة المركزية والدافع الأساسي عنده كمعلم ديني، وفحواهما أن احتياجات المرء الأساسية والشرعية لها الأولوية على جميع الطقوس الكنسية[19].

لا اعتقد بأنه يمكن إعطاء صورة واضحة عن الحياة الزراعية في سورية إذا أغفلنا الجراد، ذلك الطاعون الذي ينزل الرعب في قلب الفلاح السوري. عند صلاته لتكريس الهيكل يذكر سليمان: «..لفح أو يرقان أو جراد جردم[20]». من بين كل هؤلاء الزائرين غير المرغوب بهم، يبقى الجراد هو الممقوت الأكبر. سأعطي وصفاً لهذه الحشرة مقتطفاً من تجربتي الخاصة.

إن إحدى التجارب التي لا أنساها من أيام طفولتي، والتي لا يمكن للعقل الأميركاني أن يتخيلها، هي زحف الجراد إلى منطقتنا. لا أعتقد أنه كان لي من العمر أكثر من اثني عشر عاماً حين جاءت الأوامر من حاكم المنطقة لوالدي ولكل العاملين بإمرته، ولجميع الذكور فوق سن الخامسة عشرة أن يتجنّدوا لوقف زحف الجراد الشرقي. إن من لم يرَ مثل هذا المشهد، والخراب الذي تتركه تلك الحشرات المجنحة في

---

[16] تثنية 23: 25

[17] لوقا 6: 1

[18] «فأجاب يسوع وقال لهم أما قرأتم ولا هذا الذي فعله داود حين جاع هو والذين كانوا معه. كيف دخل بيت الله وأخذ خبز التقدمة وأكل وأعطى الذين معه أيضاً. الذي لا يحل أكله إلا للكهنة فقط. وقال لهم إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً». لوقا 6: 3. (المحقق)

[19] ينسجم هذا التفسير مع التحديد الذي قدمه الدكتور خليل سعاده، أيضاً من بلدة الشوير، (1857 - 1930) والذي علّم أن «الدين وجد لتشريف الحياة وليس العكس». (المحقق)

[20] الملوك الأول 8: 37

طريقها، لا يمكن له أن يقدر القوة التي تحملها في طياتها كلمات موسى لفرعون: «إن كنت تأبى أن تُطْلِق شعبي ها أنا أجيء غداً بجراد إلى تخومك[21]». لمدة أسابيع قبل إغراقها لناحيتنا، كانت الأخبار تردنا مع القوافل عن زحف الجراد من «أرض الجنوب» باتجاهنا. أما نحن الصغار، فلم ندرك سبباً لذلك الرعب الذي استحوذ على أهلنا إلى أن حلت الكارثة ومضت.

كان ذلك قبل موسم الحصاد ببضعة أسابيع حين أطبقت غيوم الجراد على منطقتنا فحجبت الشمس بأجنحتها الخضراء المشوبة بالصفرة وغطت الشجر والأرض والحيطان وسطوح المنازل. لقد كانوا يلسعون وجوهنا كرقع ثلج تدفعها ريح هوجاء، بحيث أن جميع الجهود التي بذلها الناس من جميع الطبقات لدفع البلاء ذهبت سدى، بل أنها خلقت مشهداً مضحكاً في تلك العطلة القسرية التي فرضتها الكارثة. لقد كان مشهداً مسلياً لي أن أرى نبلاءنا الوقورين وكبار السن من الرجال والنساء يتكاتفون مع الشباب والعامة في الصراخ والضرب على التنك الفارغ وإطلاق الرصاص في الهواء وإشعال النيران وضرب الحشرات بالأيدي والدوس عليها بالأرجل والطلب إلى الله أن يرسل «ريحاً قوية» لرد عديد العدو. لقد كان على كل **متكلف**(دافع ضريبة) أن يشارك في قتال الجراد أو يستأجر من يحل محله في هذه المهمة.

لا أذكر ما إذا كان الصراخ أو الضرب على التنك أو الريح القوية التي قامت من أجلها الصلوات هي التي دفعت بالحشرة المرحة عن ربوعنا. إنما أذكر أنها تركت الأرض جرداء لا أثر للاخضرار فيها.

إن تهديد كاتب التثنية لبني إسرائيل لم يكن فارغاً حين قال: «ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها...جميع أشجارك وأثمارك يتولاه الصرصر[22]».

[21] خروج 10:4

[22] تثنية 28، 15، 41

الفصل السادس

الراعي

«أنا هو الراعي الصالح[1]» هي بحق واحدة من ألطف وأرق العبارات التي قالها يسوع. ولفهم أبعادها، يجب دمج الآيات الست عشرة الأولى من الفصل العاشر في بشارة يوحنا، والتي منها هذه العبارة، مع المزمور الثالث والعشرين[2]، وبغض النظر عن كون آيات يوحنا مشوبة بأثر الفكر اليوناني، فإن هذين النَصّين، من حيث وصفهما لحياة الرعاة في الشرق، يتناولان فكرة واحدة.

إن المراحل العديدة من حياة الرعاة في سورية راسخة في ذاكرتي يصعب محوها. فبيتنا في القرية الجبلية الصغيرة كان على المنحدر الأعلى من تلة حادة، وفي أسفلها كان هناك ساقية صغيرة تترقرق المياه في مجراها الصخري. في الجهة الأخرى من هذا الوادي الضيق الصغير، وعلى منحدر منخفض لتلة أخرى قبالة منزلنا، كان يوجد ثلاث حظائر للغنم والماعز. هناك، ولمدة سنوات، راقبت الرعاة وقطعانهم يخرجون ويدخلون، صبحاً ومساء، من أول الربيع إلى آخر الخريف. في آخر أيام الخريف، كان الرعاة يفككون الحظائر بإزالة السياج الشوكي، ثم يقوِّضون الخيم الصيفية التي كانوا يعيشون فيها، ويقودون القطعان إلى الأراضي المنخفضة

[1] يوحنا 10: 11

[2] ومطلعه «الرب راعي فلا يعوزني شيء» (المحقق)

أو السواحل حيث يمضون فصل الشتاء القصير. إن نواح إشعيا «مسكني قد انقلع وانتقل مني كخيمة الراعي[3]»، يذكرني بالسهولة التي كانت تزال بها تلك المساكن المؤقتة.

لقد تنقلت في مختلف أنحاء جبل لبنان مساعداً والدي في حرفة البناء، وحيثما ذهبنا، كان هناك رعيان حولنا. في تلك الأيام كنت أشاهد الراعي يورد قطيعه إلى «مياه الراحة»، المياه العذبة المنعشة التي يصفها النص الإنجليزي من الإنجيل «بالمياه الساكنة». وكنت أعجب لقدرته على قيادة «المباركين» بل دعوتها إلى كل زاوية بين الصخور ينبت فيها عشب للرعي، وذلك بأصوات عميقة يرسلها من حنجرته، وبالصفير والكلمات المميزة ونقف الحصى أو الحجارة الملساء، كتلك التي ضرب بها داود جليات. لا بد وأن يكون مثل هذا الشعور بالاهتمام والمسؤولية قد مرّ في بال المزموري حينما استهل مزموره الثالث والعشرين بقوله «الرب راعي فلا يعوزني شيء». في حر النهار، كان الراعي «يُربض خرافه» في المرعى. فيثني «المباركون» –وهو الاسم الذي به يدعو الراعي خرافه وماعزه– أقدامهم تحتهم ويضطجعون زرافات ووحداناً في صورة تجسد الكفاية والثقة والاطمئنان. لقد كانوا يبدون لي مطمئنين، بالرغم من كونهم في البرية، إلى ألاّ خطر عليهم.

في مطلع الإصحاح العاشر من بشارة يوحنا، ترد إشارة واضحة إلى حظيرة الخراف: «الحق الحق أقول لكم إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص[4]». الإشارة هنا هي حصراً إلى الحظيرة الصيفية كتلك التي مرّ وصفها آنفاً، والتي كانت تستعمل في أيام الصيف الجافة. أما الحظيرة الشتوية فتكون زريبة مسقفة تدعى ***المراح***. وحيث أن للمراح مدخلاً واحداً منخفضاً ولا نوافذ فيه، فإن اللص الذي يتسلق «من موضع آخر» لن يلقى غنيمة. أما الزريبة التي لا سقف لها فتدعى ***حظيرة***، وهي مبنية من حجارة وعرة بارتفاع حوالي خمسة أقدام (متر ونصف المتر) كتلك الموجودة في مقاطعة نيو إنغلند. فوق الحجارة، يقيم الراعي سياجاً من الأغصان الشائكة ويثبته بقوة بينها. هذا هو السياج الذي يمنع اللص والسارق من التسلق إلى الحظيرة.

«وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف. لهذا يفتح البوّاب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها[5]». يبني الراعي خيمته بالقرب من باب الحظيرة، حيث ينام وبقربه كلبه الوفي. قد يجوز أن تكون كلمة بوّاب هي نتيجة تأثير يوناني. ولكن متى كان القطيع كبيراً، يمكن لمساعد الراعي أن يفتح الباب.

أما مناداة الخراف بأسمائها، فهذه العبارة يجب ألاّ تؤخذ بصورة حرفية.

[3] إشعيا 38: 12
[4] يوحنا 10: 1
[5] يوحنا 10: 2-3

فالراعي لا يعطي أسماء للماشية في قطيعه كما نعطي أسماء للإنسان. ولكنه يعرف ماشيته بعلامات مميزة لكل منها ويفتقدها بها إذا ضاعت. يعطي الراعي الماشية المميزة في قطيعه أسماء من صفاتها كالبيضاء، أو السوداء، أو الرقطاء، أو الصبحاء، الخ... إن المقصود بالقول «فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها»، هو الدلالة على مبلغ الحب الذي يحمله الراعي للقطيع، وليس بالضرورة لأنها تستجيب لمناداته.

«ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته[6]». أعتقد بأن تشديد بعض المعلّقين على أن الراعي يسير أمام خرافه يعطي الانطباع وكأنه *دائماً* يفعل ذلك، في حين أن الأمر ليس كذلك. كقاعدة، يسير الراعي أمام الخراف. ولكنه كثيراً ما يمشي وراءها لاسيما في المساء أثناء العودة إلى الزريبة، لكي يتمكن من جمع الخراف الشاردة وحمايتها من الذئب. في بعض الأحيان يسير الراعي إلى جانب القطيع وبالقرب من نقطة الوسط. أما إذا كان القطيع كبيراً، فيسير الراعي في المقدمة ومعاونه في المؤخرة.

لقد كان مرور القطيع بالقرب من بيتنا كل مساء يبعث السعادة في قلبي. فما أن يحين الغياب، حتى أصعد إلى السطح منتظراً مرور القطيع على جانب التلة بالقرب من بيتنا. وبعد هنيهة، كنت أسمع ضجيج الحوافر على حصى الطريق فأعرف أن المباركين على مقربة. وما هي إلا لحظات حتى ينحدر القطيع من على التلّ كجيش يسير رَمَلاً، فيما راعيه الشجاع اللطيف يسير وراءه، يراقبه بحذر، ويقوده حاملاً عصاه القوية، كأنه ظل للإله القدير فيعبر به الجدول إلى الحظيرة.

إن القدرة على قيادة القطيع بخبرة لا تتيح مجالاً للخطأ كانت تتجلى أثناء مرور المواشي على الطرقات الضيّقة. ففي سورية حيث لا تُسيّج الحقول بشكل عام، لا يفصل المراعي عن الحقول المزروعة سوى ممر ضيق أو حائط حجري صغير الغرض منه تحديد الأرض أكثر مما هو لتسييجها. الحقول المزروعة محرمّة على القطعان. فعلى الراعي إذاً ألاّ يسمح لخرافه بأن تشرد إلى الحقول أثناء نقله القطيع من مرعى إلى آخر. فإذا حصل هذا، كان عليه أن يدفع بدل الضرر الحاصل، ولكن الأهم من ذلك أن سمعته كراع قدير تتشوه. في بلدتي، كان هناك راعٍ اشتهر بقدرته على قيادة القطعان في الممـرات الضيقـة. سعيد، الذي كان يزود قريتنا بحليب الماعز الطازج، كان بمقدوره أن يقـود قطيعـاً يزيد عن مائة وخمسين رأساً من الماعز (الأكثـر جموحاً من الخراف)، عبر ممر ضيق أو فوق حائط حجري طويل دون أن تشـرد عنزة واحدة. لقد كان القطيع يطيعه لأنه يعرف صوته ويدرك أنه صوت راعيه الصالح.

لا شك أن الرعاة مثل سعيد هم الذين أعطوا مادة الوصف لكاتب المزمور الثالث والعشرين. ولا

---

[6] يوحنا 10 4

شك في أن قيادة هؤلاء الرعاة الحكيمة، وهم مجرد بشر، هي التي دفعت المنشد القديم إلى التأمل بإخلاص الله لرعيته والقول: «يهديني إلى سُبُلِ البرِّ من أجل اسمه[7]». إن حقول التجربة تقع على جانبي ممر الصلاح الضيق في الحياة. والرب يحمي كل من يؤمن به ويسمع كلامه فيقوده إلى الطريق السوي.

من المشاهد البهية الأخرى للحياة الريفية في سورية، مشهد جمع القطيع. يجمع الراعي خرافه لنقلها إلى مرعى أغنى بالعشب، أو لقيادتها إلى الحظيرة في آخر النهار. يقف الراعي في وسط القطيع المترامي الأطراف ويرسل من حلقه أصواتاً هي للغنم بمثابة صوت البوق للعسكر. ومن يمناه، المشهورة بدقة إصابتها للهدف، يرسل الحجارة يردّ بها الغنم الشارد. لابد وأن هذه الصورة كانت ماثلة في ذهن المزموري حين قال «**يرد نفسي**». فالراعي الأمين لا يمكن له أن يبدأ بنقل قطيعه إن لم يتأكد أن كل العجماوات التي بعهدته قد تجمعت.

إن أجمل ما قيل في وصف الراعي كما جاء في يوحنا يرد على لسان يسوع بقوله «أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف[8]». أما في المزمور الثالث والعشرين فيكمن في المقطع الذي يقول «أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي. عصاك وعكّازك هما يعزيانني[9]». فقط أولئك الذين سمعوا صياح الراعي الأمين في مواجهة حيوان مفترس اقترب من القطيع يمكنهم استيعاب مدى صحة قول يسوع «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».

من بين جميع الرعاة الذين عرفتهم أو سمعت عن أخبارهم في سورية، تحتل صورة يوسف البالوع بقامته المديدة، مركز الصدارة في مخيلتي. إن أنسى لا أنسى يوسف البالوع، الذي كان قد تجاوز الستين يوم عرفته. لقد كان راعياً بكل معنى الكلمة لاسيما وأنه لم يعرف مهنة أخرى طوال حياته. تعرفت إلى يوسف في «الأراضي المنخفضة» يوم كنت أساعد والدي في بناء عدد من الحظائر لسيد الأرض، وامتدت صداقتنا لسنتين. لقد كان يوسف، على حد قوله لي، يبجل والدي ويجله. لهذا كان دائماً يرحب بزيارتي له في كهفه الواقع فوق ممر صخري ضيق، ويدعوني للتجوال معه حيثما يذهب وكلما سمحت ظروف عملي بذلك.

تبقى القطعان في الأراضي المنخفضة إلى ما بعد موسم الولادة في شهر آذار، وبعد ذلك تقاد صعداً في الجبال. ذات مرة، وكنت مع يوسف في موسم الولادة المبارك، تعرفت عن كثب إلى المعنى الحقيقي لتلك الصورة التي تمثل يسوع أيما تمثيل: «كراع يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات[10]». هذا ما كان يوسف البالوع يعمله حين جئته زائراً ذات مرّة. لقد كان

[7] مزامير 23: 3
[8] يوحنا 10: 11
[9] مزامير 23: 4
[10] إشعيا 40: 11

واقفاً، بقامته المنحوتة، يضم إلى صدره ثلاثة حملان حديثة المولد، تسند رؤوسها المتدلية على زنديه. لقد كان يمشي بتؤدة أمام الأمهات الثلاث اللواتي كنّ يتبعنه على مهل، وكنّ يقتربن منه و يبعثن بهمهمات سكبت فيها الطبيعة كل ما بوسعها من حنان.

«دعني أحمل أحدها»، رجوت يوسف. «كلا يا بني، ليس الضعاف منها»، أجاب الصديق الوفي. «إنها بحاجة إلى عناية الراعي الآن. كما أن الأمهات لا تعرفك فتخاف». ولكنها عرفت صوته فتبعته!

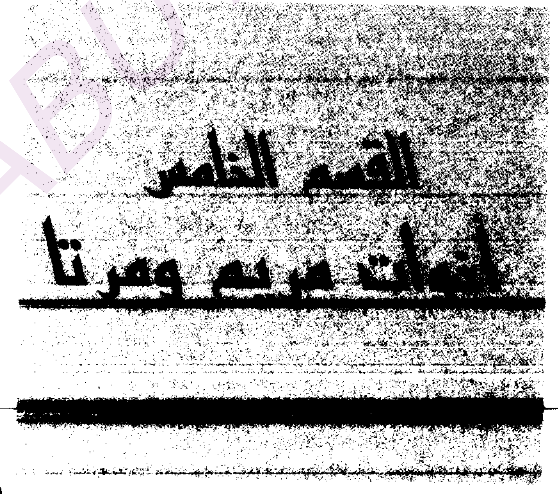
آه لو نعرف صوت راعينا السماوي فنطمئن إليه ونتبعه، كما تطمئن الخراف إلى راعيها وتتبعه.

بيد انه لا يجوز لي أن أنسى ما أعتبره القمة في جمال وصف الراعي كما يرد في كل من بشارة يوحنا والمزمور الثالث والعشرين، حيث يرمي الراعي بحياته بين القطيع والذئب. إن ألد أعداء القطيع هي الذئب والضبع والنمر. لقد كان ليوسف أكثر من معركة مع هذه الوحوش الضارية، ولكنه لم يخسر حافراً لها في حياته الطويلة. أكثر من مرة تبع يوسف الضبع إلى عرينه، وأرغمه، بصياحه المميز وحجارة مقلاعه وضربه بالعصا على الصخور، على التخلي عن فريسته. وسواء كانت الشاة المسكينة ماتزال حية أم كانت قد قتلت، فقد كان يوسف، كأي راعٍ صالح، يحملها معه ويعيدها إلى الحظيرة. أليس هذا ما وصفه عاموس بقوله: «كما ينزع الراعي من فم الأسد كُراعَين أو قطعة أذن...[11]» ولمثل هذه العناية والاهتمام من الراعي يشير يسوع في مثله عن مجيئه لإنقاذ الضالين: «إن كان لإنسان مئة خروفَ وضل واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال. وإن اتفق أن يجده الحق أقول لكم انه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تَضِلّ. هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار[12]».

حين أفكر بذلك الوادي الصخري العميق الذي كان يمضي فيه يوسف الشتاء مع قطيعه، والعديد من الأودية المشابهة التي يقطعها الرعيان السوريون كل يوم، وحين أفكر بالحيوانات المتوحشة التي يصارعونها والجراح التي يحملونها على أجسادهم، والتي تشهد على مدى حبهم لقطعانهم، عندها يتجلى لي مدى إيمان كاتب المزمور الثالث والعشرين حين قال: «أيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني».

[11] عاموس 3: 12

[12] متّى 18: 12-14


القسم الخامس
أخوات مريم ومرتا


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الأول

المرأة في الشرق والغرب

ربما لايختلف الشرق والغرب حول أي موضوع بمقدار اختلافهما على منزلة المرأة في المجتمع. وبمقدار ما يختلفان، أو يتوهمان بأنهما يختلفان في مدى التقدير الذي يكنه كل منهما للمرأة، فإن الشرقيين والغربيين يشكلون نوعين بشريّين متمايّزين.

منذ بدء تاريخها، أظهرت الأعراق التيوتونية، لاسيما الأنغلوساكسونية منها، تقديراً عالياً جداً للمرأة. ولقد انطبعت هذه الفكرة عن الأقوام التي قطنت شمال غرب أوروبا في أذهان المرسلين المسيحيين من اللاتين لدرجة قولهم «إن هذه الجماعات تحترم المرأة إلى درجة أن البغاء مجهول لديها». ومع أن هذه العبارة لا تصف بدقة كلّية الحالة الحاضرة في المجتمعات الأنغلوساكسونية، فإنها على قدر كبير من الصحة في وصف الحياة الأنغلوساكسونية في وقتنا الحاضر.

بالمقابل، يرى الغربيون أن «نظرة الشرقي إلى المرأة»، هي نظرة احتقار. إن الإنسان بطبعه يكره بشدة العيوب التي يراها في الآخر، لاسيما تلك المناقضة لما يعتبره قمة فضائله، فنراه يضخم العيب ويدين الآخر لما يراه انحرافاً عن السبيل القويم. وبما أن الغربي يضع احترام المرأة في طليعة فضائله، فإنه يصاب بالغضب الشديد لما يعتبره انعداماً في احترام الشرقي للمرأة.

لقد سبق وذكرت أن هدفي ليس اتهام الشرقي ولا تبرير نواقصه بمقدار ما هو تفسير سلوكه للقارئ الغربي لتبيان ما إذا كان بالفعل يتخطى قواعد السلوك

الطبيعية تجاه المرأة. إن معرفتي الدقيقة بكل من العالمين الشرقي والغربي، وتقديري العالي للخصائص الممتازة التي يتحلى بها سكانهما، يدفعانني لمحاولة التقريب بين وجهات النظر المختلفة بينهما. هناك الكثير من سوء الفهم بين الطرفين لاسيما فيما يتعلق بالشؤون الأهلية وبالعلاقة بين الجنسين. لقد ولّى زمن التمسك بالجهل والإجحاف بحق الآخر والهزء بتقاليده.

لقد «حانت الساعة» لأن يدرك سكان هذا الكوكب أن الحق والخير واللطف والأخلاق الحميدة ليست حكراً على عرق دون غيره. فثمة إدراك لدى شعوب الأرض قاطبة أن الفهم والتعاطف بين الأعراق هما ذخر للإنسانية وعامل مشجع للجامعة البشرية التي يطلبها الجميع ويتمنون قيامها. لهذا، وبصفتي مديناً بالكثير للشرق والغرب، أجد أنه من واجبي القيام بكل ما في وسعي لترويج هذا الفهم والتعاطف، من دون الابتعاد عن الحقيقة.

إن الحقيقة الواضحة التي لا يمكن تجاهلها هي أن المرأة الشرقية غير مساوية في امتيازاتها الثقافية أو الاجتماعية لأختها الغربية. وربما لايوجد في العالم كله بلد تتمتع فيه المرأة بمثل هذه الامتيازات كأميركانيا. لم يعرف الشرق المرأة رفيقة فكرية للرجل، أو ناشرة للمبادئ، أو حتى ذات تأثير في الشؤون المدنية والاجتماعية، مع الاعتراف بوجود قلة من النساء في سورية ممن يمارسن بعض نواحي الحياة الغربية.

إن قانون العلاقات الاجتماعية في الشرق، إذا صح التعبير، يقدم الرجل على المرأة. فالشرقي يرى أن إعطاء المرأة دوراً بارزاً على الصعيدين المدني والاجتماعي، أو منحها الاهتمام والكياسة اللذين تتمتع بهما المرأة في الغرب، هما من الكماليات غير المستحبة لدى الجنسين.

إنه لمن المرجح أن تكون قلة الاهتمام لتلك الكياسة هي مصدر الشعور لدى الغربيين بأن المرأة هي أَمَةٌ لزوجها في الشرق. وبالعكس، فان الشرقي – رجلاً كان أو امرأة – يرى، من كثرة الاهتمام والكياسة التي يبديها الغربي تجاه المرأة، أن الرجل هناك ما هو سوى عبد لزوجته. كم من مرة سمعت السوريين يقولون: «إن الغربي لرجل عظيم إلى أن تهمس زوجته شيئاً في أذنه، فيتحول إلى عبد مطيع ينفذ ما تأمره به».

إن لامبالاة الشرقي بالكياسة الراقية لا تنبع من إيمانه بأن المرأة أدنى منه جوهرياً، وبالتالي أَمَتُه. فما من مرة خامرني شعور، لا من حيث المبدأ ولا من حيث الممارسة، أن والدتي هي أدنى من والدي مرتبة. فالأمر «أكرم أباك وأمك» قد نبع من صميم الحياة الشرقية. ولا يحضرني أي مثل من واقع الحياة الشرقية حيث يعتبر

السوري أن أمه أو أخته أو زوجته غير متساويات معه في جميع الشؤون الأساسية في الحياة[1].

بتقديري أن سلوك الشرقي تجاه المرأة، والذي ربما لايعكس بالضرورة حقيقة نواياه، هو ما يستجلب نقمة الغربي عليه. ومع أنه من الخطر بمكان محاولة التفريق بين الخلق والسلوك، وبين الدافع والوسيلة، فإننا غالباً ما نقول إن فلاناً نيته سليمة ولكنه لا يحسن التصرف[2]، وهذا ما ينطبق على الشرقي بشكل عام. فنواياه حسنة، وهو يتمتع بالذكاء واللطف والكرم والتقوى وإطاعة الوالدين ومحبة العائلة، بحيث لا يمكن التفريق بينه وبين الغربي في أي من هذه الأمور.

لكن بالمقارنة مع ابن عمه الغربي، فإن ابن الشرق الأدنى لم يتعرف بعد إلى فن العيش. فالتفاصيل التي يُتوخى من ورائها خلق نوع من الانسجام يعتبرها تفاهات لا طائل تحتها ولا ينتج عنها سوى الإغاظة. ومحبته العميقة للحياة السهلة البسيطة العفوية تدفعه إلى رفض المقاييس الصارمة. في هذا المجال هو لا يعدو كونه أكثر من صبي في لباس رجل. فالمنزل بالنسبة إليه ليس أكثر من ملجأ. وغنى البيت لا يكون في الرياش الثمين بل في الصِّلات الإنسانية. أما التصميم المعماري وهندسة الديكور والكتب والموسيقى والعيش على دقات الساعة، وغيرها من مظاهر العظمة الغربية، فما هي سوى كماليات. فإذا كان البيت بسيط الأثاث، ومن غرفة أو اثنتين يكفي لحياة العائلة، فلماذا تحمّل أعباء بيت أكبر؟ وما الحاجة إلى «تناسق الألوان بين الغرف» وما هي الفائدة من التناغم أو التضاد بين ألوان ورق الجدران وإطارات الصور والسجاد؟ إن السوري لا يرى في مثل هذه المسائل وما يتفرع عنها من أمور الأثاث أو أدوات الزينة التي تدخل في تأثيث البيت الأميركاني، سوى شرك وتضليل له.

كذلك الأمر بالنسبة إلى بساطة أثاث مائدته. فالشيء الأساسي هو الكفاية من الأكل بما يحفظ الحياة. الشرقي لا يحتفظ بكتب فن الطبخ، ولائحة طعامه لا تعرف كل الحلويات وفطائر الفاكهة وصحون المقبلات التي تزين مائدة الغربي. إنه يكتفي من الطعام بطبخة من الحبوب المسلوقة، أو الأرز مع اللحم، أو غيرها من المآكل البسيطة مع بضعة أرغفة من الخبز. فإذا رغب بالحلوى، ففي خوابيه من دبس العنب أو الزبيب أو التين المعقود ما يكفيه. أما النبيذ الذي يصنعه بنفسه، «فقليل منه يفرح قلب الإنسان» ويضفي البهجة على أعياده.

الشيء نفسه ينطبق على علاقاته الاجتماعية. فهو يكره المقاييس سواء طبقت عليه كفرد أو ككائن اجتماعي. فلا مكان للتكلف والرسميات بين الأصدقاء

[1] إن عبارتي هذه تنطبق بشكل خاص على النساء المسيحيات في سورية اللواتي يتمتعن بامتيازات اجتماعية اكثر من النساء المحمديات. غير انه بصرف النظر عن بعض القيود التي يضعها المحمديون المتشددون على نسائهم، فإنه لمن الإجحاف المطلق بحق الغالبية القصوى من المحمديين، القول إنهم يستعبدون نساءهم أو يحطون من قدرهن.

[2] لقد رفض شويري آخر هو أنطون سعاده هذا المفهوم ووضع مبدأ جديداً للعلاقة الاجتماعية بقوله: «ليست الأعمال بالنيات، وإنما النيات بالأعمال». (المحقق)

والمحبين لاسيما إذا كانوا من الطبقة الاجتماعية نفسها. وعفوية الحياة يجب ألاّ تثقل بقواعد التشريفات، ولا الحكمة الموروثة بتقنيات الثقافة. «***متى وقعت المحبة يزول التكليف***»، هكذا يقول المثل القديم الذي يتعلق به الشرقي.

منذ نعومة أظافره، يتعلم الأميركاني أن يستعمل تعابير «من فضلك»، «لو سَمَحْت»، «عفوك»، «شكراً»، ومثلها الكثير، في مخاطبته لأفراد بيته. أما بالنسبة إلى الشرقي فهذه التعابير تصلح في مخاطبة الغرباء فقط، ولكن لا مكان لها بين الأشخاص الذين بحق يحبون بعضهم بعضاً. فبين الرجل وزوجته، والأهل وأولادهم، والأخوات والأخوة، وبين الأصدقاء الخلّص أنفسهم، تبدو هذه الرسميات، ليست سطحية فحسب، بل وسخيفة أيضاً. فالمهم لهؤلاء الأشخاص هو أن يحبوا بعضهم بعضاً. وكأحبة، يحق لهم أن يطلبوا المعروف من بعضهم بعضاً. إن طلبات المحبين عذبة، ولا يجوز تلويثها بالشكليات المتعبة.

يمكن لودِّ الشرقي أن يكون متعِباً في بعض الأحيان. فهو يعتمد إلى حد بعيد على حسن نواياه التي ربما لاتتطابق وسلوكه. فلو حكمنا عليه، ليس بالمقاييس الغربية بل بمقاييس الأقلية المتنورة من بني قومه، لوجدنا أنه ينقصه الكثير. ففي بعض الأحيان، يتحول الود فظاظة وتنقلب الصداقة إلى تدخل في الخصوصيات. أما عذره الدائم فهو أن نيته حسنة.

أعتقد أنه يمكننا رد تصرفات الشرقي حيال المرأة، والتي تصل إلى أعلى درجات التقديس الديني من جهة وتُقارب الازدراء من جهة أخرى، إلى طبعه الطفولي المتقلب وانعدام الثقافة، ولكن ليس بسبب احتقاره لها. فطالما أنه يحترمها في قلبه ويدافع عنها بأي ثمن كان، فان آداب السلوك على الطراز الأميركاني تصبح تفاصيل يمكن الاستغناء عنها. ولا يظنن أحد أن موقفه يختلف بالنسبة إلى الرجال. فللشرقي لغة واحدة يستعملها وإن كان يظهر الاحترام الأكثر تجاه الجنس اللطيف.

المرأة إذاً غير مستعبدة للرجل في الشرق، بل توجد أعداد لا تحصى من النساء اللواتي يتحكمنَ برجالهنّ. أما نظام العائلة فهو بالضرورة بطريركي. الرجل هو «رب البيت». والأب في العائلة هو شخص مبجل، ولا يسود على نساء بيته فحسب، بل على أبنائه حتى البالغين منهم، وأخوته الأصغر منه وحتى رجال عشيرته الذين هم دونه سناً. غير أن هذه السلطة غالباً ما لا تتجاوز الشكليات الرسمية. فكلما زادت نسبة الثقافة في البيت، كلما زادت الحرية والمساواة بين أفراد العائلة. وفي البيوت السورية التي عرفت قسطاً من الثقافة، لا حاجة للمرأة السورية أن تحسد صنوها الأميركانية على الإطلاق».

الفصل الثاني

بولس والمرأة

ربما لايوجد ما هو أفضل من تعاليم بولس الرسول لقراءة موقف السوريين الأوضح من المرأة. فالرسول العظيم يتعاطى مع أسس هذا الموضوع ويناقشه بحرية من وجهتي نظر امتيازات المرأة وحدودها في الشرق المسيحي.

يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع[1]». ليس المقصود هنا المساواة في الطقوس الكنسية فقط، بل في أصول التعاطي بين الذكور والإناث في البيت الواحد. فبولس يطلب من المؤمنين الالتزام بعهود الزواج بشكل متساوٍ. ولكنه لا يطلب هذا بصفة رئيس ذو سلطان، بل كصديق. وفي الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، يقول: «ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل. *وكذلك* الرجل أيضاً ليس له تسلط على جسده بل للمرأة[2]». وفي الآية الرابعة عشرة من الإصحاح نفسه اعتراف صريح بأن القوة الروحية متساوية بين الزوج وزوجه فيقول: «لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل». أما في رسالته إلى أهل أفسس فيتسامى بولس إلى قمة التفكير الشرقي حول المرأة ويكشف عن قوة المسيحية التي تحفظ وتقدس: «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها. لكي يقدسها مطهراً إياها...لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غَضْنَ أو شيء من مثل

[1] غلاطية 3: 28

[2] كورنثوس الأولى 7: 4

ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب. كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه كما الرب أيضاً للكنيسة[3]».

هذا ما يعنيه لنا الاتحاد بالزواج في الشرق. فبهذا الرباط المقدس، يصبح الرجل وزوجته «جسداً واحداً». أما فشل الشرقي في أن يتماشى سلوكه اليومي مع مُثُلِه العليا ومبادئ البشارة النبيلة فهذا واضح وليس بمستغرب. فنجاح السوري في هذا المجال هو بمقدار نجاح نظيره الأنغلوساكسوني في تطبيق «أحبوا أعداءكم». إن الروح التي نطق بها بولس كلماته تعيش في قرارة نفس السوري بمثابة ضمير له يهبُّ لمساعدته كلما دعت الحاجة، ولكن مشكلة الشرقي هي في مقته للحياة الانضباطية النظامية. إنه يحب زوجته كنفسه، ولكنه لا يعرف كيف يحب نفسه بشكل صحيح.

على صعيد آخر، لا يهمل بولس القيود التي تفرضها التقاليد الشرقية على المرأة فنراه يعترف بالسلطة البطريركية في العائلة. ففي الإصحاح المذكور أعلاه يقول: «أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة *كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة*». يمكن للنقاد توفير الكثير من العناء إذا أخذوا بعين الاعتبار الناحية الشرطية في هذه العبارة. فأنا لا أؤمن، سواء كسوري أو كأميركاني، بإخضاع المرأة للرجل ولا الرجل للمرأة، بل ببناء الحياة المنزلية على التعاون التام بين الزوج وزوجه في الأمور الروحية والإدارية. في هذا المضمار، لا بد من الاعتراف بأن الأميركان قد قطعوا شوطاً بعيداً. إن أمر بولس المذكور أعلاه لا يمكن بحال أن يستفاد منه إعطاء الرجل سلطة استبدادية مطلقة على زوجته. «لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة». إن الكنيسة ليست عبدة للمسيح بل عروسه الحبيبة. فالتركيز إذاً هو على الحب والاهتمام والمراعاة. إن كون التقاليد في الشرق منحت الرجال سلطة تقليدية على النساء لم يعنِ لنا أبداً، نحن أبناء ذلك الشرق، أن أمهاتنا وأخواتنا هنَّ عبدات ذليلات. على العكس، فجدير بالذكر أن المرأة في سورية ليست على هذا المقدار من الخضوع كما يتصور الغربيون. فهناك العديد من الرجال العاجزين عن ممارسة أي من صلاحياتهم الرسمية، ولسان حالهم يقول وهم في بلاد الإنجيل: «حتى ملائكة السماء كلّها لا تستطيع التغلب على المرأة».

في الإصحاح الحادي عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، يبدو بولس للعديد من الغربيين، وكأنه يصدر حكماً مبرماً على مرتبة المرأة بقوله: «فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل[5]».

[3] أفسس 5: 25-29
[4] أفسس 5:22
[5] كورنثوس الأولى 11: 7

إن الباحث الإنجيلي الجاد يدرك فور قراءته هذه الآية أن بولس، كأي راعٍ صالح، يتصرف وكأنه لا يريد أن يتقدم بسرعة كبيرة على أضعف الأعضاء في قطيعه. إنه ينحني إلى درك منخفض لإرضاء تعصب بعض *الشرقيين*، مناقضاً ما قاله سابقاً، «ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»، ومناقضاً أيضاً مطلع سفر التكوين الذي يرد فيه «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. *ذكراً وأنثى* خلقهم[6]».

منذ القِدَم سن الرجل الشرقي القوانين للحد من الامتيازات الاجتماعية للمرأة خوفاً عليها من الأخطار التي كانت تهددها بشكل دائم. فخطف النساء كان سائداً في الماضي، ومازال بعض القبائل العربية التي تحوم حول التخوم الشرقية لسورية تمارسها. أما في سورية نفسها فهذه العادات قد بادت وإن كانت أصداؤها الخفية تتردد لاسيما إبّان المعارك العشائرية، حيث سمعت أكثر من مرة مَن يصرخ: «يا كلاب، اليوم ***سنسبي حريمكم***»!

لقد فُرِضت القيود إذاً على امتيازات المرأة بسبب الخوف عليها وليس بهدف استعبادها. فواجب الحماية يحمل في طيّاته فرض النظام. وكلما قوي الخطر، ازدادت الحاجة إلى النظام. حتى الرجال الضعفاء في العشيرة، وبسبب ضعفهم وحاجتهم للحماية، يخضعون ***لأهل الرأي***، وللمحاربين الأقوى.

يمكن الاستدلال بسهولة أنه في مثل تلك الظروف، فان الخطر على المرأة يكمن في جاذبيتها. ولإخفاء جمالها وسحرها عن عيون المتطفلين الغرباء يصار إلى عزلها، كما يفعل المحمديّون، أو إلى الحد من علاقاتها الاجتماعية، كما يفعل المسيحيّون. ولهذا السبب أيضاً، تتحجّب المرأة المسلمة بينما تغطي المرأة المسيحية رأسها. من هنا، نفهم قول بولس: «وأما كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطّى فتَشين رأسها[7]»، على انه اعتراف، عن حكمة، بقوة التقاليد القديمة. ولو أنه اتخذ منحى أكثر ليبرالية لكان حُكم عليه بأنه يعبث بالتقاليد المقدسة.

إن جاذبية المرأة القصوى تكمن في ***حشمتها***. والشعراء العرب غالباً ما يتغنون بحياء المرأة ***وجبنها***. فالمرأة الجذّابة، لاسيما العذراء، هي تلك الحييّة، الجبانة، المنزوية، وقليلة الكلام. «لها فم يأكل وليس لها فم يتكلم» هو مثل شعبي يستعمل لإطراء الفتاة العذراء. إن مشاركة المرأة بالحديث في حضور الرجال تعتبر وقاحة. أما كيف تتمكن النساء في سورية من ضبط أنفسهن عن الكلام في حضور الرجال، فهذا ما لا أعرفه.

هل اتضح الآن لماذا قال بولس: «لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً

---

[6] تكوين 1: 27

[7] كورنثوس الأولى 11: 5

لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا[8]»؟ إن الشرقيَّ مثله مثل المتطهرين المتزمتين من مسيحيي الغرب، يسمع في هذه الكلمات موسيقى تشنف أذنيه، ولا يرى فيها ما يحط من قدر المرأة بل يرى أنها تشرفها برفع منزلتها عن المنزلة الاعتيادية.

قد يكون في فهمنا لاستعمال الشرقي لكلمة **حرمة** في معرض الكلام عن زوجته، ما يلقي المزيد من الضوء على نظرته إلى المرأة ككائن مقدس. إن هذه الكلمة مشتقة من كلمة **حرام**، أو الشيء المكرّس والمقدّس. والحرام هو اسم المقام الأكثر قدسية لدى المسلمين في مكة. أما الزوجة فهي أقْدَسُ ما عند الرجل وبالتالي فهي **حرمة**، وجمعها **حريم**؛ كلمة لها عند الغربيين أبشع الدلالات وأذمها، بعكس المدلول الذي يعطيها إياه الشرقي. فالحريم في الغرب تعني الفجور وتعدد الزوجات. أما في الشرق، فهي تعني بكل بساطة نساء البيت أو العشيرة سواء كنَّ من المسيحيات أو المحمديات. زوجة المرء وأمه وأخته وبناته هنَّ حريمه؛ فكلهنَّ بنظره مقدسات.

لهذا كله يأخذ الرجل مكان الصدارة في الحياة الاجتماعية في الشرق، ولهذا يصار إلى الفصل بين الجنسين في الاحتفالات العامة وغيرها من المناسبات. لذلك فإننا لا نجد ذكراً للمرأة في العشاء السري، ولا في قصة الابن الضال[9]. فالوالد في تلك القصة هو الذي يلاقي ابنه التائب، وهو الذي يُلبسه «الرداء المفضل»، وهو الذي يأمر بالوليمة ومن دون شك يترأسها. الشيء نفسه ينطبق حين استضاف إبراهيم الملائكة أو حين استضاف زكّا المسيح؛ الرجل هو دائما المضيف. بيدَ انه في هذين المثلين من الممكن أن تكون النساء قد شاركن في الاحتفال ولعبن دور المضيفات، ذلك أن الضيوف كانوا أشخاصاً مقدسين. والمثل الواضح على الحرية التي تتمتع بها المرأة في مثل هذه الحالة نجده في قصة استضافة مريم ومرتا ليسوع[10]. لقد استضافتا يسوع لأن أهلهما كانوا قد توفوا وأخوهما قاصر؛ ولكن الأهم لأن يسوع كان شخصاً مقدساً.

بالرغم من كل ما تقدم من تقاليد اجتماعية مقيِّدة للمرأة، فإن الأم تتوقع من أولادها الطاعة المحبة نفسها التي يقدمونها لوالدهم. فعلى الأبناء واجب تكريم أبيهم وأمهم على السواء. لقد كنت كلما عدت من رحلة أحيي والديَّ بتقبيل أيديهما علامة الخضوع والمحبة، مبتدءاً بوالدي ثم والدتي، ولكن بذات الطريقة تماماً، وما ألبث أن أطلب ***رضاهما*** بكل خشوع. لقد كنت أعرف تمام المعرفة أن عدم إطاعتي لوالدتي لا يشكل قلة أدب فحسب، بل خطيئة. فعدم إطاعة الوالدين هو من أكثر الأمور المذمومة لدى العائلات الشرقية المحترمة، لدرجة اعتبارها جريمة أساسية منذ أقدم

[8] كورنثوس الأولى 14: 43
[9] أنظر صفحة 96
[10] يوحنا الإصحاحين 11 و 12. (المحقق)

العصور. «إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما. يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ويقولان لشيوخ مدينته. ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير. فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت[11]». غنيٌّ عن القول أنه لم يعد معمولاً بمثل هذه العقوبة حيال الأولاد المشاكسين في الشرق. ولكن المهم الاعتراف العام بالسلطة المتساوية لكل من الرجل والمرأة على الأولاد.

مايزال هناك الكثير مما يجدر ذكره عن ***رضا الوالدين***. فهذا التعبير الذي لا مرادف له في اللغة الإنجليزية هو بحق أحد أكثر التعابير قدسية في الكلام الشرقي. إن رضا الأهل يعني منح البركة والغفران التام والرضا الروحي عن طالب الرضا ابناً كان أو ابنة. والحصول على الرضا من الأهل على فراش الموت يعتبر بمثابة الحصول على بركة القربان المقدس. لا يمكنني أن أتصور تجربة إنسانية أكثر لطفاً وتأثيراً وقدسية من شرقي يرجو من هو على فراش الموت من والديه أن يترضى عليه قبل حلول النهاية. يمسك الابن المنتحب بيد والده المنازع ويميل فوقه بلطف ليسمع كلماته الخافتة وهو يقول له: «امنحني رضاك يا والدي. سامحني وباركني يا أبتي لكي يسامحني اللّه ويباركني. رضاك يا والدي». إذا كان الوالد المنازع مايزال قادرا على الكلام، فانه يرفع نظره إلى السماء ويقول: «رضاي عليك يا ابني الحبيب؛ اللّه يرضى عليك ويباركك ويبارك تعب يديك. عسى تُطلع لك الأرض من خيراتها وتُمطر عليك السماء من بركاتها. (*الأرض تطيلعلك والسما تنيزلّك*[12]). صلي لأجلي يا ولدي الحبيب». أما إذا كان المنازع في وضع لم يعد قادراً معه على الكلام، فإن الضغط على راحة اليد والنظر إلى السماء هما إشارة على الرد بالإيجاب على طلب الابن أو الابنة. أما حجب المنازع رضاه عن طالبه، وهو أمر نادر الحدوث، فهو أكثر ما يرعب الشرقي.

لدى الإسرائيليين القدامى، كانت البركة التي تمنح للبكر من على فراش الموت تحمل في طياتها أهمية خاصة لأنها تعني وارث الكرسي البطريركي. فحين منح اسحق بركته النهائية لابنه المحتال يعقوب قال: «فليعطك اللّه من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب. وتسجد لك ممالك.كن سيداً لاخوتك. وليسجِد لك بنو أمك». أما أكثر ما يثير المشاعر في هذه القصة فهو الكرب العظيم الذي ألم بعيسو المسكين لدى اكتشافه أن البركة التي كانت من نصيبه قد ذهبت لأخيه الأصغر: «أَلَكَ بركة واحدة فقط يا أبي. باركني أنا أيضاً يا أبي. ورفع عيسو صوته وبكى[13]».

---

[11] تثنية 21 18-21

[12] يستعملها الأخوان رحباني في مسرحية «جبال الصوان». (المحقق)

[13] تكوين 27، 38



الفصل الثالث

يسوع وأمه

«ما لي ولك يا امرأة[1]» هو أحد الأقوال المثيرة لحيرة قارئ الإنجيل. إذ كيف يمكن التوفيق بين القسوة الظاهرة في قول يسوعٍ هذا لأمه، وبين اللطف والرقة اللتين اشتهر بهما الناصري؟ لقد سُئلت مراراً أن أفسر هذه العبارة انطلاقاً من منزلة المرأة في الشرق، وأن أبدي رأيي، كسوري، فيما إذا كان يسوع قاسياً وخارجاً على فروض الطاعة لوالدته. وقبل أن ابدي رأيي، سأعرض تفسيرين لهذه العبارة سمعتهما من بعض المبشرين الأميركانيين. أحدهم، وهو من المستقلّين، قال على مسمع مني: «إن يسوع حين تفوه بهذه الكلمات كان فاقداً لأعصابه». الحسنة الوحيدة لهذه العبارة هي في اقتضابها، إذ لا دَسَمَ فيها ولا عبرة. أما الرأي الآخر الذي سمعته أكثر من مرة فهو أن يسوع لم يخرج على أصول التعامل مع والدته انطلاقاً من نظرة احتقار المرأة السائدة في الشرق. أما وقد أسهبت في شرح «نظرة الشرقي إلى المرأة»، فلا يسعني سوى القول إن هذا التفسير ينقصه فهم الحقائق بشكل سليم.

غني عن القول أنني لا أجد في النص المتقدم أية إشارة إلى غضب يسوع من والدته أو عدم احترامه لها، بالرغم من القسوة الظاهرة في الترجمة الإنجليزية. فهذا الشكل من التخاطب الرسمي مع المرأة شائعٍ جداً في الشرق. ومع أن هذا الأسلوب قد يُستعمل لإظهار قلة الاحترام، فإنه، انطلاقاً من قواعد الكلام الشرقي، جمُّ التهذيب

[1] يوحنا 2:4

وملؤه سلامة الذوق. في يومنا الحاضر، يشيع استعمال كلمة **حرمة** في مثل هذه الحالات في سورية، أو كلمة **ست**(سيدة) بين النبلاء والأقليّة المثقفة من الشعب. أما التعبير السليم والشائع حين يخاطب رجلٌ امرأةً غريبة عنه فهو «يا امرأة» كما فعل يسوع حين خاطب المرأة «التي من كنعان» بقوله «يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين[2]»، أو كما توجه إلى المرأة التي كان بها «روح ضعف» بقوله «يا امرأة إنك محلولة من ضعفك[3]». ثمة مثل آخر على استعمال هذه الصيغة نجده في حديث يسوع مع المرأة السامرية إذ يقول لها بمنتهى الاحترام: «يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب...ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيّون يسجدون للآب بالروح والحق[4]».

يتبين لنا من الأمثلة المتقدمة أن يسوع لم يكن فظاً في توجهه إلى والدته. تبقى الصعوبة إذاً في محاولة فهم السبب الذي دفع بيسوع لأن يخاطبها وكأنها *امرأة* غريبة عنه. الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى فهم عميق لنمط الكلام الشرقي، وإلى فهم أكبر للعقيدة الدينيّة المتضمَّنة في بشارة يوحنا.

كما هو معروف لدى علماء الإنجيل، توخت بشارة يوحنا إظهار يسوع على أنه التجسيد ***للكلمة***. فالمعلم لم يعد نبياً من الجليل، بل هو ***الواحد*** الذي نزل من السماء. وبالتالي، فابن الله، انطلاقاً من هذه الخاصية فوق الطبيعية، هو أرفع منزلة من جميع العلاقات الأرضية. أما أمه، فإن هي إلا بشرٌ سوي. في المناسبة التي تكلم فيها يسوع، تظهر مريم وكأنها تتدخل بعمله بينما هو على وشك القيام بعجيبة. حسب بشارة يوحنا، كان هذا العمل يفوق قدرتها على الاستيعاب. بناء عليه، فيسوع حين خاطبها إنما كان وجوداً سماوياً يخاطب شخصاً إنسانياً بقوله «يا امرأة ما لي ولك». هذا هو النص الأساسي. أما الترجمة الإنجليزية والتي يستفاد منها «لا شأن لي معك»، فقد تبدو قاسية للأذن الغربية المعتادة على الكياسة في مخاطبة المرأة. ولكن المقصود من عبارة يسوع بكل بساطة هو «يا امرأة، دعيني وشأني». أقصى ما يمكن تحميل هذا النص من معان هو أن نظرة مريم إلى الروحانيات هي غير نظرة يسوع. وبالرغم من كونها والدته بالجسد لم يكن عندها القدرة على فرض سلطتها عليه من حيث هو وجود سماوي. من وجهة النظر العالية هذه، يمكن اعتبار مريم غريبة عن يسوع.

إن كاتب بشارة يوحنا يتمسك بهذه النظرة إلى ألوهية يسوع حتى النهاية. ففي كلامه من على الصليب، نراه لا يتكلم كإنسان يتعذب بل كوجود إلهي منتصر، فيخاطب أمه بالقول: «يا امرأة». «وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كِلُوبا ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً

[2] متّى 15: 28

[3] لوقا 13: 12 (في النص الإنجليزي تستعمل «امرأة» عوضا عن «يا امرأة،» استبداداً).

[4] يوحنا 4: 21

قال لأمه يا امرأة هوذا ابنك[5]». بهذا الأسلوب الرقيق النبيل أودع يسوع أمه إلى عناية تلميذه الحبيب.

يعتبر الشرقي أن أفضل ميزات الإنسان تعود إلى ***حليب الأم***، وإلى التأثيرات الخفية لمرحلة ما قبل الولادة. فعدا عن قيمتها الغذائية، يسود الاعتقاد بأن ***الرضاعة*** تحمل في طياتها مؤثرات غامضة تصوغ مكونات الشخصية. فإذا ما نطق طفل بكلمات فيها شيء من الحكمة، قيل له بإعجاب «ما أحسن الحليب الذي رضعته». وحين بارك يعقوب ابنه يوسف لم ينس أن يضمن «بركات الثديين والرحم[6]». إن الشرقي ليجد في الإصحاح الحادي عشر من لوقا واحداً من أجمل المقاطع وقعاً على قلبه. ففي هذا الإصحاح نرى يسوع يُفْحِم خصومه الدينيين بجمله الحادة من مثل «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب...من ليس معي فهو علي»، وبقوة منطقه القائل إن قلب الإنسان الخالي من روح اللّه يصبح مرتعاً للشيطان. فتحركت قلوب سامعيه، «ورفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما[7]».

لقد سمعت هذه الكلمات عينها في وطني الأم يوم وفد بطريرك إنطاكية العظيم لزيارة قريتنا في جبل لبنان. لقد كانت زيارته مناسبة جليلة جداً، وحين وصل إلى بيت الكاهن الذي كان يستضيفه، وقف الجمع بمن فيهم حاكم المنطقة وأحنوا رؤوسهم لتقبل البركة البطريركية. إنه مشهد لن أنساه ما حييت، ما أن رفع البطريرك الواقف على مدخل البيت بكل جلاله ووقاره يده، وكأنه زائر من عالم سماوي ملؤه الحق والنعمة، وبارك الجمهور، حتى تقدمت صوبه إحدى الأمهات من رعيتنا رافعة رأسها وراحتي يديها صوب السماء صارخة بالعربية العامية: «تباركت الأحشاء التي حملتك والصدر الذي أرضعك». فما كان من البطريرك الوقور سوى أن أغدق على المرأة المتضرعة بركة خاصة وسط استحسان الجمهور المتأثر.

[5] يوحنا 19: 25
[6] تكوين 49: 25
[7] لوقا 11: 27


ABU ABDO ALBAGL

الفصل الرابع

«امرأة لطيفة»

المرأة في الشرق هي زوجة وأم، وبالطبع هي مدبِّرة المنزل. وعبارة «مكان المرأة بيتها» لا تناقش على الإطلاق في تلك الرقعة من العالم. ففي البيت تجد المرأة حقوقها وواجباتها. أما العلم والثقافة والاهتمامات الأدبية والانضمام إلى النوادي والنشاطات الاجتماعية فكلّها بنظر المرأة الشرقية وزوجها أمور ليست ذات شأن. الزواج هو رباط ديني، وقمة واجبات الرجل وزوجته هي إنجاب أكبر عدد من الأطفال وتربيتهم على مخافة الله، وأن يقدموا لهم المثل الصالح فيعيشوا حياة ملؤها التقوى ويهبوا إرثهم الصالح للأجيال القادمة. أما الزواج الاختياري الذي تسبقه مدة تعارف، كما هي العادة في الغرب، فهو شيء نادر الحصول. والسبب في ذلك،كما سبق وأشرنا، هو قلة العلم وعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي مما يولد الحاجة للحد من حرية المرأة في سبيل حمايتها. تضيق هذه الحدود حول العذارى بشكل خاص، فتحرم عليهن المشاركة في المناسبات الاجتماعية التي تشارك فيها أمهاتهن، ولا يسمح لهن بإقامة الصداقة مع الشبان حتى ولو كانوا من الأقرباء. إن عقد القران شأن فردي بمقدار ما هو أمر يخص العائلة كلها. وليس من الضروري أن يتعرف الزوج إلى زوجه قبل الزواج، وإن كان ذلك ممكن الحدوث، لاسيما بين المسيحيين حيث يسمح للشاب، في بعض الأحيان، بأن يزور بيت زوجة المستقبل قبل الزواج وأن يحادثها أيضاً، ولكن بحضور أحد أقربائها. أما «الخروج مع سيدة» فهو أمر مرفوض في الشرق، بل إنه أحد مظاهر الحياة الغربية التي يذمها الشرقي.

عودة إلى الزواج. يتمّ الاتفاق بين العائلتين أو العشيرتين على موضوع الزواج حيث أن العائلة معنية بسلوك أفرادها وتتأثر بسمعة كل منهم. فعار المرأة هو عبء ينال من جميع أفراد عائلتها. والزواج بين عشيرتين مختلفتين يشكّل تحالفاً ويفرض تبعات دفاعية وهجومية. أما إذا أُسيئت معاملة امرأة تزوجت من ابن عشيرة أخرى، فواجب الرجال من عشيرتها أن يهبوا لنجدتها وإلا أصبحوا مضرب مثل في الجبن بين أبناء متحدهم.

إن الاختلاف في إجراءات الزواج بين الشرق وبين الغرب لا ينتج عنه، على ما يبدو، اختلاف كبير بما يتعلق بالسعادة البيتية. ففي الشرق كما في الغرب نجد أن الزواج المثالي نادر بمقدار ندرة الزواج البائس. ففي كل من القارتين، يتعلم معظم المتزوجين أن السعادة في الحياة الزوجية تعتمد إلى حد كبير على التمسك بالقاعدة المشهورة: «في الأساسيات، اتحاد؛ في الكماليات، حرية؛ أما اللطف ففي كل شيء». وكما سبق ذكره، فإن الشرقي لا يعرف «فن العيش» كما يعرفه الغربي، ولكنه ينعم بالمقدار نفسه من السعادة مثل الغربيين الذين هم في منزلته.

لا تُصنّف النساء في الشرق وفق مستواهن العلمي واهتماماتهن الاجتماعية بل بالنسبة إلى الفضيلة التي يتحلين بها. فالزوج السعيد يقول: «إنني ***ارفع راسي*** بزوجتي. ***صيتها*** مثل المسك. إنها ***تاج راسي***». ويؤكد سفر الأمثال ذلك: «المرأة الفاضلة تاج لبعلها. أما المخزية فكنخر في عظامه[1]». والشرق والغرب يتفقان على أن «خزامة ذهب في فنطيسة خنزير، المرأة الجميلة العديمة العقل[2]».

غير أن الشرق والغرب يفترقان كثيراً من حيث وصف جمال المرأة في الأدب والشعر. ولا بد لي من الاعتراف بأن الشرقي لا ينسجم مع نفسه في هذا المجال. فهو يأنف حتى من ذكرها في حديثه، ويعارض مشاركتها له في الحقوق الاجتماعية، ولكن وصفه لها في شعره يقرب من الإباحية. ولعل خير مثال على ما نقول هو نشيد الإنشاد في العهد القديم. إن حريته الشرقية في وصفه لحبيبته يجعله عصيّاً على النشر[3]. إن القارئ ليأُخذ بروعة صوره الجمالية وجذوة شهوته العارية المتقّدة، ولكننا إذا قسناه بالمقاييس الغربية وجدناه إباحياً. أما كلمات الشاعر في دعوة حبيبته لمرافقته إلى الحقول والكروم فهي منعشة ومبهجة للقلب.

«أجاب حبيبي وقال لي قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي.
لأن الشتاء قد مضى والمطر مرٍّ وزال.
الزهور ظهرت في الأرض.
بلغ أوان القضب وصوت اليمامة سُمع في أرضنا.

---

[1] أمثال 12: 4 (المحقق)
[2] أمثال 11: 22
[3] نشيد الإنشاد الإصحاحين 4 و 7 يقدمان المثل على ما يقصده المؤلف. (المحقق)

التينة أخرجت فجّها وقعال الكروم تفيح رائحتها.
قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي.
يا حمامتي في محاجئ الصخر في ستر المعاقل أريني وجهك
اسمعيني صوتك لان صوتك لطيف ووجهك جميل.[4]»

وفي مطلع الإصحاح الرابع نقرأ نظرة الشاعر إلى حبيبته ومدى جمالها.

«ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة.
عيناك حمامتان من تحت نقابك.
شعرك كقطيع معز رابض في جبل جلعاد.
أسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل...
شفتاك كسلكة من القرمز
وفمك حلو».

هذا الكلام جميل ومقبول لدى الشرقيين والغربيين على السواء. أما مطلع الإصحاح السابع فلا. إن الترجمة المنقحة (Revised Edition) قد حرّفت النص الأصلي، أما نسخة الملك جيمس فتحتفظ به على طبيعته وكما أنشده وينشده الشاعر الشرقي ماضياً وحاضراً. إن ترجمة النسخة المنقحة للآية الثانية تعطينا نصاً كهذا «إن جسدك كأس مدورة.. وخصرك صبرة حنطة»، مما يفقدها معناها[5]، وإن كنت أميل إلى التنويه بحشمة المنقّح.

إن أبياتاً كهذه كثيرة جداً سواء في الشعر العربي الفصيح، أو الشعر العامي السوري، والتي تُنشد بين مختلف الطبقات في سورية دونما أعتراض. وإذا كانت الرغبة لاتخاذ الأحكام تشتدّ لدى الخوض في موضوع كهذا، فلا بأس إن أدليت أنا أيضاً بدلوي. إني أفضل حشمة الشاعر الغربي في أوصافه الشعرية لمفاتن المرأة وأرى أن قيمتها الجمالية تفوق بكثير الواقعية الوصفية للشاعر الشرقي، والذي، بالمناسبة، لاأشعر برغبة كبيرة في الدفاع عنه. غير أن الأمانة الوجدانية تدفعني لتقديم الشرح التالي بالنيابة عن بني أمي. لقد أحببت الشعر العربي منذ نعومة أظفاري، ولكن وصفه لمفاتن المرأة لم يوح لي يوماً بأية أفكار فاسقة أو إباحية. إن الشعور العام الذي كانت تثيره فيّ هذه الأوصاف هو كالشعور الذي تثيره قراءة مشاهد حب كتبها كاتب كبير. إن سحرها كان فنياً شعرياً وليس سحر شهوات دنيئة قذرة.

بالنسبة إلينا فإن ***عروس الشعر*** هي كائن خيالي يعبر عن روح الوحي لدى الشاعر متجسدة في شكل امرأة. وبالتالي فإن الشاعر لا يصف امرأة بالتحديد وإنما وجوداً ملائكياً ذا جسد وروح طاهرين. وحده الناظم المبتذل الذي يسف في شعره قد

[4] نشيد الإنشاد 2. 10-14
[5] في الأصل العربي: «سرتك كأس مدورة...بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن». (المحقق)

ينقل عدوى ابتذاله إلى القارئ. أما الشاعر المبدع فيسمو بشعره إلى آفاق تعلو عن الأمور الفانية فيمكن اللحاق به في رحلته الشعرية وفي افتتانه المعروف بـ «*الهوى العذري*» دونما وجل. بهذا الشكل أجد بعض التبرير للشاعر الشرقي ولأناشيد سليمان، وإن كنت لا أجد العذر لتعابيره.

إن الوصف البسيط والبليغ والشامل «للمرأة الفاضلة» في سفر الأمثال يتضمن صورة مركبة أكثر منها إفرادية، ويمثل أسمى أفكار السوري بالنسبة إلى الزوجة المثالية وربة البيت الحقيقية[6]:

«امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ.
بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة. تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها.
تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين. هي كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد.
وتقوم إذ الليل بعد وتعطي أكلاً لأهل بيتها وفريضة لفتياتها.
تتأمل حقلاً فتأخذه وبثمر يديها تغرس كرماً. تُنطق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها.
تشعر أن تجارتها جيدة. سراجها لا ينطفئ في الليل.
تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة. تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين.
لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللاً.
تعمل لنفسها موشيات. لبسها بوص وأرجوان.
زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض.
تصنع قمصاناً وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعاني.
العز والبهاء لباسها وتضحك على الزمن الآتي.
تفتح لسانها بالحكمة وفي لسانها سُنَّة المعروف.
تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل.
يقوم أولادها ويطوبونها. زوجها أيضاً فيمدحها.
بنات كثيرات عملن فضلاً أما أنت ففقت عليهن جميعاً.
الحُسْنُ غِشٌ والجمال باطل. أما المرأة المتّقية الرب فهي تمدَحُ.
أعطوها من ثمر يديها ولتمدحها أعمالها في الأبواب».

هذه هي نظرة الشرقي الأصلية للمرأة بكل ما فيها من تمجيد للفضيلة والإخلاص والعزم والحكمة والرقة والكرم بأسلوب لا يضاهى في جماله وبساطته. لقد سبق لي القول إن هذه الصورة مركبة أكثر منها صورة إفرادية. غير أن الزوجة والأم **السورية المجتهدة العفيفة تقترب كثيراً** من هذه الصورة. إن سؤال كاتب الأمثال في النص أعلاه «امرأة فاضلة من يجدها؟» لا يعني أن وجودها مستحيل، ولا يعني قوله «لأن ثمنها يفوق اللآلئ» أن المرأة تباع وتشتري في الأسواق. إن سؤال الكاتب

[6] أمثال 31: 10-31

يمكن إعادة صياغته بالقول «سعيدٌ من له زوجة فاضلة لأن قيمتها تفوق كل ثروات الأرض». ولو لم توجد نساء اقتربن من مثاله الأعلى هذا، لما تمكن الكاتب من إعطاء هذا الوصف المفصل «للمرأة الفاضلة».

لا أعتقد بأن ثمة حاجة لتفصيل هذه الآيات، فالعالم كله يعتز بالفضائل التي تنطوي تحتها. غير انه بودي الإشارة إلى بعض الخصائص الشرقية المتضمنة فيها. ففي قوله «بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة»، يلغي الكاتب أية فكرة يمكن أن تعلق في الأذهان لناحية كون المرأة مخلوقة محتقرة في البيت السوري. إن زوجها يحبها ويثق بها كشريكة عمره وصاحبة الدالّة الكبرى عليه. إن رأي زوجها والأصدقاء بحكمتها واضح من عبارة «تفتح لسانها بالحكمة وفي لسانها سنّة المعروف».

«تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين». إن الكتّان اليوم نادر الوجود في سورية، أما الصوف وشرانق الحرير فتُغزل على المغزل وتُحاك على أنوال يدوية ويصنع منها الناس أثواباً، لاسيما في المناطق الريفية من سورية. يجب دمج هذه الآية مع الآية التاسعة عشرة التي تقول «تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة». في شرحهم لهذه الآية تكلم بعض المعلقين عن دولاب الغزل، وعن الفلكة بحرفيتها القاموسية «عصا عامودية تدور وتحمل كمية من الكتّان أو الصوف أثناء الغزل». غير أن هذا ليس هو «المغزل» المقصود هنا. ***المغزل*** السوري الذي تحمله المرأة معها حيثما ذهبت كناية عن أداة صغيرة جداً تتألف من جذع خشبي ناعم بقياس حاملة ريشة الكتابة. يدخل هذا الجذع من طرفه الغليظ في فلكة المغزل. والفلكة هي نصف مخروط خشبي صغير يشبه قمع الفطر تماماً. يُكمل المغزل خطاف من النحاس الأصفر مركب بالقرب من أعلى الجذع بحيث يمتد فوق الفلكة. عند الغزل، تُلفّ كمية من الصوف على إطار صغير من الخشب أو من شريط معدني تُدخل فيه المرأة يدها اليسرى بحيث تقبض على الإطار بكفها مبقية الباهم وبقية الأصابع حرة. تثبت المرأة الخطّاف إلى كتلة الصوف وتدير المغزل بين باهم اليد اليمنى ووسطى أصابعها. تبدأ الغازلة بسحب الخيط بلباقة مستعملة أصابع يديها إلى أن يبلغ طول الخيط المغزول حوالي الذراع، فتلفه على الجذع تحت الفلكة من دون أن تقطعه. تعيد المرأة الكرّة عدة مرات إلى أن تتحول الكتلة إلى مغزل مليء بالخيطان.

إن المغزل بالشكل المشار إليه في هذا المقطع يرمز إلى الاجتهاد والمثابرة. فالقول «تمد يديها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة» يعني أنها لا تكف عن العمل، أو كما يقول المثل «المغزل لا يفارق يديها».

كقاعدة عامة، فإن النساء العجائز هنّ اللواتي يقمن بالغزل في سورية. وجلسات الغزْل تُستعمل كمناسبة للقاء بين الغازلات المجتهدات. إني أذكر بوضوح أيام كانت جدّتي تلتقي مع رفيقات عمرها في جلسات الغزْل وما كان يرافقها من أحاديث. لقد كان يبهجني رؤية هاتيك النسوة يمددن أيديهن إلى المغزل ويعملن بخبرة غريزية لا تخطئ. لقد كنّ يغزلن أثناء المشي والجلوس والطعام (غير الوقعات الرسمية) وحتى أثناء النقاش.

أما الشيء الوحيد الذي كان يزعجني في هذه الصناعة فهو أنني كلما اقتربت منهن كانت شعيرات الصوف المتطايرة من المغازل تحط علي ويقشعر لها بدني.

«تتأمل حقلاً فتأخذه ويثمر يديها تغرس كرما». كلام الكاتب هنا مجازي ويشير إلى عدم تبذير الزوجة الصالحة. إنها توفر النقود التي تحصل عليها وتكنزها في ***الكيس*** في زاوية من صندوق الملابس حيث تحفظ متاعها وغيره من الأدوات والأشياء المهمة. وفي وقت الحاجة تفاجئ زوجها بكمية المال الكبيرة التي تضعها في يده والتي تسهل له شراء حقل أو زراعة كرم.

«لا تخشى على بيتها من الثلج لأن كل أهل بيتها لابسون حللاً». الحلّة هي الثوب الكامل والسميك. فالعامة في سورية يخشون الثلج، إذ أن موسم الثلج ليس موسم أجراس الزحافات والتزحلق على الجليد. إنه وقت **ضيق**، يسد فيه الثلج الطرقات وينقطع الجار عن جاره. في مثل هذا الوقت، وبسبب قلة الوقود والثياب المناسبة، يتأذى العديد من الناس. فكاتب الأمثال يمدح المرأة الفاضلة أعظم مديح حين يقول «لا تخشى على بيتها من الثلج»، فبسبب بعد نظرها واهتمامها الذي لا يكل، وفرت لعائلتها الملبس الدافئ.

«زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض». إن الزوج السوري المحافظ لا يشتري ثيابه من محلات الثياب «الجاهزة»، فزوجته هي التي تخيط له ثيابه. وحين يجلس مع مشايخ القوم في السوق أو بالقرب من مدخل البلدة حيث يتبادل أولئك الوجهاء الأحاديث عن المواضيع العامة ويتسلون بالأمثال والقصص، فإن مظهره الأنيق يشهد لزوجته باجتهادها ومحبتها واهتمامها. «إن زوجته لجوهرة ثمينة»، هو من الأقوال التي تسمع في معرض مديح هذا الرجل السعيد.

«يقوم أولادها ويطوبونها. زوجها أيضاً فيمدحها». كم هي جميلة ومعبرة عن روح الشرق الأصيلة هذه الكلمات الشاعرية في وصف المرأة الطاهرة. أما الكلمات الختامية لهذا الكاتب الشرقي الذي عاش منذ زمن بعيد جداً قبل «عصر الثقافة» الذي نعيشه، فتشير بوضوح إلى مدى صداقته وحسن نصيحته للمرأة. «الحسن غش والجمال باطل. أما المرأة المتقية الرب فهي تمدح». هذا هو وسام التقدير الحقيقي.




ABU ABDO ALBAGL

القسم السادس

هنا و هناك في الإنجيل

في هذا الجزء من الكتاب سيقوم المؤلف بمعالجة عدد من المواضيع التي وردت إليه أسئلة حولها أثناء نشر فصول هذا الكتاب في مجلة «اتلانتك منثلي». بناء عليه، فإن ما سيرد في هذا الجزء لن يكون بالضرورة مترابطاً.

«وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له. ضع يدك تحت فخذي. فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألاّ تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لإبني اسحق[1]».

إن العادة المتبعة في الشرق «لطلب العروس» هي أن يقوم أرفع أقرباء العريس منزلة بطلب اليد من أهلها نيابة عنه. وفي بعض الأحيان تقوم بعض النسوة بمرافقته في هذه المهمة الرسمية والتي يشوبها الكثير من الاحترام بغية «أخذ القول» أي الوعد لقريبهم الشاب. ونادراً ما يؤتمن **غريب** عن العائلة بمثل هذه المهمة الحسّاسة. **أما إبراهيم فقد اضطر إلى تسليم هذه المهمة لكبير خدامه لأنه لم يكن له** أقرباء في ارض كنعان. أمّا طلبه أن يضع الخادم يده تحت فخذه ويحلف له بإله السماء والأرض، فهي ممارسة لتقليد شرقي مايزال ساري المفعول في سورية، ويقضي بدعوة الله لأن يشهد على وعد أو ميثاق. أما تقليد وضع اليد تحت الفخذ فلم

[1] تكوين 24: 2-4

يعد معمولاً به، وإن تكن عادة وضع اليد تحت ***الزنّار*** ماتزال معمولاً بها للغرض نفسه. غير أن طالب الطلب في هذه الحالة هو الذي يضع يده تحت زنار المطلوب منه. ***إيدي تحت زنارك*** تعني أنني آتٍ إليك وكلي ثقة بأنك لن ترد طلبي. وفي سورية الشرقية يعتبر هذا التقليد على غاية من الأهمية بحيث أن وضع اليد تحت زنار شخص ما هو بمثابة اللجوء إليه والدخول في حمايته ممن يطلب أذيته، ولا مناص للطرف الآخر من تلبية الطلب على قدر استطاعته. ولا شك عندي في أن هذا التقليد هو وليد وضع اليد تحت الفخذ.

تقدم قصة إبراهيم مع أبناء حث وعفرون بن صوحر[2] صورة مثالية عن اللياقة الشرقية. «وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلاً. أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر لأدفن ميتي من أمامي». إن المدافن في الشرق هي ملك للعائلات أو للمؤسسات الدينية، والشرقي مايزال حتى اليوم يرهب القبر الوحيد الموحش ويستعيذ منه. من هنا فإن الغريب المستحق له الحق بأن يمُنح مدفناً من مدافن البلدة ليدفن ميته فيه، تماماً كما له حق الاستضافة على أهل البلدة.

«فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له. اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من اللّه بيننا. في أفضل قبورنا أدفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك». لقد كان هذا عملاً نبيلاً من بني حث أثبتوا فيه تمسكهم بأجمل تقاليدهم، الشيء نفسه الذي فعله فيما بعد يوسف الذي من الرامة حين أخذ جسد يسوع «ولفّه بكتّان نقي. ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة[3]».

أما إبراهيم الذي كان قد عزم على البقاء في أرض كنعان، فقد أراد أن يكون له مدفنه الخاص به. فنسمع البطريرك العجوز يقول لبني حث «إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له التي في طرف حقله. بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر». ولكن عفرون لم يكن ليسمح لنفسه بأن يكون أقل كرماً من أهل عشيرته، أو أن يُتّهم بإغفاله واجب اللياقة الذي يفرضه الموقف فأجاب (الآية 11) «لا سيدي اسمعني. الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتك».

يبدو هذا الكلام طبيعياً وعادياً جداً بالنسبة إليَّ، فعفرون هنا يجسد قمة اللياقة الشرقية التي تمنع التجارة حيث توجَب الضيافة، مدركاً حق الإدراك أن هديته المجانية لن تقبل. وفي مثل هذه المناسبات لا يعدو الكلام كونه مجاملة. فالشرقي يعرض عليك فوراً أي شيء تستحسنه من ممتلكاته الخاصة، ولكن اللياقة تقضي عليك بالرفض. وعفرون لم يعنِ حقيقة أنه سيعطي الأرض مجاناً ومن دون مقابل،

[2] تكوين 23

[3] متى 27 .59 .60

ولكنه كان يقول لإبراهيم إنه على استعداد لأن يواسيه في حزنه فلا يعامله كمجرد شارٍ. أما إبراهيم، فإذ يحني نفسه أمام بني حث، فإنه يرفض الهدية. عندها يقوم عفرون بذكر ثمن الحقل متمسكاً بأكثر مظاهر اللياقة السورية (الآية51) «يا سيدي اسمعني. أرض بأربع مئة شاقل فضة ما هي بيني وبينك. فادفن ميتك». أما وقد أتممت هذه الإشارة اللطيفة مهمتها، فإن إبراهيم يزن «لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث. أربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجّار».

في وصفه للسرعة التي خرج بها العبرانيون من مصر، يقول كاتب سفر الخروج «فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم[4]». وفي الآية الواحدة والثلاثين نقرأ أن فرعون دعا موسى وهرون وقال لهما «قوموا اخرجوا من بين شعبي». عادة ما تعجن المرأة السورية عجينها في المساء بحيث يختمر في الليل ويكون جاهزاً للخبز في الصباح الباكر. فالقول إذاً «فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر»، يُقصد به أنهم غادروا في الليل. وعلى ما يبدو، فإن الإسرائيليين كانوا يستعملون معاجن خشبية كتلك التي مايزال العرب يستعملونها في الداخل السوري. أما السوريون فيستعملون معاجن فخارية، ويحفظون الخبز فيها بعد خبزه[5]. وفي الآية التاسعة والثلاثين من الإصحاح نفسه نقرأ «وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز ***ملّة*** فطيراً إذ كان لم يختمر. لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا. فلم يصنعوا لأنفسهم زادا». إن ***الملّة*** هي رغيف أو كعكة يبلغ قطرها قرابة الخمس عشرة بوصة، وسماكتها حوالي الثلاث بوصات، وتخبز من دون تخمير على ***الرضف***، أي الحصى الساخن. تُشعل النار فوق الحصى المعد خصيصاً لذلك، ومتى بلغت الحرارة درجة عالية، توضع الملّة عليها وتغطى بالجمر إلى أن تنضج. إن الرعاة في سورية يخبزون الملّة باستمرار ولا يعتقدون بأن ثمة ما يضاهيها لناحية مذاقها الطيب وقدرتها على سد الجوع.

لقد كانت كعكة كهذه التي أكلها إيليا وهو في طريقه إلى «حوريب جبل الرب»، حيث «جلس تحت الرتمة وطلب الموت لنفسه وقال قد كفى الآن يا رب خذ نفسي لأنني لست خيراً من آبائي. واضطجع تحت الرتمة وإذا بملاك قد مسّه وقال قم وكل. فتطلع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه[6]». ليس عجيباً أن يستجيب الرب لإيليّا ويعطيه طعاماً، فإيليّا كان جائعاً جداً. ولكن التوراة لا تخبرنا أن نفس إيليا عادت وطلبت الموت بعد أن أكل من كعكة الرضف، التي لا بد وأن يكون بعض الرعاة في تلك الناحية قد تركوها هناك للناسك.

في الإصحاح السادس من سفر القضاة نقرأ قصة جدعون، «جبار البأس» الذي

---

[4] خروج 12: 34
[5] أنظر الصفحة 116
[6] الملوك 19: 4-6

خلَّص الإسرائيليين من أيدي المديانيين: «وأتى ملاك الرب وجلس تحت البطمة التي في عفرة التي ليوآش الأبيعَزَرِي. وابنه جدعون كان يخبط حنطة في المعصرة لكي يهربها من المديانيين[7]».

يسود الاعتقاد في الشرق بأن الأرواح والملائكة الزائرين، غالباً ما يظهرون بالقرب من الجداول أو تحت أشجار معينة. فأشجار السنديان الضخمة كثيراً ما توجد بالقرب من المدافن ودور العبادة. كما أنه يمكن رؤية ***«شجرة أم شراطيط»*** في العديد من المناطق السورية. يعتبر الأهالي هذه الشجرة، التي غالباً ما تكون شجرة سنديان، مقدسة لسبب أو لآخر، فيعلقون عليها خرقاً من ثياب أقربائهم المرضى على أمل نيل الشفاء بقوتها الخارقة.

أما جدعون فكان «يخبط الحنطة في المعصرة» حين ظهور الملاك عليه. لقد سبق وذكرت[8] أن العناقيد تعصر في المعصرة بدوسها بالأرجل على مسطح صخري بمساحة غرفة اعتيادية. وبما أن موسم الحصاد يأتي باكراً، وقبل أوان عصر العنب بوقت طويل، كان بإمكان جدعون استعمال سطح المعصرة النظيف لخبط الحنطة من دون أن يلفت انتباه مضطهديه المديانيين. لم يكن جدعون يدرس الحنطة بل كان يخبط السنابل بهراوة هرّبها قبل أن يحين موسم درس الحنطة حين يفرض المديانيون عليه إتاوة باهظة. يتم درس الحنطة بـ ***النورج*** وهو كناية عن لوحين سميكين من خشب الصنوبر، موصول أحدهما بالآخر بطول ستة أقدام وعرض ثلاثة. في أسفل النورج، هناك ثقوب مربعة تحشر فيها حجارة قاطعة. عن هذه الحجارة كان إشعيا يتكلم حين قال «ها أننا قد جعلتك نورجاً محدداً جديداً ذا أسنان. تدرس الجبال وتسحقها وتجعل الآكام كالعصافة[9]». يرمي الفلاح حزم السنابل على البيدر بعلو قدم تقريباً ويَقْرِن النورجَ إلى النير. يجلس الفلاّح على النورج حاملاً المنساس بيده، فيما يجر ثورٌ النورج الثقيل في دائرة تلو الدائرة على البيدر بحيث تقطع الحجارة الحادة حُزَمَ السنابل إرباً إرباً. بعد ثلاثة أيام تصبح (العرمة) أي كومة السنابل المقطعة جاهزة للذري. تجمع الحزم المدروسة في كوم وترمى في الهواء بمذراة كبيرة، فيفصل النسيم التبن عن القمح الذي يتجمع في كومة ذهبية تقر بها عين الفلاح ويفرح لها قلبه. إلى هذا يشير لوقا في بشارته حين يقول بالإشارة إلى المسيح «الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ[10]». حسب معرفتي، فإن الفلاح السوري لا يهتم دائماً بجمع التبن وحرقه، لاسيما بعد أن تذروه الرياح إلى مسافات. أما القسم الخشن منه، فكنا نجمعه بالقرب من البيدر ونخلطه بالطين ونمرغ به أرض البيوت، أو نصنع منه الآجرَّ المجفف في الشمس.

[7] قضاة 11.6

[8] أنظر الصفحة 154

[9] إشعيا 41 15

[10] لوقا 17.3

من أسعد لحظات حياتي كانت تلك التي يُسمح لي فيها بالركوب على النورج فأوجه الثور بالمنساس فيروح يدور ويدور بي على أرض البيدر فوق حزم القمح المتلألئة العطرة. لقد كنت غالباً ما أرشو المالك ليمنحي هذا الامتياز العظيم، ومازال حتى اليوم أفضّل ركوب النورج على الذهاب بنزهة في السيارة.

في الإصحاح السابع من سفر القضاة، لدينا وصف للوسيلة البدائية التي اختار بها جدعون جيشه لمقارعة المديانيين. فمن أصل ثلاثين ألف مقاتل، انتقى جدعون ثلاثمئة. «فنزل بالشعب إلى الماء. وقال الرب لجدعون كل من يلغ بلسانه من الماء كما يلغ الكلب فأوقفه وحده. وكذا كل من جثا على ركبتيه للشرب. وكان عدد الذين ولغوا بيدهم إلى فمهم ثلاث مئة رجل. وأما باقي الشعب جميعاً فجثوا على ركبهم لشرب الماء[11]». هؤلاء الثلاثمئة شكلوا جيش جدعون.

إن الانحناء على الركبتين أثناء الشرب من جدول أو نبع ***فوّار*** هي العادة المتّبعة في سورية للشرب. هذه الطريقة تسمى ***الغبّ***، أي امتصاص المياه مباشرة من النبع بالشفاه. أما الرجال الشجعان المحترسون فينظرون إلى الشرب بهذه الطريقة نظرة ازدراء. فالانحناء بهذا الشكل، عدا عن كونه مجلبة للتراخي، فإنه من غير المأمون للمسافر أن يهمل جانب الحذر ويترك نفسه فريسة سهلة لقطاع الطرق. لهذا فإن أهل الشجاعة والبأس حينما يردِون الماء يأخذون بوضع القرفصاء ويملأون يدهم بالماء ويرفعونها إلى فمهم ويشربوا بلسانهم. هكذا يشرب أهل القوة والرشاقة والحذر.

إن إحدى أبشع عادات السوريين هي الهزء من المصابين بأمراض أو عاهات جسدية. ولاشك عندي في أن أولئك المساكين الذين تقاطروا إلى يسوع في فلسطين طلباً للشفاء، إنما فعلوا ذلك للخلاص من عار العاهة بالقدر نفسه الذي طلبوا به الراحة الجسدية. «ها قد جاء ***الأعور***». «ذهب ***الأفكح***». «نطق ***الأخرس***». «***الأحدب*** جالس بين الرجال». «وسّعوا الطريق ***للأقرع***». إن وصم المعاقين بهذا الشكل وغيره الكثير مايزال شائعاً جداً في الشرق اليوم كما كان على أيام إليشع. «ثم صعد من هناك إلى بيت أيل. وفيما هو صاعد في الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد يا أقرع. اصعد يا أقرع. فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب. فخرجت دُبّتان من الوعر وافترستا اثنين وأربعين ولداً[12]. إن الأقرع هو المصاب بمرض في جلدة الرأس تسبب فقدان شعره كله، كما أن الصلع التام يسمى في بعض الأحيان القرع. على ما يبدو، فإن هذا هو أول ما لفت انتباه الأولاد الشياطين في النبي الجوّال، فلعنهم «باسم الرب»، وهي أيضاً عادة شرقية مثل الهزء بذي العاهة. أما فيما يتعلق بالدُبّتين وافتراسهما لاثنين وأربعين ولداً،

[11] قضاة 7: 5
[12] الملوك الثاني 2: 23-24

فجلّ ما بوسعي قوله هو إن السوريين يعتبرون مثل هذه القصص أفضل رادع للأولاد عن شقاوتهم.

نأتي إلى قصة إليشع وإحسانه إلى الأرملة المسكينة. «وصرخت إلى إليشع امرأة من نساء الأنبياء قائلة إن عبدك زوجي قد مات وأنت تعلم أن عبدك كان يخاف الرب. فأتى المرابي ليأخذ ولدَيّ له عبدين. فقال لها إليشع ماذاأصنع لك. أخبريني ماذا لك في البيت. فقالت ليس لجاريتك شيء في البيت إلا دهنة زيت. فقال اذهبي استعيري لنفسك أوعية من خارج من عند جميع جيرانك أوعية فارغة. لا تقللي. ثم أدخلي وأغلقي الباب على نفسك وعلى بنيك وصّبي في جميع هذه الأوعية وما أمتلئ انقليه. فذهبت من عنده وأغلقت الباب على نفسها وعلى بنيها. فكانوا هم يقدمون لها الأوعية وهي تصب. ولما امتلأت الأوعية قالت لابنها قدم لي أيضاً وعاء. فقال لها لا يوجد بعد وعاء. فوقف الزيت[13]».

إن الاعتقاد بعجائب «الزود» حيث تزيد بعض المنتجات، لاسيما القمح والزيت بطريقة غامضة، شائع جداً في سورية وأكثر ما يتوقع الناس حدوثها هو في ليلة عيد الغطاس. وهناك العديد من الحكايات تروى عن أشخاص أتقياء شهدوا مثل هذه العجائب وحدَّثوا بها قبل وفاتهم. في المنطقة التي نشأت فيها يسود الاعتقاد بأن الزود يحدث في ساعة مباركة فينزاح الغطاء عن جرة الزيت ويبدأ الزيت بالتدفّق منها. على من يسعده الحظ برؤية هذه العجيبة ألاّ يظهر الخوف أو العجب وإلا توقف التدفق. وعلى من أوتي هذه النعمة أن يأتي بأوعية، وهو في أقصى حالات التعبد والخشوع، ويستلم الزود المتدفق بروح خاشعة وشاكرة، فيستمر الزود لغاية امتلاء جميع الأوعية. من القصص التي كانت شائعة في عائلتنا، واحدة تروى عن رجل متعبد من آل رحباني، شهد العجيبة في مخزن بيته، فلما دخلت زوجته المخزن لترى ما يؤخره ورفعت يديها مستغربة خائفة، توقف الزود على الفور. كثيراً ما سمعت هذه القصة في طفولتي من دون شعور بالحاجة للتحقيق فيها إلى أن ذهبت إلى المدرسة الأميركانية في سورية. بعد ذلك قصدت ابن الرجل المتعبد الذي أكّد لي أنه، بالرغم من عدم رؤيته العجيبة بنفسه بسبب صغر سنه، لا يشك في رواية أهله على الإطلاق. مع الأسف، توفي الوالدان قبل أن تسنح لي الفرصة لسؤالهما عن القصة.

ولكن لماذا نسمح للفضول بأن يُضعف الإيمان بالمبدأ الروحاني العظيم الذي هو وراء كل هذه المعتقدات؟ فإذا ربطنا كل هذه القصص بإيمان.الشرقي الأساسي أن كل خير مصدره اللّه، ألا تصبح معقولة ومقبولة؟ إن محاولات الغربي لتفسير مثل هذه الأشياء منطقياً، ما هي إلا محاولات ضعيفة لتفهم العجيبة الإلهية ولتفسير سبل المانح الوهّاب. طالما أننا لا نجعل من هذه التخيلات الروحانية معتقداً أكيداً ونهائياً، فإنها تساعد كأية وسيلة منطقية أخرى في التأكيد على أن كل خير مصدره

[13] الملوك الثاني 4: 1-6

اللّه. وسواء كانت الهدية بضعة أرغفة وسمكتين، أو آلاف الأرغفة والسمكات، فإن اللّه هو الذي أطعم الخمسة آلاف، وهو الذي يطعم الملايين من أبنائه كل عام عبر عجيبة الزود السنوية في كل الكروم والحقول في العالم.

في تضرعه المؤثر الذي يبدأ «من الأعماق صرخت إليك يا رب»، يقول كاتب المزمور المئة والثلاثين «نفسي تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبح أكثر من المراقبين الصبح[14]». إن هذه الكلمات لا تفي بالمرام ولا تعبِّر حقيقة عن تلك الناحية من الحياة الشرقية التي يشير إليها المزموري، والمقصود بها أن شوقه لتجلي اللّه كشوق ***المتسهد*** للفجر. وهذا التعبير يأتي من كلمة ***سهاد***، أي الأرق. والشعر الشرقي مليء بالإشارات إلى السهاد سواء من الخوف أو من مشاعر أخرى كالحزن أو الحب. ففي بلاد ملؤها الصراعات القبلية والوحوش المفترسة، تكثر في الليل أشباح الخوف والرعب. المتسهد يصارع الليل ويراقب النجوم التي تحدد نوبة المراقبة منتظراً إطلالة الفجر بفارغ الصبر لكي يطرد عنه الهواجس التي تقض مضجعه. يلتاع الشاعر العربي من فرط سهاده فيقول:

وليل ٍكموج ِالبحرِ أرْخى سُدُولَهُ   علـيَّ بِأنـواعِ الهمـومِ ليبـتـلي

كأن الثريا علّقت في مصامهـا   بـأمراس كتان إلى صم جندل[15]

ليس الحارس هو وحده المعني بهذه الأبيات، بل كل متسهدٍ منتظرٍ إطلالة الفجر. أما المزموري فعنده الشعور نفسه بالثقة والبهجة النابع من وجود اللّه كذلك الشعور الذي يغمر حراس الليل الأرقين مع إطلالة الفجر؛ ذلك الشعور الداخلي بالهدوء والسلام الذي لا يأتي سوى من وجود اللّه في النفس الإنسانية.

«هكذا قال السيد الرب ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيأتون بأولادك بالأحضان وبناتك على الأكتاف يُحملن[16]». المقصود بهذه الآية هو عادة حمل الأولاد على الأكتاف، وهي عادة غير معروفة في الغرب على ما أعتقد، ولكنها واسعة الانتشار في الشرق. ففي أيام الطفولة المبكرة، يُضم الطفل إلى الصدر. ولكن ما أن يصبح بإمكانه الجلوس، حتى يصار إلى حمله على الكتف. ترفع الأم طفلها وتضعه برفق على كتفيها، فيتمسك على الفور برأسها، حيث لا يوجد قبَّعة يخشى عليها. وهذه العادة مألوفة لدرجة أن المرء كثيراً ما يرى أماً تغزل أو تحيك الصوف، بينما طفلها جالس على كتفيها.

---

[14] مزامير 130: 6 (التكرار هو كذلك في الأصل، المحقق).

[15] في الأصل الإنجليزي: Oh, the night's curtains which are like the waves of the sea are fallen upon me, to afflict me with every type of anxiety. It seems that the Pleiadas [which marked the march of the night] have been arrested in their course by being tied with hemp ropes to an adamant.

وهي، على ما يبدو، ترجمة لهذين البيتين من معلقة أمرئ القيس. (المحقق)

[16] إشعيا 49: 22

كما هو معروف، تتضمن الآيات الأخيرة من سفر إشعيا الكثير من البشائر لبني إسرائيل حول جمع شتات المسبيين. إنها نبوءة نابعة من أمل بني إسرائيل الدائم في ألاَّ يتخلى الله عن خاصته إلى الأبد. وبالتالي فإن النبي يُطمئنهم إلى أن يهوه لن يطرد الأمم من أمامهم ويعيدهم إلى أرضهم فحسب، بل أنهم سيحملون أبناء «الشعب المختار» على أكتافهم كما يحمل الخدم أبناء النبلاء. «ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك[17]». إن اللغة التي يستعملها إشعيا هي تلك التي يحب النبلاء في الشرق استعمالها. إنها لغة المجد الأرضي والنظرة الضيقة إلى أصل وقدر عنصريين جاء العهد الجديد ليحرر منهما، وليدعو إلى نظرة إنسانية أشمل. إن عالمنا ما يزال مملوءاً بالأخطاء الكبيرة، ولكنه بالتأكيد قد قطع شوطاً بعيداً منذ أيام إشعيا.

يقول يوحنا المعمدان في إجلاله للمسيح: «أنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى منّي الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار[18]». يقدم لوقا الفكرة نفسها ولكن بأسلوب مختلف بعض الشيء حيث يرد «لست أهلاً أن أحل سيور حذائه[19]». لقد سبق وذكرت أن السوري يعتبر القدمين غير نظيفتين وبالتالي فمن المعيب ذكرهما دون القول ***أجلّ الله شأنك***. أما في حضور أحد النبلاء، فليس ثمة من عذر للإتيان على ذكر الحذاء مثلاً. من هنا، فحين يقول أحدهم للآخر من باب طلب المعروف «إني أنحني على قدميك»، أو «دعني أحمل حذاءك»، فأنه ينحدر إلى أقصى درجات الضِّعة. لهذا فحين تقاطر بعضهم إلى يوحنا ليعمدهم معتقدين بأنه المسيح، استعمل أقصى تشابيه الإتضاع التي للشرقيين بقوله انه غير مؤهل لحمل حذاء الآتي، أو لحل سيور صنادله.

يروي الإنجيليون الثلاثة متّى ومرقس ولوقا حكاية المرأة التي شفيت من مرض مزمن بلمس هدب ثوب يسوع: «وامرأة بنزف دم منذ اثنتي عشرة سنة وقد أنفقت كل معيشتها للأطباء ولم تقدر أن تشفى من أحد جاءت من ورائه ولمست هدب ثوبه. ففي الحال وقف نزف دمها. وللحال قال يسوع من الذي لمسني...قد لمسني واحد لأني علمت أن قوة قد خرجت منّي. فلما رأت المرأة أنها لم تختف جاءت مرتعدة وخرّت له وأخبرته قدام جميع الشعب لأي سبب لمسته وكيف برِئت في الحال. فقال لها ثقي يا ابنة. إيمانك قد شفاك اذهبي بسلام[20]».

إن الاعتقاد بأن لمس شخص أو شيء مقدس ينقل قوى إلهية للمؤمنين الذين يلمسونه بخشوع، ليس حكراً على الشرق. والمرأة هذه كانت تتبّع تقليداً سابقاً لزمانها بمئات القرون، ومعمولاً به من قبل جميع الفئات والنزعات الدينيّة في

[17] إشعيا 49 :23
[18] متّى 3 :11
[19] لوقا 3 :16
[20] لوقا 8 :43

الشرق. وكابن للكنيسة الأرثوذكسية في شبابي، كنت دائماً اعتبر لمس طرف ثوب الكاهن أثناء تسبيحه اللّه في الكنيسة امتيازاً عظيماً. لقد كان من المستحيل أن أمر أمام الكنيسة دون أن أقبّل بوابتها أو حجر الزاوية فيها. وكنت أرى في هذه الأعمال الصغيرة دعماً روحانياً نابعاً من الإيمان بأن ثمة فضيلة تنتقل من الأشخاص الأتقياء أو الأشياء المقدسة إلي. هناك الكثير مما يمكن تحميله للنص الذي أمامنا، ولكن نصوصاً كهذه يجب النظر إليها لناحية الانطباع العام الذي تتركه في الذهن أكثر مما لناحية التشريح الناقد. قد يكون أن عبارة يسوع «لأني علمت أن قوة قد خرجت منّي»، تشير إلى الاعتقاد بقدرة الأشخاص الأتقياء على منح القوة الروحانية لمن يلمسونهم. ولكن بغضّ النظر عمّا حدث في فلسطين لألف وتسع مائة سنة خلت، فإن هذا الاعتقاد شائع جداً. فالذي نحبه، كائناً من كان أو ما كان، يصبح مصدر قوة بالنسبة إلينا. لقد لمس العديد من الطفيليين أو غير المكترثين يسوع من دون حصول أية عجيبة. فالقوة الشفائية ليست في الثوب بل في القلب. أما حين جاءته المرأة المريضة بأعمق مشاعر الأمل والابتهال، فإن مجرد لمسه كان كافياً لدعم قواها وتجديد حيويتها الروحية. وقد أكد المعلم أن القوة ليست في الثوب بقوله: «ثقي يا ابنة. *إيمانك* قد شفاك اذهبي بسلام».

في قصة الصلب نقرأ ما يلي: «ولما مضوا به أمسكوا سمعان رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع. وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً وينُحْن عليه. فالتفت إليهن يسوع وقال. «يا بنات أورشليم لا تبكيّن علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن...لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس[21]».

إن المثل الذي ينتهي به هذا المقطع شائع الاستعمال في الكلام الشرقي وبأشكال مختلفة. فعن الطمّاع يقال (إذا كان يأكل شيئاً لا يلذ به) «إذا كان ضرسه يقطع بالمرِّ هكذا، فكيف بالحلو؟» وعكساً لما ورد في لوقا يقال: «إذا كانت هذه رغبته باليابس، فكيف تكون بالطري؟» وأيضاً «إذا كان هذا ما يصنعه بالقريب، فكيف يكون صنعه بالغريب؟».

حينما قال يسوع للنسوة اللواتي تبعنه: «يا بنات أورشليم لا تبكيّن علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»، كان ينصحهن بألاّ يبكين على البريء المدان، بل على أولئك القساة معدومي الشفقة الإنسانية الذين لا يتورعون عن إدانة البريء. من هنا كانت صرخته لهم «لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس». أي إذا كانوا يدينون إنساناً خيّراً وبريئاً بهذه القسوة، فكيف يحكمون على المجرم الحقيقي؟

[21] لوقا 23: 26

إن وصف صياح الديك يذكرني بتسميتنا للديك «الساعة الدقّاقة» بسبب صياحه في مواعيد ثابتة. فقد كنا نعتقد بأن الديك يصيح ثلاث مرّات مما يسهل علينا تحديد الساعة في الليل. الصيحة الأولى هي في الساعة التاسعة مساء، والثانية عند منتصف الليل والثالثة في الثالثة صباحاً. يحتفظ عامة السوريين بدجاجهم في قنٍ صغير تحت البيت ويجعلون فيه فتحة لدخول الطير تُسَدُّ بحجر في الليل، كما يوجد فيه كوة صغيرة تبيض الدجاجات فيها. لهذا، فإن صياح الديك يُسمع من البيت. وكم من سهرةٍ قطعها صياح الديك فننتبه قائلين «ياللّه انه منتصف الليل!» فيحاول مضيفنا الاحتيال علينا بالقول «لا، إنه صياح المساء وليس منتصف الليل».

هناك بعض الناقدين المتنورين الذين يقولون إن الديك يصيح في أي وقت يشاء من الليل. هنيئاً لهؤلاء المتنورين بمعرفتهم. أما لنا نحن السوريين البسيطين فديكتنا تصيح ثلاث مرّات تماماً كما وصفت!

إن العهد الجديد يذكر بوضوح صياح المساء والفجر. وكقاعدة عامة، تكون صيحة الديك على ثلاث دفعات تفصل بين الواحدة والأخرى هنيهة صغيرة. بعد انتهاء العشاء السري «قال لهم يسوع إن كلكم تشكّون فيّ في هذه الليلة. لأنه مكتوب إني أضرب الراعي فتتبدد الخراف. ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. فقال له بطرس وإن شك الجميع فأنا لا أشك. فقال له يسوع الحق أقول لك إنك اليوم في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرّتين تنكرني ثلاث مرّات[22]». إن الإشارة هنا هي إلى صيحة المساء لأن المشهد كله هو في أول المساء. وهكذا، فلما أنكر بطرس معلمه بشكل واضح، «خرج خارجاً إلى الدهليز. فصاح الديك[23]». وحين أنكره مجدداً بينما كان يُستجوب من الحاضرين، «فابتدأ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه. وصاح الديك ثانية[24]».

أمّا المقطع الآخر فيشير إلى «صيحة الفجر»: «إسهروا إذاً. لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت أمساءً أم نصف الليل أم صياح الديك أم صباحا[25]».

في كلامه عن الطريقة الغامضة والسريعة التي يأتي بها ابن اللّه، يأتي يسوع على ذكر الطحن بالرحى، وهو تقليد سوري قديم. «إثنتان تطحنان على الرحى. تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى[26] ». إن ***الجاروش*** (المطحنة اليدوية، الرحى) يعتبر أداة أساسية من أدوات المنزل السوري[27]. لقد كنا نملك واحداً في بيتنا وإن كنا نشترك باستعماله مع عائلات عمومتي. يتألف الجاروش من حَجَرين مستديرين، الأسفل ومِرْدَاته، ويكون قطر الواحد منهما عادة بين الثماني عشرة والعشرين بوصة مما

---

[22] مرقس 14: 27-30

[23] مرقس 14: 68

[24] مرقس 14: 71، 72

[25] مرقس 13: 35

[26] متّى 24: 41

[27] تثنية 24: 6

يجعل حمله ممكناً. يُجمع الحجران الواحد إلى الآخر بدبّوس خشبيّ يثبّت في منتصف الحجر السفلي، ويدخل في ثقب على شكل قمع في وسط المرداة. على طرف المرداة قبضة خشبية يدار بها الحجر. يمكن لامرأة قوية واحدة أن تدير الجاروش. ولكن العمل مع صديقة يحوّل الأشغال المضجرة إلى تسلية. لهذا فغالباً ما تتعاون امرأتان على الطحن بالجاروش فتجلسان الواحدة قبالة الأخرى والجاروش على قطعة قماش نظيفة أو جلد خروف بينهما. تمسك المرأتان معاً بالقبضة الخشبية وتتعاونان على برمها باليد اليمنى، بينما واحدة منهما تسكب الحبَّ في فتحة القمع. يتناثر القمح المجروش الخشن على قطعة القماش أو جلد الخروف.

من النادر أن يستعمل الجاروش اليوم لطحن القمح إلى دقيق إذ تستعمل لذلك المطاحن المائية. أما الجاروش فأكثر ما يستعمل في طحن القمح وجعله **برغلاً**. لصنع البرغل، يسلق القمح ثم يُنشّف جيداً في الشمس على السطوح. عند الطحن، يُبلّ القمح بالماء البارد مباشرة قبل سكبه في القمع بحيث يقشر أثناء طحنه. يعتبر البرغل من أهم عناصر الطعام لدى عامة الشعب، ويستعمل كثيراً في صناعة ***الكبّة***. تقوم العائلة بجرش مؤونة الشتاء كله في ليلة أو ليلتين، فتكون سهرة يسودها المرح ويتحلق فيها الجيران حول الجاروش فيتناوب الرجال على الجرش والغناء مما يحوّل هذا العمل الصعب إلى مهرجان ممتع.

ما تقدم يؤكد معنى النص الإنجيلي السابق أن مجيء ابن الإنسان سيكون سريعاً وغامضاً بحيث أن المتيقظين وحدهم يشاركون به. فحتى الجالسون في هذه الحياة الأرضية بالقرب من بعضهم بعضا «كاثنتين تطحنان على الرحى. تؤخذ الواحدة وتترك الثانية»، لا يمكن لهم التأكد من كونهم جميعاً سيخلصون. «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم[28]». من العبث نكران الدور الذي لعبه هذا الترقب لقدوم مملكة السماء في تطور الكنيسة المسيحية وانتشارها في العالم.

هناك العديد ممن كتبوا لي متسائلين عن موقف المسيحيين السوريين من العقائد والمذاهب الكنسية المختلفة في الغرب، وأبدى بعضهم رغبته في أن أوسع نطاق البحث في هذا الكتاب بحيث يتضمن مناقشة لبعض العقائد التي تزعم أن لها أساساً متيناً في الإنجيل.

إن هذه الأسئلة تتطلب بحثاً مفصّلاً في عدد من المواضيع المعقدة التي تُخرج هذا الكتاب عن هدفه الأساسي. من جهة ثانية، فإن الكاتب ليعتبرها قحة لا تغتفر منه إن هو تنطح للخوض في موضوع سبق لعدد من مشاهير المؤرخين والبحّاثة أن خاضوا فيه، ولا يجوز برأيه لمن ليس له مستوى أهليتهم أن يتنطح له. بَيدَ أني، واستجابة لرغبة هؤلاء القراء المهتمين، سأضيف ولو مقداراً قليلاً إلى الحجم الهائل

[28] متى 24: 42

مما كُتب حول هذا الموضوع القديم.

كما هو معروف لدى مؤرخي الكنيسة، لم يكن للمسيحيين السوريين اليد الطولى في تطوير العقائد الكنسية. فالتنظيم اللاهوتي بعيد عن أذهان المسيحيين الشرقيين بُعد التنظيم السياسي. فهم متعبدون أكثر منهم لاهوتيين، مؤمنون أكثر منهم مفكرين، ولم يحاولوا خلق وحدة منطقية من تفكيرهم الديني، ولا حاولوا تطوير صوفيّتهم إلى ماورائية متكاملة.

إن الشرقي يُقرِض في الدين ويقترض في اللاهوت. فمسار الدين هو دائماً من الشرق إلى الغرب، أما مسار اللاهوت فمن الغرب إلى الشرق. فلو تُركت المسيحية الفلسطينية على حالها لما كانت قد بنت هذه العمارة الهائلة من العقائد كالعقيدة الأثنارية مثلاً. وبغض النظر عما إذا كانت العقائد الدينية قد صدرت عن روما أو القسطنطينية، إنطاكية أو الإسكندرية، فإن أجزاءها الأساسية كانت رومانية أو يونانية، وليست شرقية.

بدأت الكنيسة المسيحية بعدد من التلاميذ اليهود الذين اتبعوا يسوع المسيح في فلسطين، أما توسعها وتنظيمها المدهشان فقد حصلا بين «الأمم». في فلسطين كان الإيمان فطرياً، أما بين الأمم، وبتأثير اليونان والرومان، فقد أصبح ديناً تأملياً.

كانت عقيدة المسيحيين الفلسطينيين الإيمان بالآب والابن (عن طريق التكريس) ومحبة الاخوة لبعضهم بعضاً. ليس بمقدوري التوسع في هذه العجالة في الكيفية التي تحوَّل بها هذا الدين البسيط إلى عقيدة تأمّليّة علمية سلطوية، ترسخت أسسها في السنوات الأولى من القرن الرابع الميلادي. يكفي القول لأغراض هذا البحث أنه ما أن فرغت المجالس المسكونية من صياغة عقائدها، وصب قوالبها وختمها بالحرم الأكبر، وحيازة الدعم الإمبراطوري لها، حتى كان الأمل ببقاء أية كنيسة مشرقية معارضة لها قد تبخر. أما الهدف الذي كان أولئك اللاهوتيون والسياسيون القابضون على مقدرات المجالس يتوخونه فهو الخلاص من الروح الانقسامية في الكنيسة التي أرادوها أن تكون «قطيعاً واحداً يرعاه راعٍ واحد».

من هنا نرى أن الأمر لم يتطلب أكثر من فترة وجيزة بعد الصلب لكي تسيطر العقلية اليونانية البارعة والعبقرية التنظيمية الرومانية على فكر الكنيسة السورية وممارساتها. فبالحرم والنفي والاستشهاد أزيلت جميع العقبات من درب العقيدة السلطوية. فالإيمان البسيط بالمسيح أُجبر على أن يأخذ بالتصريحات العقائدية المعقّدة. والمحبة الأخوية من حيث هي رابطة الاتحاد المسيحي، أعطت مكانها للسلطة المسكونية. وحين نجح أولئك المسكونيون الطموحون في خلق ذلك الشق العظيم الذي قسم المسيحيّة إلى الجسمين المعروفين بالكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، أو اليونانية واللاتينيّة، لم يكن أمام الكنائس السورية سوى الانحياز إلى

واحدة منهما. لقد تحولت العقائد بالنسبة إلى هذه الكنائس إلى شعارات حزبية ووسائل تقسيم وكراهية. وهكذا «قسِّم» المسيح، وبدأ بعض الذين يدّعون أنهم تلاميذه، في الشرق والغرب، يهتفون «أنا مع بولس»، وآخرون «أنا مع أبولوس»، وقسم ثالث «أنا مع كيفاس (بطرس)». وهكذا فالعقائد الموجودة في الكنائس السورية اليوم هي تلك العائدة للكنيستين العالميتين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

إما فيما يتعلّق بالسؤال الثاني، فأكتفي بالقول أولاً، إنني آليت جهدي ألاّ أدخل في نقاشات عقائدية في هذا الكتاب لأن معظم العقائد التأملية في المسيحية لا علاقة لها بالعهد الجديد. ثانياً، لأن الهدف من هذا الكتاب هو حصراً إعطاء الخلفية الشرقية لبعض نصوص الإنجيل التي لا يمكن فهمها بشكل واف من دون الإلمام ببيئتها الأصلية. ولقد قررت ألاّ أقتفي حتى أثر «النقّاد الكبار» فأتساءل في صحة بعض النصوص وما إذا كانت «أصلية» أم «غير أصلية». لهذا اعتبرت، أثناء كتابة هذا الكتاب، أن كل نص يعكس صورة من صور الحياة الشرقية هو نص «أصلي»، بحيث يأتي هذا العمل خالياً من مخاض المناقشات المعقدة بقدر ما كانت عبارات البشارة البسيطة خالية منها.

ليس هناك من ناحية في الفكر الإنساني لم تستعملها الكنائس المسيحية في تعميم عقائدها المجزّئة ومذاهبها التأملية المفضلة. هناك عدد لا يحصى من مجلدات العقائد المسيحية التي يتآكلها الغبار والعثّ على رفوف المكتبات لأنها من حضيض الأرضيات. إن فكرة الاخوة العالمية والتضامن الإنساني تحرِّض الناس اليوم، وفي شتّى أنحاء المعمورة، لإعادة الكنائس المسيحيّة إلى الإيمان البسيط الذي علّم به يسوع الناصري، داعية إياهم إلى ازدراء الإجماع الذي تحاول العقائد المسيحية فرضه في معتقداتها الفكرية وأساليبها المصقولة. لقد بدأت البروتستنتية بالعودة إلى جذورها الأساسية للتعرف إلى إرثها الكبير وقوة عبقريتها الدافعة، بحيث أن التعاون بين الأفراد يسجل انتصارات على السلطات العقائدية غير الطبيعية داخل الجسم البروتستنتي. إن عبودية الحرف تتراجع أمام حرية الروح، وبشارة المسيح تنتصر على النظريات في المسيح، والكمال الروحي النابع من التشبه بالمسيح يدفع أمامه جميع النظريات عن الخلاص السحري. إن عقيدة اللاهوتيين تتضمن العديد من القوانين، أما عقيدة المسيح فتوصي باثنتين: أحبب الرب إلهك من كل قلبك، وأحبب قريبك كنفسك.

إني أفضل عقيدة المسيح.

الفهرس

عنوان مشوّق وربما يكون صعباً للبعض. ولكنه على كل حال جذّاب.

الكتاب موجه للقارئ الأجنبي ولكنه يفيد القارئ العربي أيضا لأن العرب أنفسهم أصبحوا في غربة عن أوطانهم وعاداتهم وتقاليدهم.

إن فائدة هذا الكتاب واضحة. وأتمنى له الرواج. وربما يجب نشره بين دارسي الكتاب المقدس وطلاب الكهنوت.

غبطة غريغوريوس الثالث
بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للملكيين الكاثوليك
دمشق، 2002

كتاب مُمتع لأقصى درجة . . وتتأتى جاذبيته من معالجة جريئة وجديدة لفكرة كانت موجودة.

قصد المؤلف منه واضح ومحدد، وهو أن يقدم للقارئ الغربي، خلفية عامة لنصوص الأناجيل التي نبتت في البيئة الاجتماعية السورية.

غادة بوبو
كاتبة
دمشق، 2001

...لم أدع المسيح السوري من يدي حتى قرأت آخر كلمة في آخر صفحة.

إنه مرجعٌ أساسيٌ في قراءات أساتذة وطلاب علم النفس والاجتماع والاتصالات في جميع أنحاء العالم العربي. يجمع "المسيح السوري" بين عمق التحليل وسلاسة الأسلوب وبعد الرؤية. أما ترجمته فرشيقة ودقيقة حافظت على ما نجده في النص الأصلي من عمق وانسياب.

لقد اكتشف أسامة المهتار تحفة نادرة كادت تنسى، وله الفضل في إحيائها في حلّة رائعة.

د. عائدة ورعة
جامعة أوتاوا،
المركز الكندي للأبحاث العلمية
أوتاوا، 2001

Jubran H. M. Tel.: 961 3 88 26 40

دار أمواج

ISBN 9953-417-05-9
9 789953 417059